جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم
وحدة البحوث والدراسات

سلسلة الثقافة الإسلامية



حكومة دبي
GOVERNMENT OF DUBAI

جمهرة البلاغة

للعلامة
عبد الحميد الفراهي
المتوفى سنة ١٣٤٩هـ



اعتنى به
أ. د. أحمد حسن فرحات
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
د. محمد إقبال أحمد فرحات
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك

جمهرة البلاغة

جمهرة البلاغة

تأليف : عبد الحميد الفراهي

اعتنى به : أ.د. أحمد حسن فرحات، د. محمد إقبال أحمد فرحات

الطبعة الأولى : ١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م

طبع بموجب إذن طباعة من المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات

رقم (٢٠١٣/٥٦٧) تاريخ (٢٠١٣/٠٧/١١م)



جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

وحدة البحوث والدراسات

ص.ب: ٤٢٠٤٢ دبي - الإمارات العربية المتحدة

هاتف: ٢٦١٠٦٦٦ ٤ ٩٧١ +

فاكس: ٢٦١٠٠٨٨ ٤ ٩٧١ +

الموقع على الإنترنت : www.quran.gov.ae

البريد الإلكتروني : research@quran.gov.ae

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم
وحدة البحوث والدراسات

سلسلة الثقافة الإسلامية

جمهرة البلاغة

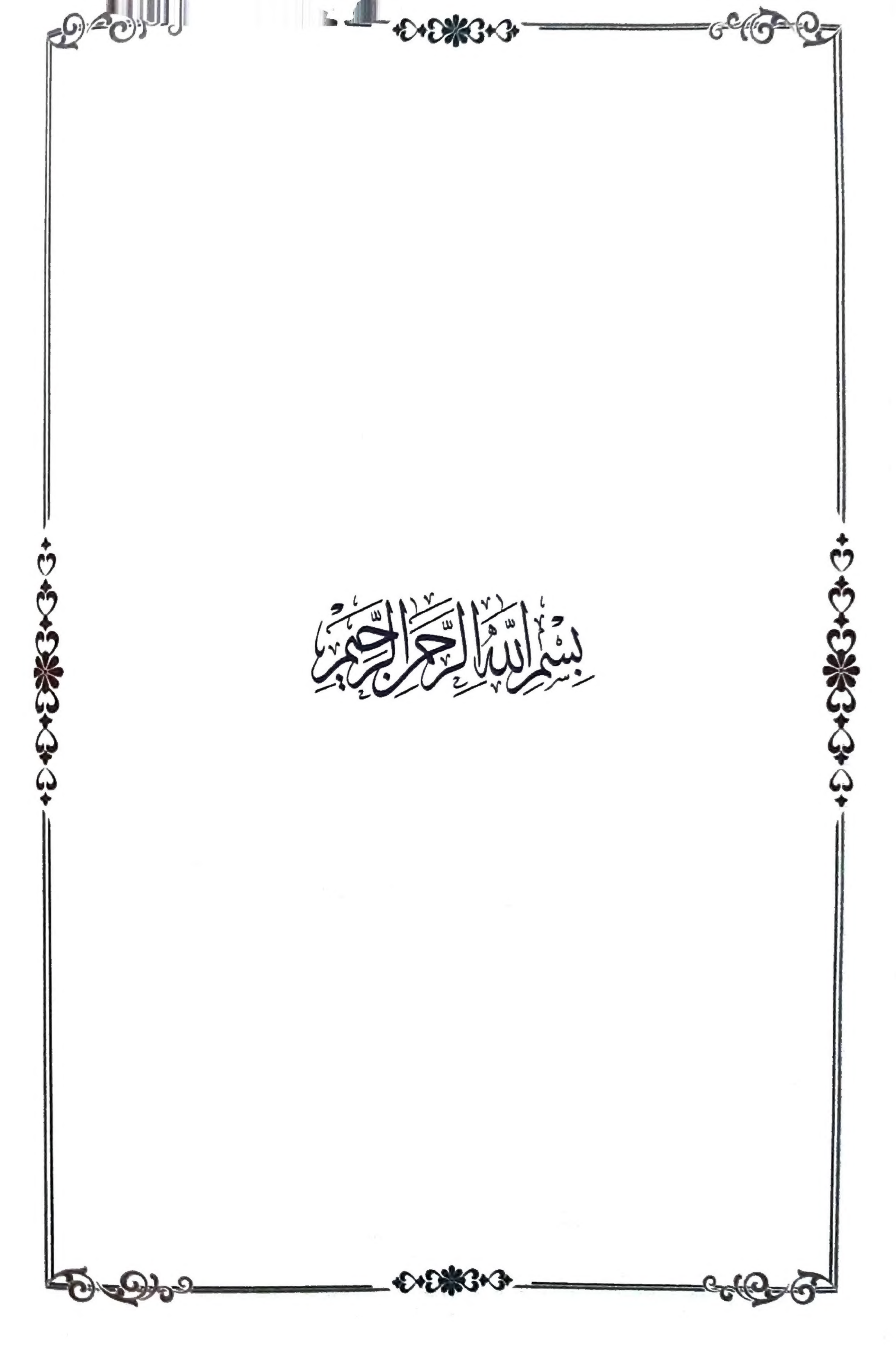
للعلامة
عبد الحميد الفراهي
المتوفى سنة ١٣٤٩هـ

اعتنى به

أ. د. أحمد حسن فرحات
أستاذ التفسير وعلوم القرآن

د. محمد إقبال أحمد فرحات
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم


بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، خاتم النبيين وإمام المرسلين، وخير خلق الله أجمعين، ورحمة الله للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فإن القرآن الكريم هو الرسالة الخاتمة، والمعجزة الخالدة، أنزله الله سبحانه على قلب رسوله وحبيبه محمد ﷺ بلسان عربي مبين، فسطعت أنوار معرفته، وتجلت أسرار إعجازه، وأخذت روعة بيانه بالألباب، وأسرت القلوب والأفئدة، وتحدى الأولين والآخرين من الثقلين أن يأتوا بمثله، فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وأدرك المخاطبون أنهم أمام بيان معجز، وقد تكفل الله سبحانه بحفظه، وصانه أن تطال إليه يد التحريف والتبديل، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ومنذ أن أنزل القرآن على الرسول الكريم ﷺ، صار شغل الأمة الشاغل، قراءةً، وتزكيةً، وتعلماً وتعليماً، وحفظاً، وعملاً، وتدبراً، وأفرغوا في خدمته وتفسير نصوصه، وتحليل خطابه، والكشف عن كنوزه كلَّ طاقاتهم، فتحقق للقرآن الكريم من العناية والحفاوة ما لم يتحقق قط لكتاب سماوي أو أرضي، ولن يتحقق ذلك. وقد هيأ الله لكتابه الكريم أقواماً من شعوب وقبائل شتى، عرباً وعجماً، يتسابقون ويتنافسون في خدمته، والذود عنه، فخرجوا بأنواع شتى من أصناف العلوم التي نشأت في رحاب القرآن؛ فقد استمدّت هذه العلوم جذورها من القرآن الكريم، واستهدفت جميعها غاية أصيلة جليلة هي خدمة هذا الكتاب المجيد، حتى يحسن فهمه، واستجلاءً لمواطن الجمال وأسرار البلاغة في بيانه المعجز، فدرسوا تراكيب الألفاظ، فنشأ علم النحو، وبحثوا في بنية

الكلمة، والبناء الداخلي للّفظ ذاته، فقدّموا علم الصرف، ثم درسوا أنماط التعبير الفني في القرآن، فكان علم البلاغة من بيان ومعانٍ وبديع.

ومن كتب البلاغة، هذا الكتاب (جمهرة **البلاغة**) الذي نحا مؤلفه منحى بديعاً يدعو فيه إلى تأسيس فن البلاغة على أسس منبثقة من القرآن الكريم، وكلام العرب الأقحاح، فإن المؤلف (عبد الحميد الفراهي) يرى أن فن البلاغة العربية قد حاد عن قَصْد السّبيل، وقد آنَ لهذا الكتاب الذي طال انتظاره أن يخرج إلى عالم النُّور بطبعةٍ محقّقةٍ مدقَّقةٍ، تليق بمكانته، ومكانة مؤلِّفه.

ومن منطلق رسالة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم في نشر الثقافة القرآنية، وتعميمها، يشرفها أن تسهم في خدمة كتاب الله العزيز، وتقدم إلى المكتبة الإسلامية في سلسلة الثقافة الإسلامية هذا الكتابَ الآنف الذكر، راجين المولى عزّ وجلّ أن يجعل هذا الكتاب وغيره من إنجازات الجائزة صدقة جارية في صحيفة أعمال **صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس دولة الإمارات العربيّة المتّحدة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي، راعي الجائزة** الذي أنشأ هذه الجائزة لتكون منار خير تنشر ما تجود به القرائح في حقل الدراسات القرآنية، وتخدم القرآن الكريم بسبل شتى، فجزاه الله عن القرآن وأهله خير الجزاء.

ومن منطلق إسناد الفضل لأهله، فإن وحدة البحوث والدراسات في الجائزة تتقدم بالشكر والتقدير إلى رئيس اللجنة المنظمة للجائزة سعادة المستشار إبراهيم محمد بو ملحه، مستشار صاحب السمو حاكم دبي للشؤون الثقافية والإنسانية الذي ما فتئ يشجع نشر الكتب العلمية القيمة في إطار رسالة الجائزة في خدمة كتاب الله الكريم وسنة رسوله العظيم ﷺ.

وفي الختام نسأل الله أن يجزل الأجر والمثوبة لمؤلف هذا الكتاب ومحقّقَيْهِ ولكل من أسهم في خدمته وتصحيحه وتدقيقه وإخراجه في هذا الثوب القشيب.

وصلى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحيم سلطان العلماء
رئيس وحدة البحوث والدراسات
جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسلامُ على الرَّسولِ الأمينِ، سيِّد الأوَّلينَ والآخِرِينَ، الذي أنزلَ اللهُ عليهِ القرآنَ معجزةً خالدةً، وحُجَّةً باقيةً إلى يومِ الدينِ. وبعدُ:

فهذا كتابُ «جمهرةِ البلاغةِ» ـ الذي طالَ انتظارُه ـ يخرجُ إلى عالَمِ النُّورِ بطبعةٍ محققةٍ مدققةٍ، تَليقُ بمكانتهِ، ومكانةِ مؤلِّفِهِ:

العلَّامةِ عبد الحميد الفراهي إمامِ العربيةِ والتفسيرِ في شِبْهِ القارَّةِ الهندية.

ولقد كان **هذا الكتابُ من أوائلِ ما كتَبَ المؤلفُ، وكما يذكرُ ذلك الدكتور ـ محمد أجمل أيوب الإصلاحي ـ في تحقيقه لكتاب «مفردات القرآن»** للمؤلف حيث يقول:

«جمهرة البلاغة: اسم الكتاب تاريخي يشير إلى سنة **١٣٢٢**هـ، ولعله بداية التأليف. وقد نَشَرَتْهُ الدائرةُ الحميدية بعد وفاة المؤلف سنة **١٣٦٠**هـ».

وقد كانت تلك الطبعة طبعةً حجريَّةً، لم تُخدم الخدمة الكافية، مما جعل قراءَتها صعبةً عسيرةً، ولعل هذا ما يُفَسِّر عدم إقدام المحققين على إعادة تـحقيقها ونَشْرِها.

وأذكر أن العلَّامة ـ أبا الحسن الندوي ـ كان قد أهدى الأستاذ محمد المبارك

ـ عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق ـ نسخةً من هذا الكتاب، واقترح عليه أن يعيد تحقيقه ونشره.

ويبدو أن الأستاذ المبارك لم يتح له وقته القيام بذلك، إضافة إلى صعوبة قراءة الكتاب.

ـ وسيأتي مزيد بيان لقيمة «جمهرة البلاغة» في المكان المناسب من هذه الدراسة.

وترجع صلتي بكتب الفراهي، إلى أوائل الفترة التي كنت معاراً فيها للتدريس بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ما بين عامي ١٩٦٧-١٩٧٢م حيث تعرفت على الطالب «**محمد أمانة الله**» القادم من الهند، وأمدَّني ببعض كتب الفراهي، والتي استفدت منها في بعض ما نشرته في مجلة الجامعة الإسلامية، وبخاصة في موضوع «المناسبات، والنظام».

وحينما كنت مدرساً بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض ما بين عامي ـ ١٩٧٥-١٩٨٢ ـ زارني الطالب بالدراسات العليا «**محمد عناية الله**»، وتبين أنه أخ لمحمد أمانة الله الذي سبق التعرف عليه في المدينة المنورة. ورغب إليَّ أن أشرف عليه في رسالتي الماجستير والدكتوراه، فأجبته إلى طلبه، وكان موضوع رسالته الأولى:

«**إمعان النظر في نظام الآيات والسور**».

وقد أراد بهذه الرسالة أن يُجلِّي للناس فكرةَ نظام الآيات ورباطها، ويلفتَ الأنظار إلى أهميتها وأبعادها، وأن يضع المعالم الهادية للوصول إليها.

أما موضوع رسالته الثانية فكان بعنوان:

«**نظام القرآن في سور الفاتحة والبقرة وآل عمران**».

وهذا البحث كان تطبيقاً عملياً لفكرة النظام، التي شرحها في الرسالة الأولى. وهو في الرسالتين متأثر بفكرة النظام التي ذهب إليها الفراهي.

وقد حصَّلت عن طريقه ما كان ينقصني من كتب الفراهي.

وأثناء عملي في جامعة الكويت ما بين عامي ـ **١٩٨٢-٢٠٠٠**م ـ أسندت إليَّ رئاسة تحرير مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، **فرأيت من المناسب أن أعرِّف الباحثين والدّارسين بالعلَّامة الفراهي، الذي كان مجهولاً إلى حدٍّ كبير في الأوساط العلمية، العربية والإسلامية**. فكتبت إحدى افتتاحيات المجلة تعريفاً به، وبمكانته العلمية، والمناصب التي شغلها، كما بينت مدى عشقه للعربية، وإعجابه بالعرب.

وكان اعتمادي في التعريف بـه على الترجمة الملحقة بكتاب «**إمعان في أقسام القرآن**» بقلم السيد سليمان الندوي ـ باعتبارها الترجمة الوحيدة المتاحة بالعربية في ذلك الوقت ـ.

أما اليوم وبعد أن نشر **الدكتور ـ محمد أجمل أيوب الإصلاحي** ـ كتاب:

«**مفردات القرآن**» للفراهي ـ محققاً تحقيقاً متميزاً، باذلاً فيه أقصى الجهد، وغاية الطاقة ـ **وقدم بين يدِي الكتاب تعريفاً ضافياً بالعلَّامة الفراهي من أوثق المصادر المتاحة له** ـ دون غيره ـ فلا يسعنا إلا أن نُحيل القارئ الراغب في التوسع إلى تلك الترجمة. وسنكتفي هنا بالترجمة المختصرة التي جاءت في بحث:

«**مفردات القرآن**» **لعبد الحميد الفراهي**.

والتي قدمها ـ الدكتور محمد أجمل أيوب ـ لندوة:

«**عناية المملكة بالقرآن الكريم وعلومه**»، والتي نظَّمَها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف بالمدينة المنورة.

(١) اسمه ونسبه ونشأته العلمية:

هو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي، حميد الدين، أبو أحمد الأنصاري، الفراهي.

نسبة (الفراهي) إلى قريته التي ولد فيها، واسمها (فريها) فعُرف بها ويرى بعض الباحثين أن أسرته هاجرت من المدينة المنورة إلى أفغانستان، وأقاموا زمناً في (فراه)، فلما نزحوا إلى الهند ونزلوا في هذه القرية سمّوها باسم موطنهم، وتحرفت على ألسنة الناس إلى فريها[١].

ولد الفراهي صباح يوم الأربعاء في السادس من جمادى الآخرة سنة ١٢٨٠هـ في القرية المذكورة من قرى مديرية (أعظم جره) في ولاية (أترابراديش) الحالية.

وكانت أسرته من الأسر الأنصارية الكريمة، ويعد أهلها من أعيان المنطقة ووجهائها، وكانت معروفة بنسبها وعلمها ومكانتها الاجتماعية، فنشأ الفراهي وترعرع في رخاء ونعمة.

بدأ تحصيله العلمي في منزله ـ كدأب أبناء البيوتات الشريفة في عهده ـ بقراءة القرآن الكريم على مؤدبه الأول الشيخ أحمد علي[٢]، وحفظ القرآن وهو ابن عشر سنين أو نحو ذلك[٣].

---

(١) مقال «ترجمان القرآن مولانا حميد الدين فراهي»، للدكتور شرف الدين الإصلاحي. مجلة معارف، عدد رجب ١٤١١هـ ص٨٨.

(٢) المرجع السابق، ص٨٩.

(٣) الترجمة الذاتية للفراهي ضمن مقال «الإمام حميد الدين الفراهي»، للأستاذ شير محمد في مجلة الضياء ٢/ ٧ ص٢٦٠.

ثم **تعلم اللغة الفارسية في منزله أيضاً في مدة تسعة أشهر**[١]، أخذها عن مؤدبه الشيخ محمد مهدي، وكان من علماء الفارسية وشعرائها[٢]. وسرعان ما حصلت له بذكائه وتوقد ذهنه ملكة قوية في اللغة الفارسية، وامتلك ناصية البيان، **فبدأ يقرض الشعر، ولم تمض مدة قليلة حتى أخذ يجاري فحول شعراء الفارسية**. فقال قصيدة صعبة الرديف ـ وهو ابن ست عشرة سنة ـ عارض بها قصيدة خاقاني الشرواني الملقب بحسان العجم (ت ٥٩٥هـ)[٣]، فلما عرضها ابن عمته العلَّامة شبلي النعماني (ت ١٣٣٢هـ)[٤] على أستاذه الشيخ فاروق العباسي ـ من كبار أدباء الفارسية ـ وسأله عن قائلها، قال: لا أدري، ولكن الظاهر أنها لبعض الشعراء المتقدمين[٥].

بدأ الفراهي تعلم اللغة العربية، وهو ابن أربع عشرة سنة، فانتقل من قريته إلى مدينة (أعظم جره) وقرأ فيها أكثر كتب الدرس النظامي على العلَّامة شبلي الذي كان أكبر منه بست سنين. ثم توجه معه إلى مدينة (لكناؤ) وحضر هناك مدة يسيرة في دروس العلَّامة الفقيه الشهير عبد الحي الأنصاري اللكنوي (ت ١٣٠٤هـ)[٦]، كما أخذ عن الشيخ فضل الله بن نعمة الله الأنصاري (ت ١٣١٢هـ) أحد الفضلاء البارعين في المعقولات[٧].

---

(١) الترجمة الذاتية للفراهي ضمن مقال «الإمام حميد الدين الفراهي»، للأستاذ شير محمد في مجلة الضياء ص٢٦٠.

(٢) نزهة الخواطر ٨/ ٢٤٨، وقد اطلعت على نسخة خطية من ديوانه الفارسي عند الشيخ بدر الدين الإصلاحي.

(٣) انظر ترجمته في لباب الألباب: ٤٠٥.

(٤) انظر في سيرته كتاب «حياة شبلي» للسيد سليمان الندوي، والأعلام للزركلي ٣/ ٣٥٥.

(٥) حياة حميد: ٢٨.

(٦) انظر ترجمته في نزهة الخواطر ٨/ ٢٥٠.

(٧) نزهة الخواطر ٨: ٢٤٨، وانظر ترجمته في ٨/ ٣٨٧.

ثم حداه حادي الشوق إلى التتلمذ على أديب العربية، وشاعرها المفلق العلَّامة فيض الحسن السهارنفوري (ت ١٣٠٤هـ)[١] الذي كان مدرساً في الكلية الشرقية بمدينة (لاهور)، فسافر إلى (لاهور) وقرأ عليه ـ بصفة شخصية ـ كتب الأدب العربي. وقد أحب الشيخ تلميذه لفرط ذكائه وحسن أدبه، فأهدى إليه نسخة كتبها وصححها بخط يده من كتابه «رياض الفيض»، وهو شرح للمعلقات السبع في ثلاث لغات: العربية والفارسية والأردية[٢]. وكان من حب الفراهي لشيخه أنه نشر ديوانه العربي سنة ١٣٣٤هـ على نفقته، وهو أول مطبوعات دار المصنفين بمدينة (أعظم جره).

وبعدما ما تخرج في العلوم المتداولة من المنقول والمعقول وعلوم العربية، **أقبل سنة ١٣٠٠هـ ـ وهو ابن عشرين سنة ـ على اللغة الإنجليزية والعلوم الحديثة،** فالتحق بثانوية (كرنل غنج) بمدينة (الله آباد) ثم بكلية (علي جره) التي تطورت فيما بعد إلى (جامعة عليجره). وكانت العربية والفارسية مواد لازمة لطلاب الكلية، ولكن الفراهي أعفي منهما[٣]، بل كلّف من قبل المسؤولين ترجمة كتابين إلى اللغة الفارسية لإدخالهما في المقررات الدراسية في الكلية التي كان هو أحد طلابها[٤].

وقد عني الفراهي في دراسته في الكلية بالفلسفة الحديثة ونال فيها درجة الامتياز مع اهتمامه بالإنجليزية والعلوم العصرية الأخرى. وقد **أخذ الفلسفة من المستشرق الإنجليزي الشهير (توماس أرنولد)** الذي كان من أساتذة الكلية، وعمل

(١) انظر ترجمته في نزهة الخواطر ٨/ ٣٨٩.

(٢) هذه النسخة النادرة محفوظة في مكتبة مدرسة الإصلاح، والكتاب مطبوع.

(٣) في الأصل: وعنهما.

(٤) أحدهما جزء من طبقات ابن سعد، ونشر ترجمته الفارسية سنة ١٨٩١م، والآخر رسالة بدء الإسلام من تأليف العلَّامة شبلي النعماني باللغة العربية.

فيها مدرساً عشر سنوات[١]. ومن مؤلفاته كتاب «الدعوة إلى الإسلام» الذي نال قبولاً عظيماً عند الباحثين المسلمين، ولكن الفراهي كان ينتقد هذا الكتاب انتقاداً شديداً، ويرى أن الغرض من تأليفه تجريد المسلمين من روح الجهاد[٢].

وفي أثناء طلبه في كلية علي كره، طلب إليه ترجمة تفسير سيد أحمد (مؤسس الكلية) إلى اللغة العربية، فرفضها قائلاً: «لن أشارك في نشر هذا الإثم»[٣].

ثم درس سنتين علم القوانين الجارية (الحقوق)، ولكنه كان يكره الاشتغال به، فنبذه ولم يكمل تحصيله[٤].

(٢) مناصبه وأعماله التعليمية والإدارية:

تولى الفراهي بعد إكمال دراسته مناصب عدة تعليمية، وإدارية، **فعين سنة ١٣١٤هـ مدرساً للعربية والفارسية بمدرسة الإسلام في مدينة (كراتشي)**، ودرس فيها أكثر من تسع سنوات.

ثم عيّن عام ١٣٢٤هـ أستاذاً مساعداً للعربية في كلية عليجره، وكان أستاذ العربية فيها حينذاك المستشرق اليهودي الألماني (جوزف هوروفيتس) ناشر الجزأين الأولين من «طبقات ابن سعد»، وصاحب كتاب «المغازي الأولى ومؤلفوها»[٥]، ولعل تعيينهما كان في وقت واحد. **وقد أخذ عنه الفراهي اللغة**

---

(١) انظر ترجمته في كتاب: المستشرقون ٢/ ٨٤.

(٢) حياة حميد: ٣٤.

(٣) المرجع السابق: ٣٦، وقد ذكره من وقائع أيام تدريسه في عليجره، بينما يرى الدكتور شرف الدين أنه وقع أيام طلبه في الكلية. انظر مقاله السابق الذكر ص٩٢.

(٤) مجلة الضياء ٢/ ٧ ص٢٦٠.

(٥) انظر ترجمته في كتاب: المستشرقون ٢/ ٤٣٣.

العبرانية، كما استكمل المستشرق عليه العربية. وفي أثناء إقامته في عليجره ألف الفراهي كتابه «إمعان في أقسام القرآن»، ونشر تفسير سورتي القيامة واللَّهب.

وبعد سنتين عيّن عام ١٣٢٦هـ أستاذاً للعربية بجامعة (الله آباد) وقضى هناك نحو ست سنوات، أصدر خلالها تفسير سورة التحريم. واختير عضواً في اللجنة العربية للعلوم الشرقية. ولما اقترح سنة ١٣٣١هـ تأسيس جامعة عالمية في المدينة المنورة، كان هو والعلّامة شبلي النعماني من بين العلماء الذين اقترحت أسماؤهم للتدريس فيها[١].

ثم اختارته حكومة (حيدر آباد) عميداً لدار العلوم وكانت كلية شرقية، فغادر إليها سنة ١٣٣٢هـ منتدباً من قبل حكومة محافظته، وكان ـ بالإضافة إلى مسؤوليته الإدارية ـ يدرّس الصفوف العليا في الكلية.

وكان الفراهي أحد المؤسسين للجامعة العثمانية بحيدر آباد، وهو الذي اقترح أن يكون تدريس العلوم الشرعية باللغة العربية، والعلوم العصرية باللغة الأردية، فوافقوا على الجزء الثاني، ولكن لم يوافقوا على الجزء الأول من اقتراحه[٢].

وفي أثناء إقامته بحيدر آباد ألّف كتابه «الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح»، ومقدمات من تفسيره «نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان». وكانت له حلقة أسبوعية لتفسير القرآن الكريم يحضرها العلماء والباحثون وطلبة علم القرآن، ويعرضون عليه أسئلتهم فيجيب عنها.

مكث الفراهي بحيدر آباد إلى سنة ١٣٣٧هـ، ثم استقال من منصبه مع رغبة المسؤولين في بقائه بـ(حيدر آباد)، وعاد إلى وطنه. وقد أشار إلى ذلك في ترجمته

---

(١) مجلة معارف، عدد رجب ١٤١١هـ، ص٩٦.

(٢) حياة حميد: ص١٧.

الذاتية الموجزة التي كتبها للدكتور تقي الدين الهلالي، حينما زاره في قريته في ١٧ رمضان سنة ١٣٤٢هـ قائلاً: «**ولما كانت هذه المشاغل تمنعني عن التجرد لمطالعة القرآن المجيد، ولا يعجبني غيره من الكتب التي مللت النظر في أباطيلها، غير متون الحديث، وما يعين على فهم القرآن، تركت الخدمة، ورجعت إلى وطني، وأنا بين خمسين وستين من عمري. فيا أسفا على عمر ضيعته في أشغال ضرها أكبر من نفعها! ونسأل الله الخاتمة على الإيمان**»[١].

بعد عودته من حيدر آباد **تولى الفراهي إدارة مدرسة إصلاح المسلمين التي أنشأتها جمعية إصلاح المسلمين في بلدة (سراي مير)**، وقد قامت هذه الجمعية في منطقة (أعظم جره) لإصلاح عقائد المسلمين وإزالة البدع المنتشرة، وفض المنازعات والخصومات بين المسلمين، ثم أسست الجمعية مدرسة إصلاح المسلمين ـ التي سميت فيما بعد بمدرسة الإصلاح اختصاراً ـ لتخريج علماء ودعاة يحملون رسالتها، فيستمر عمل الدعوة والإصلاح. وقد أسند الإشراف على المدرسة إلى الفراهي، وهو في حيدر آباد، فلما رجع إلى وطنه باشر إدارة المدرسة، ووضع فكرتها التعليمية، ورسم لها منهاجاً دراسياً فريداً يختلف عن مناهج المدارس الدينية الأخرى في نظامها، ومقرراتها الدراسية، وطريقة التدريس فيها. وفي السنوات الخمس الأخيرة من عمره قد وقف جزءاً كبيراً من وقته وجهده على خدمة هذه المدرسة، فكان يقيم ثلاثة أيام من كل أسبوع في المدرسة، ويُلقي دروساً لتفسير القرآن الكريم على أساتذتها وطلابها الكبار[٢].

ولما توفي العلَّامة شبلي النعماني سنة ١٣٣٢هـ، واجتمع تلامذته لتنفيذ

---

(١) مجلة الضياء ٢/ ٧ ص٢٦٠.

(٢) حياة حميد: ص٣٨.

فكرة أستاذهم لإنشاء مؤسسة دار المصنفين، اختاروا العلَّامة الفراهي، رئيساً لها، والعلَّامة سليمان الندوي مديراً.

(٣) صفاته وأخلاقه:

كان الفراهي: معروفاً بفرط الذكاء، وثقوب النظر، وسرعة الإدراك. وكان ورعه وزهده في الدنيا، وقصده في العيش، وعزوفه عن السمعة، وحسن تعبده، مع جود وغنى نفس وتواضع: موضعَ إجماع من معاصريه.

كان يقول شيخه شبلي النعماني: «**من جلس إلى عبد الحميد انصرف قلبه عن الدنيا**»[١]. ويقول السيد سليمان الندوي: «**كان، آيةً من آيات الله في حدَّة الذهن، وكثرة الفضل، وسعة العلم، ودماثة الخلق، وسداد الرأي، والزهد في الدنيا، والرغبة في مرضاة الله**»[٢]. ويقول الأستاذ عبد الماجد الدريابادي: «**لم تر عيني مثله في الصبر والشكر والقناعة والتوكل وغنى النفس**». وقال في موضع آخر: «كانت شخصية الفراهي قوية جذابة، قلما رأينا مؤمناً قانتاً مثله، **قيل في وصف أولياء الله: إن الجلوس معهم يذكّر الإنسان بالله سبحانه. وكان يصدق هذا الوصف على الفراهي صدقاً تاماً. أما الصلاة فكأن قلبه معلق بأوقاتها**. أقام في حيدر آباد سنوات عميداً لدار العلوم، يتقاضى مرتباً عالياً، وكانت صلته بطبيعة الحال بعلية القوم، لكن لم يتغير شيء مما كان عليه من القناعة والاقتصاد في المطعم والملبس والديانة والصدق والإخلاص. أما مجالسه فلا مجال فيها للغيبة ولغو القول والهزل. **وبالجملة فلم يكن له نظير لا في العلم والفضل ولا في الديانة والتقوى**»[٣].

---

(١) حياة حميد: ٥٥.

(٢) انظر ترجمة الفراهي في أول من كتاب إمعان في أقسام القرآن للفراهي: ١٥.

(٣) مقال الدريابادي في صحيفته (صدق) عدد ١٩/ ٦/ ١٩٤٥م.

وكان يصرف جزءاً من راتبه في شراء الكتب وتجليدها، والجزء الأكبر منه ينفقه على الفقراء واليتامى والأرامل[١].

وقد أقبلت الدنيا على الفراهي، فتهيأت له فرص لو اغتنمها وسعى إلى ما يسعى إليه أهل الدنيا لنال أجلَّ الرُّتب وأعلى المناصب، وحاز كل ما تطمع فيه النفوس من الأموال والألقاب وحسن الصِّيت، ولكنه كان زاهداً في كل ذلك، مقبلاً على الله، قائلاً للدنيا ما قاله علي بن أبي طالب رضِيَ الله عنه: «يا دنيا غُرّي غيري»[٢]. وكان من تيقظه وحذره في ذلك أنه قال في أثناء تلك الفرص التي يتمنى الناسُ حصولها في حياتهم مقطوعةً رباعيةً في الفارسية يخاطب نفسه مُحذراً لها، ترجمتها: «الجاهلُ مشغولٌ بالبحث عن لذيذ المآكلِ، والعاقلُ مصروفٌ همُّهُ إلى نيل الصِّيت والسمعة. أما أنت أيها الفراهي فاجتنب الاثنين، فيوشك أن ترى كليهما قد نشبت حلوقهما في الحِبالَةِ»[٣].

وكان من ورعه وعدله أنه حكم في قضية ـ جعله الخصم حَكَماً فيها ـ على والده، وكان من أبرّ الناس به، وخرج بذلك جزء كبير من ضياعه إلى ملك الخصم[٤].

(٤) ثقافته وعلومه:

كان الفراهيّ عالماً متفنناً، ذا ثقافةٍ واسعةٍ متنوعةٍ، فقد بَرَعَ في العلوم النقلية والعقلية، ومَهَرَ في اللُّغات العربية والفارسية والإنجليزية، وتعلّم اللغة العبرانية.

---

(١) حياة حميد: ٣٥٠.

(٢) الرقة والبكاء: ١٩٨.

(٣) نواي فهلوي: ٤٠.

(٤) حياة حميد: ص٥٣.

وتميّز من بين معاصريه في الهند بأنه دَرَسَ مع ذلك علومَ الغرب وآدابه في اللغة الإنجليزية دراسة النَّاقد البصير، ثم لم يزده ذلك إلا قوة في الدِّين واستقامةً عليه علماً وعملاً.

لكن العلم الذي غلب عليه هو علم القرآن الذي بلغ فيه إلى منزلة تتقاصر دونها الهمم. ونكتفي هنا بلمحةٍ موجزةٍ عن ثقافته الواسعة التي امتازت في كل جوانبها بالكيف أكثر من الكم.

قد اعترف أقرانه وشيوخه بعلو منزلة الفراهي في معرفة اللغتين الفارسية والعربية، فيقول الأستاذ عبد الماجد الدريابادي: «قد بذّ العلَّامة الفراهي في الآداب الفارسية والعربية أقرانه بل شيخه شبلي النعماني أيضاً»[1]، وقد ذكرنا فيما سبق معارضته ـ وهو ابن ستة عشر عاماً ـ للشاعر الفارسي الشهير (خاقاني) بقصيدة صعبة الرديف بهرت أحد كبار علماء الفارسية، وخيّل إليه أنها لبعض الشعراء المتقدمين.

وقد طبع ديوان شعره الفارسي عام ١٩٠٣م، فأرسل العلَّامة شبلي النعماني نسخة منه إلى الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني، وكتب إليه: «طُبع شيءٌ من شعر حميد الدين، نرسل إليكم نسخةً منه، ولعلكم تنظرون في القصيدتين اللتين في آخر الكتاب؛ لتتذوقوا اللسان الفارسي الأصيل»[2]. وقد طبع الديوان مرة أخرى في طبعة أوفى بعنوان: «نواي فهلوي» سنة ١٩٦٧م.

وللفراهي ديوانٌ آخر ترجم فيه صحيفة أمثال سليمان إلى الفارسية القحة

---

(١) مقالة (مولانا حميد الدين الفراهي) في صحيفة الداعي، عدد ٣ ديسمبر ١٩٧٦م.
(٢) مكاتيب شبلي ١/ ١٢٤.

التي لا يشوبها شيءٌ من ألفاظ العربية، وقد طبع في حياته في حيدر آباد بعنوان: «خردنامه».

ومما يدلُّ على تمكنه من الآدابِ الفارسيةِ رسائلُ العلَّامةِ شبلي النُّعماني إليه في أثناء تأليفه كتاب «شعر العجم»، يقول في بعضها: «الأبيات التي سترسلها إلي من «شاهنامة» الفردوسي، ينبغي أن تفسِّر الغريب من ألفاظها في مواقعها، فإن أكثر ألفاظها غير مألوفة الآن»[١].

وكتب في رسالة أخرى: «أرسل إلي أمثلة من التخييل في الشعر الفارسي حسب آراء النقاد الغربيين»[٢].

أما الإنجليزية **فقد أتقَنَ دراستها، وألّفَ فيها وحاضَرَ**، وقد اطَّلع بواسطتها على كتابات المستشرقين عن القرآن وتاريخ العرب، وعلى الأدب الإنجليزي شعراً ونثراً وبلاغةً، وعلى كتب الفلسفة الحديثة وما تُرجم إليها من كتب الفلسفة والآداب اليونانية. **ومن مؤلفاته بالإنجليزية «رسالة في عقيدة الشفاعة والكفارة»، ردّ بها على بعض علماء النصارى**[٣].

وقد أقرت ندوة العلماء في اجتماعها السنوي الذي عقد في دلهي عام ١٣٢٨هـ قرار إعداد ترجمة إنجليزية لمعاني القرآن الكريم، نظراً لأن التراجم الأخرى الموجودة في ذلك الحين تمت على أيدي النصارى. فشكّلت لجنة مؤلفة من العلَّامة الفراهي، والنواب عماد الملك البلجرامي، والشيخ محمد صالح، على

---

(١) مكاتيب شبلي ٢/ ٢٨، وكتاب شعر العجم في تاريخ الشعر الفارسي في خمسة مجلدات.

(٢) المرجع السابق ٢/ ١٨.

(٣) ذكرها السيد سليمان الندوي في ترجمة الفراهي الملحقة بكتابه (إمعان في أقسام القرآن). انظر طبعة دار القلم من كتاب الإمعان: ١٩.

أن يقوم عماد الملك بالترجمة ويراجعها الفراهي، والشيخ محمد صالح[١].

وقد درس الفراهي: اللغة العبرانية، كما سبق، والذي دعاه إلى ذلك انتشار جمعيات التنصير في عهده في الهند، والرد عليهم من كتبهم يقتضي الاطلاع المباشر على كتب اليهود والنصارى، **فاستفاد الفراهي بمعرفته للغة العبرانية، ووقوفه على الدراسات المتعلقة بصحف أهل الكتاب في اللغة الإنجليزية، في كشف كثير من تحريفاتهم بنصوص كتبهم، كما نرى في كتابه «الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح»**، فقد جاء بثلاثة عشر دليلاً من التوراة نفسها للرد على زعمهم بأن الذبيح إسحاق عليه السَّلام، وناقش علماء أهل الكتاب، وفسّر ما أشكل عليهم من كتبهم. **ومن مؤلفاته التي لم يكملها «الطريف في التحريف» الذي كان يريد أن يجمع فيه جملة من تحريفاتهم.**

ومن ثم لما جاءت فكرة الرد على شبهات المستشرقين وأقوالهم على القرآن الكريم، وكتب بعض المسؤولين في حكومة (بهوبال) إلى العلّامة شبلي النعماني، رد عليه بأنه لا يوجد في الهند كلها من يستطيع أن يقوم بهذا العمل مثل حميد الدين الفراهي[٢]. وكتب في رسالة أخرى: «يندر في المسلمين من يجيد الكتابة في اللغة الإنجليزية (مع تبحره في القرآن)، ولذلك فإن حميد الدين هو الذي يستطيع أن يقوم بهذا العمل خير قيام»[٣].

أما العلوم العقلية فدرسها الفراهي أيام طلبه إذ كانت جزءاً لازماً من نظام الدرس في عصره، ثم اهتم بالفلسفة الحديثة حينما دخل كلية عليجره، ونال فيها

(١) حياة شبلي: ٥٨٢.

(٢) مكاتيب شبلي، ١: ٢٥.

(٣) المرجع السابق ١: ٢٥٤.

درجة الامتياز، وقد واصل اطِّلاعه على ما كتبه فلاسِفَةُ الغرب. يقول **الأستاذ عبد الماجد**، وكان من المختصين في الفلسفة الحديثة: «**إن الفراهي قد درس الفلسفة دراسةً واسعةً وعميقةً جداً، وكان يقرأُ أحدث كتب الفلسفة والمنطق، ولم يكن يكتفي بالاطِّلاع عليها، بل يقرؤها قراءةَ بحثٍ ونقدٍ ومُقارنة**»[١]. ومن هنا كان أعْرفَ بِخَطَرِها وضَرَرِها وضَلالِها. وقد نبّه على ذلك في كتبه[٢]، ثم لما قرَّرَ المنهجَ الدراسيّ لمدرسة الإصلاح، حذف منه كتُبَ المنطقِ والفلسفةِ، ولم يترك إلا مبادئَهما ليعرف الطالب المصطلحات المستعملة في الفنَّيْنِ، فيتمكَّن من الاستفادة من كتب علماء الإسلام في أصول الفقه والكلام. **وكان من أعظم كتبه التي لم يكملها كتاب «حُجَجِ القرآن»، والأبواب الثلاثة الأولى منه في نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام**. والعلماء والباحثون الذين حضروا مجالسه ومحاضراته في نقد هذه العلوم وبيان زيفها، **كانوا يشبِّهُونه بشيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك وفي تبحره في علوم القرآن**.

أما العربية فكان فيها إماماً لا يُشق له غبار، **وكان له في كل علمٍ من علومها من لغةٍ، ونحوٍ، وبلاغةٍ، وعروضٍ، تحقيقات واجتهادات واستدراكات على الأئمة**. ونكتفي هنا بالإشارة إلى كتابه «**جمهرة البلاغة**»، **الذي نقض فيه الأساس الذي يقوم عليه فن البلاغة عند أرسطوطاليس، وهو نظرية المحاكاة**[٣]، **ويرى الفراهي أن**

---

(١) مقالته في صحيفة الداعي، عدد ٣ ديسمبر ١٩٧٦م.

(٢) منها كتاب المفردات قال فيه: «ومضرة كتب الفلسفة أضلّ وأوغل» (ص٥).

(٣) يُعرِّفُ أرسطو الشعر بتعريف كان مشهوراً في أيامه بفضل أفلاطون، وهو أن الشعر: «محاكاة». وهذه المحاكاة تتم بوسائل ثلاث، قد تجتمع وقد تنفرد، هي: الإيقاع والانسجام واللغة. وتفترق الأنواع الشعرية وفقاً لخصائص: الخاصية الأولى: هي الاختلاف في الوسيلة: فالمأساة والملهاة والنوموس والديثرمبو تستعمل هذه الوسائل الثلاث كلها؛ وفن القيثار والناي يستعمل وسيلتين فحسب، هما الإيقاع والانسجام، والملحمة والحوار =

فنّ البلاغة العربية تأثّر بهذه النظرية، فَجارَ عن قصْد السبيل. وانتقد في ذلك الإمام عبد القاهر الجرجاني مع اعترافه بجلالته، ودعا إلى تأسيس فنِّ البلاغة على أُسس منبثقة من القرآن الكريم، وكلام العرب الأقْحاح.

ولما أرسل الفراهي فصولاً من جمهرة البلاغة إلى العلَّامة شبلي النعماني أُعجب به إعجاباً جعله يلخِّصُ مباحثه المهمة وبخاصة نقده لنظرية المحاكاة في مجلة الندوة التي كان يُصدرها باللغة الأردية، مع أن النُّعماني نفسه يعدّ من أشهر النقّاد والكتّاب، ومن الأركان الخمسة للأدب الأردي. وقد نشر الكتاب بعد وفاة المؤلف، ونفد قبل أن يصل إلى البلاد العربية ليأخذ مكانه من البحث والنقاش، فهو كتاب فريد في تاريخ البلاغة العربية.

= السقراطي والإيلجيا والإيانبو تستعمل وسيلة واحدة، هي اللغة: إما مع الوزن، أو بغير الوزن. والخاصية الثانية: وهي أهم من الأولى، هي المضمون. والمضمون المشترك المحاكى في الشعر هو الأفعال الإنسانية، ولما كان الناس ينقسمون من حيث الأخلاق إلى أفاضل وأراذل، أشرار وأخيار، فإن من الأنواع الشعرية ما يحاكي الأعمال الفاضلة، ومنها مايحاكي الأعمال الرذلة والمضحكة هي الإيانبو والفاروديا والملهاة (الكوميديا). وخاصية ثالثة تميز بين الأنواع الشعرية هي طريقة المحاكاة: فأحياناً يتحدث الشاعر بضمير المتكلم (الملحمة الشائعة، والهجاء) أو يدع الأشخاص يتحدثون (المأساة، الملهاة)، أو يستعمل كلتا الطريقتين على التبادل كما كان يفعل هوميروس. ثم يبحث أرسطو في الميل إلى الشعر في الإنسان، بوصف الشعر غريزة في فطرة الإنسان فيقول: إن أصله الميل إلى المحاكاة والتقليد، وهو ميل مركوز في طبيعة البشر، ويرجع بدوره إلى حب الاستطلاع والرغبة في المعرفة، والميل إلى الإيقاع والانسجام. وعن هذه الميول الفطرية الأولية تولد في بادئ الأمر الشعر الارتجالي، وقد انقسم وفقاً لطبائع الشعراء إلى شعر هجاء من ناحية، وشعر مديح وثناء من ناحية أخرى؛ ونما شعر الهجاء وتطور فأفضى إلى الكوميديا، ونما شعر المديح والثناء وتطور فأفضى إلى المأساة، ولهذا فإن الملهاة والمأساة أعلى مراحل تطور الشعر. انظر: «في الشعر» لأرسطوطاليس، ترجمة عبد الرحمن بدوي ص٤٠-٤١.

وللفراهي ديوان شعر لطيف في العربية، طبع سنة ١٣٨٧هـ، وقد ذكره الدكتور تقي الدين الهلالي : فقال في «مذكراته»: «وللشيخ المذكور ديوان شعر، سمعته منه، بليغ مؤثر في استنهاض همم المسلمين، وبث الحياة في قلوبهم، وذكر عداء الإفرنج لهم، وذكر حرب طرابلس، والحرب الكبرى، والرجل فصيح في التكلم لغاية...»[١]. أما أسلوبه في الكتابة فيشبه أسلوب الأقدمين في الجزالة والرصانة والإيجاز والإشراق.

أما العلوم الشرعية، فتشهد بطول باعه فيها الفصول التي سوّدها من كتبه: الرائع في أصول الشرائع، وإحكام الأصول بأحكام الرسول، وفقه القرآن، وكان ينوي تدوين فن أصول الفقه على نحو جديد بعد تخليصه مما اختلط به من مباحث الفنون الأخرى. وله تعليقات على كتب الحديث والفقه والأصول وغير ذلك، ولكن العلم الذي استحوذ على عقله وقلبه، فأقبل عليه إقبالاً منقطع النظير هو علم القرآن. وكل ما درسه من علوم المنقول والمعقول وآداب الأمم وفلسفتها سخّره لخدمة القرآن الكريم والمنافحة عنه. وقد شَرَعَ في تدبُّر القرآن الكريم أيام طلبه في كلية عليجره، كما ذكر في «فاتحة نظام القرآن»، وكان كتاب الله أحب الكتب إليه، والنظر فيه ألذ من كل ما في الدنيا[٢].

وكان يعكف كل يوم بعد قيام الليل على تدبر القرآن الكريم، ويستمر على ذلك بعد صلاة الفجر إلى الساعة التاسعة صباحاً، وظل ذلك دأبه أكثر من ثلاثين سنة. ولما استقال من عمادة دار العلوم بحيدر آباد صار يقضي معظم وقته في تدبر القرآن، والتأليف فيه.

---

(١) مجلة الضياء، عدد رجب ١٣٥٢هـ.

(٢) فاتحة نظام القرآن: ٢.

فحاز السبق في علم القرآن، وفتح الله عليه من علومه ما شاء، وبلغ في ذلك شأواً لم يبلغه إلا قليل من أهل العلم، فلقبه معاصروه بترجمان القرآن. وقد ألف في تفسير القرآن وعلومه بضعة عشر كتاباً، أجّلها تفسيره «نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان» الذي صدر منه أحد عشر جزءاً في حياته، وجزآن بعد وفاته. ولعله لم يشرع في التفسير من أوله إلا في آخر حياته، فوافاه الأجل وهو في تفسير الآيات (٤٧-٦٢) من سورة البقرة.

وله منهج فريد في التفسير، أفاض القول في بيان أصوله في مقدمة التفسير «فاتحة نظام القرآن»، وكتابه «دلائل النظام»، وأبانت عنه أجزاء التفسير المذكورة.

وقد تكلم على كثير من الموضوعات القرآنية في المقدمة، أما المسائل التي كانت بحاجة إلى بسط القول فيها، فأفرد لها كتباً مستقلة. منها كتابه في تعيين الذبيح «الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح» الذي سبق ذكره، و«إمعان في أقسام القرآن» الذي تناول فيه قضية القسم على وجه العموم، وذكر أصله وأنواعه وأدواته وبلاغته، وانتهى إلى أن الأقسام الواردة في القرآن الكريم إنما هي للاستدلال والاستشهاد.

وقد خطّط الفراهي لتأليف اثني عشر كتاباً في علوم القرآن غير ما سبق، وكتب جملة من فصول بعضها، من أهمها كتاب «حكمة القرآن»، وكتاب «حجج القرآن»، وكتاب «دلائل النظام»، وكتاب «مفردات القرآن».

(٥) مصنفاته:

قبل أن نسرد أسماء مؤلفات الفراهي، يحسن أن نشير إلى منهجه في التأليف، فإنه يختلف عن منهج عامة المؤلفين الذين إذا عزموا على تأليف كتاب جمعوا مادته، ثم رتبوها في صورة كتاب، أما الفراهي فإن الموضوعات التي رأى ضرورة الكتابة فيها وحلّ مشكلاتها كانت ماثلة بين عينيه، يديم النظر والبحث فيها، فإذا

حقّق مسألة، أو حلّ معضلة، أو توصّل إلى رأي مقنع قيد ذلك، وكتب عليه: «من كتاب ...» حتى إذا اكتملت جوانب البحث أقبل على تأليفها وتنسيقها. ولذلك كان يؤلف كتباً عديدة في وقت واحد، ومن ثم بقي أكثر مؤلفاته ناقصاً، وآخر منها لم يتخط حدود ذهنه، ولا جرى به قلمه، مع أنه يحيل عليه في مؤلفاته، لأن كل بحث له مكان معين عنده. ونكتفي فيما يلي بإيراد أسماء مؤلفاته العربية المطبوعة:

١ ـ **أساليب القرآن**، الدائرة الحميدية، الهند، سنة **١٣٨٩هـ**.

٢ ـ **إمعان في أقسام القرآن**، الطبعة الثالثة، دار القلم بدمشق، سنة **١٤١٥هـ**.

٣ ـ **التكميل في أصول التأويل**، الدائرة الحميدية، الهند، سنة **١٣٨٨هـ**.

٤ ـ **جمهرة البلاغة**، الدائرة الحميدية، الهند، سنة **١٣٦٠هـ**.

٥ ـ **دلائل النظام**، الدائرة الحميدية، الهند، **١٣٨٨هـ**.

٦ ـ **ديوانه العربي**، الدائرة الحميدية، الهند، **١٣٨٧هـ**.

٧ ـ **الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح**، الطبعة الثالثة، دار القلم بدمشق، سنة **١٤٢٠هـ**.

٨ ـ **فاتحة نظام القرآن**، الدائرة الحميدية، الهند، **١٣٥٧هـ**.

٩ ـ **في ملكوت الله**، الدائرة الحميدية، سنة **١٣٩١هـ**.

١٠ ـ **القائد إلى عيون العقائد**، الدائرة الحميدية، سنة **١٣٩٥هـ**.

١١ ـ **مفردات القرآن**، الدائرة الحميدية، سنة **١٣٥٨هـ**.

١٢ ـ **نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان**، وهو تفسيره الكبير الذي صدرت منه الأجزاء الآتية:

أ ـ **تفسير سورة الفاتحة والبسملة**. نشر مع فاتحة نظام القرآن سنة **١٣٥٧هـ**.

ب ـ تفسير سورة الذاريات، مطبعة معارف بأعظم جره، دون تاريخ.

ج ـ تفسير سورة التحريم، مطبعة فيض عام، عليجره، سنة ١٣٢٦هـ.

د ـ تفسير سورة القيامة، الطبعة الثانية، الدائرة الحميدية، سنة ١٤٠٣هـ.

هـ ـ تفسير سورة المرسلات، مطبعة معارف، دون تاريخ.

و ـ تفسير سورة عبس، مطبعة معارف، دون تاريخ.

ز ـ تفسير سورة الشمس، مطبعة فيض عام، سنة ١٣٢٦هـ.

ح ـ تفسير سورة التين، مطبعة معارف، دون تاريخ.

ط ـ تفسير سورة العصر، مطبعة فيض عام، سنة ١٣٢٦هـ.

ي ـ تفسير سورة الفيل، مطبعة معارف، سنة ١٣٥٤هـ.

ك ـ تفسير سورة الكوثر، مطبعة معارف، دون تاريخ.

ل ـ تفسير سورة الكافرون، مطبعة فيض عام، سنة ١٣٢٦هـ.

م ـ تفسير سورة اللَّهب، مطبعة معارف، دون تاريخ.

(٦) وفاته وثناء العلماء عليه:

توفي: ـ وهو يتلو القرآن الكريم ـ في ١٩ جمادى الآخرة عام ١٣٤٩هـ على إثر عملية جراحية أجراها طبيبه الخاص في مدينة (مثورا)، ودفن بها.

وقد رثاه عدد من أصحابه وأصدقائه بقصائد عربية وفارسية وأردية. وقد نقلنا فيما سبق أقوال بعض معاصريه عن علمه وخلقه، ونضيف هنا مقتطفات من ثلاث كلمات: **أولها للعلّامة السيد سليمان الندوي**، وهي أقوى ما كتبه في وفيات الأعلام، وقد كتبها في مجلة (معارف) الصادرة من دار المصنفين بأعظم جره

بعنوان: «الصلاة على ترجمان القرآن» بدأها بقوله: «(**الصلاة على ترجمان القرآن**) نودي بذلك قبل نحو ستة قرون من مصر والشام إلى حدود الصين، للصلاة على **الإمام ابن تيمية، وحقّ أن ينادى بذلك مرة أخرى من ربوع الهند إلى بلاد مصر والشام على الأقل، فإن ابن تيمية هذا العصر قد توفي في التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٤٩هـ (الموافق ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٠م)**. ذلك الإمام الجليل الذي كانت شخصيته الجامعة بين علوم الشرق والغرب **نادرة العصر، شخص واحد اجتمع فيه عالَم من العلم والمعرفة، ماهر في العلوم الدينية، ناقد للعلوم العقلية، وحيد عصره في علوم العربية، نسيج وحده في علم القرآن**، عارف بحكمته ودقائقه، كنيف ملئ علماً، **ولكن لم ينقل من علمه ـ مع الأسف ـ إلى الدفاتر والأوراق إلا قليل** . . .»[1].

والكلمة الثانية للعلّامة أبي الكلام آزاد، قال فيها: «كان حميد الدين الفراهي **من العلماء الربانيين الذين لا تكون بضاعتهم العلم فحسب، بل يجمعون بين العلم والعمل**. ويندر وجود أمثال هؤلاء الحائزين للشرفين، كما لا يخفى على أهل النظر، وإني كلما قابلته تأثرت بعمله أكثر من علمه، فإنه كان رجلاً تقياً بكل معنى الكلمة . . .»[2].

وقد نقلنا من قبل بعض ما كتبه **الدكتور تقي الدين الهلالي** في مذكراته، حينما زار الفراهي، قبل وفاته بسبع سنين، ومما جاء فيها أيضاً:

«. . . والرجل فصيح في التكلم لغاية، وهو عارف بمسألة الخلافة محقق لها، لا يلتبس عليه شيء من أمرها خلافاً لأهل الهند، مجتهد في العقائد والعمليات،

---

(١) مجلة معارف المجلد ٢٦ العدد السادس ص٣٢٢.

(٢) انظر: مجلة الإصلاح المجلد الأول العدد الثامن ص٥٦-٦١.

لا ينتمي لمذهب؛ لكنه يتعبد على مذهب الحنفية؛ لأنه نشأ عليه، ويعتقد أن الأمر في مثل ذلك سهل. ماهر في الإنجليزية والعربية والفارسية والأردية. وبالجملة فهـو أعلم من لقيته قبل هذا الحين، وهو ١٧ رمضان ١٣٤٢هـ»[١].

العلَّامة عبد الحميد الفراهي إمام العربية والتفسير:

تحت هذا العنوان أرى من المناسب أن أذكر مقتطفات مما جاء في افتتاحية مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية الكويتية حيث قلت فيها:

يعتبر العلَّامة عبد الحميد الفراهي الهندي أحـد مخضرمي القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، حيث ولد: سنة ١٢٨٠هـ في قرية فريها ـ من قرى مديرية أعظم كره بالهند ـ وكان ابن خال علامة الشرق ومؤرخ الإسلام الشيخ شبلي النعماني ـ تغمده الله برحمته ـ.

وتوفي سنة ١٣٤٩هـ الموافق ١٩٣٠م.

ومن المؤسف أن يكون مثل هذا العلم العظيم مجهولاً ـ إلى حدٍّ كبير في الأوساط العلمية والثقافية في العالمين العربي والإسلامي ـ على الرغم من كتبه ومؤلفاته التي تدل على عبقرية فذة، وعقلية مبدعة، والتي لابد أن يكون لها أثر بارز في حاضر ومستقبل العلوم العربية والإسلامية.

العربية والعرب في نظر الفراهي:

أعجب الفراهي بالعرب ولغتهم، حيث رافقهم في شعرهم الجاهلي، وعاش حياتهم، وتنقل في بواديهم وحواضرهم، وعرف أخلاقهم ومثلهم، وقال فيهم ما لا يحسن أن يقولوا مثله في حق أنفسهم.

---

(١) مجلة الضياء المجلد الثاني العدد السابع ص٢٦٠.

يقول الفراهي في العرب وفي صفة كلامهم:

«**وكانت العرب على غاية قصوى في تأثرهم بالكلام، وهذا لقوة قلوبهم، وشدة تأثير أقوالهم، فكأن كلامهم يحمل روحاً منهم،** وكأن السامع يتأثر له من وجهين: **من قوة المتكلم، ومن اعتيادهم التأثر.**

وقد قيل: **القول إذا خرج من القلب وقع في القلب.**

وسذاجتُهم وصدقهم، نفت عنهم الخواطرَ، وتشتُّتَ البال، وصرفَ القول عن نهجه الصادق؛ **فكأن قولهم وسمعهم من القوة والإصابة كضربة سيف مرهف،** ولولا أن كلامهم جِماعُ هِمَّتهم، ما ارتجلوا قصائد طويلة دامغة، وكانوا أصدق الناس وأنطقهم».

ويقول أيضاً في أخلاق العرب التي رشحتهم لحمل رسالة الإسلام:

«زعموا أن الله تعالى أعطى العرب كتابه، وأرسل إليهم الرسول لمّا بلغ كفرُهم وسوءُ أعمالهم منتهاه، هذا حق، ولكن لابد فيه من زيادة:

إن الله تعالى بعث فيهم رسولاً منهم، **واصطفاهم لصدقهم، وأمانتهم، ومكارم أخلاقهم، وكانوا أرغب في خلال الخير.** وهذا بحث طويل، ودلائله في تاريخهم والحديث».

ويقول أيضاً:

«**خلتان فضلت بهما العرب على سائر الناس: الصِّدق، والجود.**

فالصِّدق بناء العبادات، والجود بناء المعاملات، ويعبر عن الأصلين بالصلاة والزكاة.

ألا ترى كيف كانوا يمدحون بهاتين الصفتين؟

قال صخر أخو الخنساء يرثي أخاً له:

وطيَّبَ نفسي أنني لم أقلْ له　　كَذَبْتَ، ولم أبخل عليه بِماليا[١]

وبلغ من حب الفراهي للعرب ما جعله يعتبر سيئاتهم إنما نبعت من الحسنات.

وفي ذلك يقول:

«وإنما كان القرآن مُعْجِزاً للعرب لما أنهم تأثروا له، فإن العرب ـ على عِلَّاتِها ـ كانت على سذاجة الفطرة، وحبّ المعالي ـ من الجود، وصلة الرحم، والغيرة، والشكر ـ لاسيما شرفاؤهم وخيارهم ـ حتى إنَّ سيئاتهم نبعت من الخيرات:

ـ فمعاقرتهم الخمر، ومقامرتهم الميسر، جاءت من الجود.

ـ وحروبهم من أداء حق المقتول، والغضب للقسط.

ـ وظلمهم من إباء النفس عن الدنية.

ولذلك رحموا الضعفاء، والأرامل، ولم يقتلوا في الحرب الإماء، ولا الأطفال، ولم يرهقوا المنهزمين.

وإنما بقوا **على الفقر** وسوء العيش، **لإبائهم عن الطاعة لملك يجمع أمرهم، إلا من لا يتكبر عليهم، ويعدل بينهم، ويكون كأحدهم** ـ كما كان الشيخان وذوو أمرهم في الجاهلية ـ فأملكهم وأقهرهم أعدلهم ـ كما كان عمر بن الخطاب رضِيَ الله عنه ـ فلم يرد إلا أنه يقهرهم بكمال عدله...

ويرى الفراهي أن سبب **تأثر العرب بالقرآن، يرجع أولاً وقبل كل شيء**

(١) هذا البيت ذكره محقق الديوان في دراسته عن الخنساء ضمن أبيات لأخيها صخر يرثي أخاه معاوية، انظر ديوان الخنساء، ص٤٢٥، بتحقيق الدكتور أنور أبو سويلم.

لدعوته إلى مكارم الأخلاق التي كانوا يجدون صداها في نفوسهم، والتي كانوا يشعرون بها بفطرتهم. وفي ذلك يقول:

«والقرآن دعاهم أولاً إلى هذه المكارم التي قد عرفوها، فتأثر له ذوو النُّهَى منهم، لصدقه في الدعوة إلى المعالي، حتى إذا دانت له جماجمهم، بَيَّنَ لهم أنَّ هذا الكلام لا يكون إلَّا صدقاً، وهو كونه قدسياً، وهدى ونوراً، فلا يقدر عليه كاذب، بل يكون إيحاءً من جانب القدس، ولذلك لم يجئ التحدي به في أول الدعوة حتى علموا أثره».

وكونه أهدى، هو أثره الذي أحيا أمةً تشتت أركانها، وتهدّم بنيانها، وبَعُدَت عن المدنية لشدة إبائها وحميّتها، وصعوبة قيادها، كأن القرآن أخرج أمة متمدنة من الأسود الضواري، قال تعالى:

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

والعرب قد جربوا ذلك، وعرفوه في أنفسهم ـ وأئمتهم وذوو العقول والتدبير، وأولو الأمر والنهي منهم، أعلمهم بعجزهم عن تحويل العرب إلى التمدن ـ وقد أعجزوا الأمراء إلا الشيخين، وعادوا بعد مدة قصيرة إلى بغيهم، وتطاول بعضهم على بعض، وهم إلى الآن على حالهم قانعين بفقرهم وبؤسهم، مفتخرين بحريتهم القديمة، إلا الذين شربوا من التمدن الحديث الذي هو هلاك بني آدم...»[1].

ويرى الفراهي في فضيلة الصبر التي كان يتحلى بها العرب مرشحاً قوياً لهم لحمل رسالة الإسلام، ذلك أن بناء الإسلام إنما قام على الصبر، وفي ذلك يقول الفراهي:

---

(١) القائد إلى عيون العقائد ص: ١٨١-١٨٣ مع شيء من التصرف.

«لعل اختيار أمة العرب، هو الصبر المحض، وهو جماع الفضائل، وهو أحسن وراثة إبراهيم عليه السَّلام . وأرض العرب أصلح لتربية هذه الفضيلة، حتى ترى حيواناتها وأشجارها أصبر من بني نوعها في سائر الأرض.

ولما كان بناء الإسلام على الصبر، كان الإسلام أصلح لفطرة العرب، ولما كانت أرض العرب صالحة لطبائع أهلها، فإذا خرجوا منها أسرع الفساد إلى طبائعهم.

فكان الترف هلاكهم، ولذلك قال النبي ﷺ ما معناه: «إنه يخاف عليهم كثرة المال»[(١)].

ويقول أيضاً في صفة كلام العرب وتفضيله على كل كلام آخر:

«اعلم أن كلام العرب كله نمط أعلى من كلام الأمم التي اعتادت عليه؛ لأن العرب مولعون برزانة القول، وتهذيبه عن السخف، فهم يجردون كلامهم من كل رابطة، ولو ذكروا الروابط لكان عاراً على السامع، الذي يفهم الروابط بذكائه، فلذلك كثر في كلامهم الحذف، ألا ترى قولهم: «أنا ذاهب» كلمتان، وفي أكثر اللغات: ثلاث كلمات».

فخف عليهم بهذا الإيجاز، إعمال المنطق، كأن كلامهم قد وضع حسب

---

(١) دلائل النظام: ٣٧. والحديث الذي في معناه أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٤٠١٥، ومسلم في صحيحه برقم ٢٩٦٣: «أن رسول الله بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله هو صالح أهل البحرين، وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع النبي، فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله حين رآهم، ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء»، قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «فأبشروا وأمّلوا ما يسرّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم».

اقتضاء الفكر والفهم. فترى كلامهم مربوطاً برابطة عقلية.

وعليك أن تميز بين الروابط من كل قسم، فإنهم لا يصرحون بها...

ثم إن الحذف في كلامهم، يجعل كلامهم شبيهاً بالوثبات ـ والقرآن كمطر السحاب من وجوه مختلفة ـ وهذه الوثبة، من بعض وجوه المطر.

قال امرؤ القيس في صفة السحاب ومطره:

لها وثَباتٌ كوثْبِ الظِّباءِ فوادٍ خِطاءٌ ووادٍ مَطِرْ[1]

فالكلام الذي لا حذف فيه، لا محل فيه للعقل والنظر، وهو كدبيب النمل، والعرب لا تستجيده، ولا تتأثر به، لذكائهم وسرعة فهمهم، وتنفرهم عن الفضول ـ وإن كان ضرورياً عند غيرهم ـ...»[2].

ويتحدث الفراهي عن ميزة الحذف هذه في كلام العرب في مكان آخر فيقول:

ومن أساليبهم: الحذف ـ وهو: إسقاط الفضول عن القول ـ والفضول: ما يفهم الكلام بدونه، ويتأثر منه السامع. فإن الغرض من الحديث ليس إلا الإفهام والتأثير. فكل ما زاد على هذين أذهل وأبعد وأثقل.

ولما كان المستمعون على مراتب متفاوتة من الذكاء والتأثر. فقد اختلفت الألسنة في مقدار الحذف فيها:

أما العرب: فلذكائهم، وتوقد أذهانهم، فقد كان أنجح الأقوال عندهم ما قَلَّ وكَفى، فإن الكلام إذا لم يهذَّب عما لا فائدة فيه، ولا يغني شيئاً؛ سقط عندهم، ومجَّته أسماعهم، وذلك لاعتقادهم أن المسهب في الكلام:

---

(١) البيت في ديوانه ص١٦٧، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار المعارف بمصر، ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.

(٢) دلائل النظام: ٦٥-٦٨ بقليل من التصرف.

ـ إما أنه أحمق.

ـ أو يحمق المستمع.

ـ وعلى هذا كان أمر الحذف في كلامهم، من بعض سجاياهم، وكأنهم طبعوا عليه، فلذلك تراهم يخالفون ألسنة الأمم بأمور:

ـ لم يشكِّلوا كلامهم إلا لأجل العجم ـ وكذلك العبرانيون إخوانهم ـ.

ـ جرَّدوا الكلام عن الروابط: كالإضافة، والخبر، والتمييز، والظرفية، وغيرها. وهذه درجة عالية من ارتقاء اللسان ـ والبحث المشبَع عليه في بابٍ على حدة ـ.

ـ وأخلصوا الكلام عما دلت عليه القرينة من الفعل، والجواب للشرط، والقسم.

ـ واستقصاء ذلك في النحو ـ.

ـ أسقطوا من القصة، والحجة، أجزاء وقضايا، لا يكاد يحذفها غيرهم، فلذلك صعب على العجم درك حديثهم، كما لا يدرك حسير القوم شأو حثيثهم ـ والبحث عنه في باب الإيجاز، وفيه فوائد جمة ـ.

ـ أسقطوا ـ في كلامهم المركب ـ من هيآت الحروف: أكثرها.

فسبقوا كل أمة بخطهم البديع التركيب»[1].

ويشرح الفراهي بعض ما أوجزه هنا ـ في مكان آخر من كتابه **«أساليب القرآن»** ـ حيث يتحدث عن خصائص لسان العرب وخطهم فيقول:

---

(١) أساليب القرآن: ٢٥-٢٦ مع شيء من التصرف.

خصائص لسان العرب وخطهم:

ـ منها كثرة الحذف؛ اعتماداً على فهم السامع، **فإنهم لذكائهم كانوا يعدون الإطناب عيًّا، حتى إن لسان العرب، قد بني على الإيجاز ـ خلاف سائر اللغات ـ.**

فأنواع الكلم مصوغة من المواد، وليست مركبة من السوابق واللواحق. مثلاً كلمة: «فاعل» ليس مثل «كارنده» (الفارسي). وميكر Maker (الإنكليزي).

و ما في العربية من الحروف الزوائد في مثل:

ـ يفعل، ومفعل، وفاعلة، وفاعلون، ـ فليس في شيء من السوابق واللواحق ـ. إنما هو من أنحاء أوضاع الزوائد؛ فإنها توضع في أمكنة مختلفة.

وكذلك هُذِّب كلامهم عن فضول الروابط ـ فلا تجد فيه رابط النسبة الخبرية، ولا الإضافية ـ. وكذلك عن روابط الخيال.

فترى في كلامهم ـ لتعودك بالعجمي ـ انقطاعاً ورتقاً، ولكن العربي يراه متصلاً ـ وهذا من أقوى الدلائل على حدة فكر المتكلم والكاتب ـ وأرى ذلك في كلام حكماء الهند. ـ وأشكل على علماء أوربا فهمه؛ لتعودهم على الإطناب ـ.

ـ قد علمنا أن اللسان حَمُولَة الخيال، وكذلك الخط حَمُولَة اللسان، وقد علمنا ما في الخيال من السرعة، ثم ما في اللسان، فمهما كان اللسان أبطأ، كان قيداً وثقلاً على الخيال.

وهكذا الخط إذا كان بطيئاً كان قيداً على الكلام النفسي، فيتبلّد الخيال. فلذلك كل ما كان اللسان والخط أوجز، كان أحسن وأعون.

ولذلك في هذا الزمان احتاجوا إلى الخط السريع، لضبط الخطب. **والعرب لسرعة فكرهم، لم يرضوا بالخط البطيء ـ الذي لم يترق منه قوم إلى الآن ـ والمتعود**

بالخط العربي، يحقر سائر الخطوط، ويحسبه خط الجهلاء والحمقاء ـ لا أثر عليه من الصنعة والعقل.

فالفكر الذي وضع لهم لساناً مهذباً عن الفضول، أعطاهم خطاً على غاية من الصنعة، وجودة التركيب.

وكما أن خطهم يساعد الكاتب فيلقى خياله بسرعة التخيل، والكلام النفسي، كذلك هذا الخط يساعد المتعلم، وذلك لأن الألفاظ فيه صورة واحدة، ترتسم بلحظة واحدة في الخيال، وتبقى كصور الأشخاص، وأنت تعلم أن البصر لشدة تمرنه، يقدر على حفظ الصور أكثر من سائر الحواس ـ.

فإنك لا تزال ترى ـ حتى في النوم ـ، ولا تسمع، ولا تشم، ولا تطعم، ولا تمس، إلا بعض الأوقات ـ.

فإذا رأيت ألفاظاً مثل: شمس، قمر، نجم، أسد، نخل، رجل، فكأنما رأيت صور أشخاص.

وأما سائر الخطوط ـ من خطوط النصارى والهنود ـ ففيها:

كل حرف صورة على حدتها، وفي كل كلمة تحتاج إلى حفظ الصور المختلفة الطويلة العريضة، وزاد على ذلك رسم الحركات.

ثم في الخط الأوروبي: الحركات ربما تربو على الحروف. مثل: فائط فإنه عندهم: ف ـ ي ـ ج ـ ص ـ ط، أعني **Fight**.

فالخط الذي وضعته العرب أسهل لتعلم الألسنة، ولذلك ترى الفرس، والترك، والأفغان، وأكثر الأمم المسلمة ـ مع حفظهم ألسنتهم ـ تركت خطوطها.

ويتحدث في مكان آخر عن عدم تغير اللسان العربي، وثباته واستمراره فيقول:

«إنا نرى اللسان يتغير بالزمان، إذا لم يكن له وازع عن التغير، ولكنك ترى اللسان يسلم عن التغير إذا شاع التعليم، واتخذوا كتباً خاصة، فكل صبي ينشأ ويتربى على لسان واحد ـ كما نرى الفارسية، والعربية، في الهند لم تتغير ـ فإن القرآن صار كالمركز لكل ما تعلموا في العربية ـ وكتاب السعدي والحافظ وأمثالهما، حفظوا اللسان في فارس والهند ـ.

والسبب القوي للتغير: هو تبدل الحكم من قوم إلى قوم مختلفين في لغاتهم ـ بخلاف لسان فارس والهند ـ والآن نرى أثر لسان الإنكليز في الهند. وهذان أمران ظاهران.

فإذا توجهنا إلى حال لسان العرب قبل الإسلام: علمنا أنهم حفظوا لسانهم لأجل الرواية، وجمعهم في مواسمهم وأسواقهم، وتخالطهم لكثرة الترحال، فكانت أشعارهم أسفارهم، ومواسمهم مدارسهم. فلا نرى في قديم كلامهم وجديده تفاوتاً.

فإذا جاء القرآن، ودوّنت لغتهم، استقر لسانهم، ولكن العامة نبذوا العلم، فتغير لسانهم.

ومع ذلك إذا رجعوا إلى التعليم: رجع لسانهم إلى أصله ـ كما ترى اليوم المصريين والشاميين راجعين إلى العربي الصحيح.... ـ»[1].

هذه بعض أقوال الفراهي في العرب والعربية، وهي إنما تدل على عظمة الإسلام الذي جعل رجلاً مثل الفراهي يعيش في أقصى الهند بعيداً عن العرب والعروبة، يتقن لغتهم، ويتعمق في دراستها، ويخوض لأجل ذلك مفاوز الشعر الجاهلي، ويستنبط

---

(١) أساليب القرآن: ٤-٥.

منه أخلاق العرب وأحوالهم، ويتحدث عن خصالهم ومحاسنهم حديث المحب العاشق..

لقد فعل الفراهي كل ذلك بسبب عقيدته الإسلامية، ومن أجل فهم القرآن الكريم الذي نزل بلغة العرب، **وقد أدرك الفراهي أنه لا يمكنه تذوق القرآن، واستكشاف كنوزه إلا من خلال العربية**، فانطلق يتعلمها بحماس منقطع النظير، وبتعمق قلّ أن يوجد مثله في أهل العربية.

بل لقد **سجل الفراهي على علماء العربية بعض الأخطاء والهفوات، وتكلم على بعض خصائص العربية التي لم يذكرها أحد غيره**، وكانت له ملاحظات واستدراكات في علوم النحو والبلاغة وغيرها، كما كانت له نظرات صائبة في ما ينبغي أن تكون عليه علوم اللغة والشريعة..

هكذا فعل القرآن بالفراهي، وهكذا يفعل بكل مسلم غيور، فأين موقف الفراهي هذا من مواقف كثير من العرب المعاصرين الذين ينتسبون إلى العروبة اسماً، ولكن يولون وجوههم شطر الغرب، فيستقبلون قبلته، ويدورون في فلكه، بعد أن أداروا ظهورهم للعربية والقرآن، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ألم يقرؤوا قول الله تعالى في قرآنهم العربي:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وقوله تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]؟!

كتاب «جمهرة البلاغة»:

يقول الدكتور محمد أجمل أيوب عن الفراهي ومكانته في علوم العربية، وأهمية كتابه «**جمهرة البلاغة**»:

«أما العربية، فكان فيها إماماً لا يشق له غبار، وكان له في كل علم من علومها من لغة، ونحو، وبلاغة، وعروض، تحقيقات واجتهادات واستدراكات على الأئمة.

ونكتفي هنا بالإشارة إلى كتابه «**جمهرة البلاغة**»، الذي **نقض فيه الأساس الذي يقوم عليه فن البلاغة عند أرسطاطاليس، وهو نظرية المحاكاة**، ويرى الفراهي **أن فن البلاغة العربية تأثر بهذه النظرية، فجار عن قصد السبيل**، وانتقد في ذلك الإمام عبد القاهر الجرجاني مع اعترافه بجلالته، **ودعا إلى تأسيس فن البلاغة على أسس منبثقة من القرآن الكريم، وكلام العرب الأقحاح**.

ولما أرسل الفراهي فصولاً من جمهرة البلاغة إلى **العلّامة شبلي النعماني أعجب به إعجاباً جعله يلخص مباحثه المهمة**، وبخاصة **نقده لنظرية المحاكاة** في مجلة الندوة التي كان يصدرها باللغة الأردية، مع أن النعماني نفسه يعدّ من أشهر النقّاد والكتّاب، ومن الأركان الخمسة للأدب الأردي.

وقد نشر الكتاب بعد وفاة المؤلف، ونفد قبل أن يصل إلى البلاد العربية ليأخذ مكانه من البحث والنقاش، فهو كتاب فريد في تاريخ البلاغة العربية».

حقاً إن «جمهرة البلاغة» كتاب فريد في تاريخ البلاغة العربية، وقد قال الدكتور أحمد مطلوب في ختام دراسته لهذا الكتاب:

«.... هذه جولة في **كتاب فريد من نوعه، ألّفه** مسلم **في المشرق الإسلامي**، ولم يصل إلى البلاد العربية، **ليكون صورة من صور الدرس البلاغي في القرن العشرين للميلاد**».

ثم يتحدث الدكتور مطلوب عن خصائص الكتاب وأهميته، فيقول:

وبعد: فما خصائص هذا الكتاب الفريد وأهميته:

تبدو في كتاب «جمهرة البلاغة» نزعة الفراهي واتجاهاته واضحة كل الوضوح، وتتمثل في:

١ ـ **الاعتزاز بالعرب؛ لأنَّهم من أذكى الأمم كما يرى.**

٢ ـ **الاهتمام باللغة العربية ذات الخصائص التي تميزها عن اللغات الأخرى،** ولا سيما لغة اليونان التي استقى منها أرسطوطاليس مفهوم الشعر والمحاكاة.

٣ ـ **تمسكه ببلاغة العرب، والعزوف عن بلاغة العجم.**

٤ ـ **العناية بالأسلوب العربي البليغ.**

٥ ـ **الاطلاع على أهم كتب البلاغة العربية، وعلى كتب أرسطوطاليس، والشعر العربي.**

وأهم ما تجلى في الكتاب:

١ ـ **تقسيم مباحث البلاغة إلى قسمين:**

ـ **القسم العمومي.**

ـ **والقسم الخصوصي.**

وهو تقسيم جديد لم تألفه البلاغة العربية في تأريخها الطويل.

٢ ـ **ربط البلاغة بالنقد، واتخاذها مقياساً في الأحكام النقدية.**

٣ ـ **وضوح النزعة الأدبية في العرض والتحليل.**

٤ ـ **إبداء الآراء الخاصة في القضايا المختلفة، ومن ذلك:**

ـ **نقض نظرية المحاكاة لأرسطو.**

ـ **ونقد عبد القاهر الجرجاني.**

ـ والتمييز بين بلاغة العرب وبلاغة العجم.

ـ والفرْق بين الشعر والخطابة.

ـ وغير ذلك من الآراء المبثوثة في مباحث الكتاب.

٥ ـ ومن هنا تأتي أهمية الكتاب، وتأمّلُ ما ورد فيه من مباحث وآراء، يَرفد الدرس البلاغي والنقدي، ويُضيف ما فيه النفع، وإنارة السبيل يوم تلبس البلاغة العربية ثوبها الجديد.

٦ ـ إلحاق بعض المباحث العامة المتصلة بالنقد.

٧ ـ وضوح أسلوب الكتاب في العرض والتحليل.

ويمكن أن نضيف إلى ماذكره الدكتور مطلوب:

«دلالة الكتاب بالنسبة لمؤلفه»:

حيث يدل كتاب «الجمهرة» على عبقرية الفراهي الفذة، والتي تتراءى للقارئ من خلال ماجاء فيه من قدرة على الاستيعاب والتحليل، ومن مهارة فائقة في النقد والتعليل، ومن ملكة بيانية رائعة في التذوق والتعبير. ويمكن أن نؤكد ذلك ببعض النماذج والأمثلة:

ـ يظهر الاستيعاب واضحاً جلياً، في اطلاعه على بلاغة العرب، من خلال تمرسه بقراءة الشعر العربي ـ جاهليه وإسلاميه ـ وتذوقه لنصوص الشعر والنثر، التي استشهد بها في كتابه. كما يظهر في اطلاعه على بلاغة العجم المتمثلة في ما جاء عند اليونان قديماً، وعند الأوربيين حديثاً، حيث وظَّف ذلك كله في نقده لنظرية «المحاكاة» التي قال بها أرسطو، والتي يرى أنه تأثر بها المولَّدون من علماء البلاغة العربية.

ـ تظهر **قدرته الهائلة على الغوص في أعماق النفس الإنسانية**، وسبره لأغوارها، وتحليله لمجرياتها، وفرزه لحركاتها، وتتبعه لتقلباتها، واكتشافه خباياها وأطواءها، وتوظيف ذلك كله لخدمة بحثه ـ كما نرى ذلك في أماكن عدة من هذا الكتاب ـ ويمكننا أن نمثل لذلك بالفقرة التالية، والتي اجتزأناها من **حديثه عن الفرق بين الشاعر والخطيب**:

«... وعَدَمُ التَّمييزِ بين الشّاعِرِ، والخَطِيبِ، أوْقَعَ بعضَ النّاسِ من جِهَةٍ أُخرى في الالتِباسِ.

فإنَّهُمْ ظَنوا أنَّ الشِّعرَ هو كلامٌ ذُوْ مَجازٍ وتَشبِيهٍ، فاشتَبَهَ عَلَيهِم كلامُ الحُكَماءِ بالشِّعرِ. مِثْلُ: وعْظِ عِيسَى، فإنَّهُ مَلآنٌ من الأمثالِ والتَّشبِيهاتِ.

فنُرِيدُ أنْ نُفَصِّلَ قَولَنا:

«إنَّ الشّاعِرَ أغَنُّ طَبعاً، وأرَقُّ فِطْرَةً»:

فعَنَينا بِهِ، أنَّ الشّاعِرَ يَتأثَّرُ بِأمرٍ، فيُهيجُ فيه الوزْنَ، والنَّغمَةَ، والرَّقصَ، فما من شاعِرٍ إلّا فيه عِرْقٌ من هذه الانبِعاثاتِ...

وإنَّما سَلَكْنا العَروضَ، والنَّغمَةَ، والرَّقصَ، في سِلكٍ واحِدٍ، فإنَّها في الحَقِيقَةِ كذلك. وهذا أيضاً مِمّا خَفِيَ كُنهُهُ على أرِسْطُو، فإنَّهُ لم يَكُنْ شاعِراً، فلم يَدرِ مالم يَذُقْ.

فزَعَمَ كما زَعَمَ في أمرِ الشِّعْرِ، أنَّ النَّغْمَةَ، والرَّقصَ، مُحاكاةٌ؛ لأنَّ فيهما إظهاراً لِوارِداتِ النَّفْسِ، والأحْوالِ، والأعمالِ.

وإنَّما قال ذلك، لأنَّهُ رأى المُغَنِّينَ، والرَّقّاصَةَ، يُظْهِرُونَ ـ بالغِناءِ والرَّقصِ ـ من جِهَةِ أثَرِ الأوّلِ وإشاراتِ الثّاني ـ أحوالَ النَّفْسِ، وأفعالَ النّاسِ، فمَرَّ بِأمْرٍ لَوْ

تأمَّلَ فيه، أو كان له من الوجدانِ كوجدانِ الشّاعِرِ، عَلِمَ أنَّ هَذِهِ الأمُورَ لم تُستَعمَلْ لِلمُحاكاةِ وإظهارِ ما تُظهِرُهُ، إلّا لأنّها نَتائِجُ من أحوالِ النَّفْسِ.

مَثلاً: التّأوُّهُ لا يُظهِرُ الحُزْنَ، والتَّبَسُّمُ لا يُظهِرُ المَسَرَّةَ، إلّا لأنَّ النَّفْسَ تَفهَمُ هذه الإشاراتِ؛ لِما أنّها تَبْعَثُ فيها حالَةً خاصَّةً.

فالغِناءُ، والرَّقصُ، والوزْنُ، أُمُورٌ تَنشأُ في نَفْسِ مَنْ رَقَّتْ فِطرَتُهُ. ولِما أنّها نَتيجةٌ لِحالَةٍ نَفسانِيَّةٍ، تَبعَثُ في مَنْ ظَهَرَتْ له، تلك الحالَةَ. ونُبَيِّنُهُ بَعْضَ التَّبيين:

إنَّ الفَرَحَ، والحُزنَ، والخَوفَ، والتَّعجُّبَ، والشَّوقَ، والنُّفرَةَ، مع أخَواتِها، وأصنافِها، تَبعَثُ حَرَكَةً في القَلْبِ، وشِدَّةُ الحَرَكَةِ تَفيضُ، وتَخْرُجُ، فتَنقَلِبُ صَوتاً، أو غِناءً، أو رَقْصاً، أو تَمَلمُلاً.

وإذْ هِي آثارٌ لِحَرَكاتِ القَلْبِ، على نَوعٍ خاصٍّ، يُشابِهُ كُلُّ أثَرٍ باعِثَهُ.

فمَنْ أُدِّيَ إليه أثَرٌ من هذه الآثارِ، صار مُشابِهاً لِصاحِبِ الأثَرِ، في حَرَكَةِ القَلْبِ، كأنَّ حَرَكَةَ قَلْبٍ، انتَقَلَتْ إلى قَلْبٍ، بِوسِيلَةِ الحَواس.

فالضَّحِكُ مَثلاً: ليس إلّا حَرَكَةً في قَلْبِ الضّاحِكِ، قد خَرَجَتْ، ثُمَّ انتَقَلَتْ إلى السّامِعِ، ثُمَّ بَلَغَتْ قَلْبَهُ فحَرَّكَتْهُ، ثُمَّ خَرَجَتْ منه، فتَشابَهَتْ الحَرَكَتانِ في النَّفْسِ، كما تَشابَهَتا في الخارِجِ، وهذا أصلُ التَّفاهُمِ بين الحَيَواناتِ على قَدْرِ تَفَتُّقِ حَواسِّها.

فكما أنَّ النُّطْقَ أمْرٌ فِطْرِيٌّ، فكذلك هذه الإشاراتُ أُمُورٌ فِطْرِيةٌ، ودَلالَتُها لِتَشابُهِ النُّفُوسِ، ومُوافَقَةِ العِلَّةِ بِالمَعْلُولِ، وهذا هو أصْلُ النُّطْقِ...».

ـ لقد كان أسلوبه في النَّقد، على درجة عالية من عفة اللسان، والبعد عن التجريح، وكثيراً مايحاول تعليل القصور، وبيان أسباب الخطأ، وربما يعتذر لمن ينتقده ـ كمافعل ذلك في نقده لأرسطو ـ.

ـ أما نقده لعبد القاهر الجرجاني ـ مع اعترافه بفضله ـ فقد كان غالباً بصيغة:

«والعجب من صاحب أسرار البلاغة»، أو «والعجب من صاحب دلائل الإعجاز».

وهو تعبيرٌ يُشْعِرُ بالأسف، لِما لم يكن مُتوقَّعاً من مثله أن يقع فيه، وذلك لمكانته وسبقه في هذا المجال. ويمكن أن نمثِّل لذلك بالمثال التالي ـ الذي جاء في سياق الحديث عن الترتيب ـ:

ذكر صاحِبُ «أسرارِ البلاغةِ» أنَّ قولَ المُرَقِّش:

النَّشْـرُ مِسْـكٌ والوُجُـوهُ دَنـا ... نِيـرٌ وأطرافُ الأكُـفِّ عَـنَـمْ[1]

ليس فيه تَرتِيبٌ.

ونوجِّهُكَ إلى تَرتِيبِ هذه الصِّفاتِ؛ **لِتَعْلَمَ كَيف غَفَلَ عنهُ مِثْلُ الجُرْجاني**. فتَعْلَمَ دِقَّةَ هذا المسلَكِ، ورِفعَةَ مَحلِّهِ ـ ولا تَستَبعِد خَفاءَ نِظامِ القرآنِ، عن جُمْهُورِ المُفَسِّرِينَ ـ.

فاعلمْ أنَّ الشّاعِرَ ذَكَرَ النَّشْرَ أوَّلاً، لأنَّكَ تَجِدُهُ عن ظَهْرِ الغَيْبِ.

ثُمَّ ذَكَرَ حُسْنَ الوُجُوهِ لِما تَجِدُهُ عند المُشاهَدَةِ.

ثُمَّ إذا اقتَرَبْتَ ولَمَسْتَ الأكُفَّ، وجَدْتَ نُعُومَتَها.

فلو لم يَكُنْ هَمُّهُمْ مَقصُوراً على التَّشبِيهِ وأنْواعِهِ، لم يَخْفَ عليهم وجْهُ التَّرْتِيبِ.

وهكذا نَقَلَ الجُرْجانيُّ كَلاماً مِن الجاحِظِ واستَحسَنَهُ.

ولكن قال: ليس فيه تَرتِيب.

---

(١) انظر ديوان المرقِّشين، ص٦٨، تحقيق كارين صادر، طبع دار صادر ـ بيروت.

وإنِّي لا أدْرِي كيف يَذْهَلُ عاقِلٌ عن التَّرْتِيبِ ـ لاسيَّما مِثْلُ الجاحِظِ ـ. وأيُّ شَيءٍ يَمنَعُهُ أنْ يُراعيَ التَّرتِيبَ في معانِيهِ؟

ولم يَمنَعْهُ سَجْعٌ، ولا وزْنٌ شِعْرِيٌّ.

وأُرِيدُ أنْ أشْرَحَ كلامَ الجاحِظِ، لِيَكُونَ لك أُنْمُوذَجاً ومِثالاً ـ فتَفَكَّرْ وتَدَبَّرْ في نِظَامِ كلامِ الله العَليِّ ـ.

قال الجاحِظُ: «جَنَّبَكَ الله الشُّبْهَةَ، وعَصَمَكَ من الحَيْرَةِ، وجَعَلَ بينكَ وبين المَعرِفَةِ نَسَباً، وبين الصِّدقِ سَبَباً.

وحَبَّبَ إلَيكَ التَّثبُّت، وزَيَّنَ في عَيْنِكَ الإنصافَ، وأذاقكَ حَلاوةَ التَّقوى، وأشْعَرَ قلْبَكَ عِزَّ الحَقِّ، وأوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ اليَقِينِ، وطَرَدَ عنكَ ذُلَّ اليأْسِ، وعَرَّفَكَ ما في الباطِلِ من الذِّلَّةِ، وما في الجَهْلِ من القِلَّةِ».

فإنْ مَرَرْتَ على سَطْحِ هذا الكلامِ، لم تَـرَ فيه نَظماً. ولكن هذه الفَقَراتُ لها غَورٌ، وهُناكَ يَظهَرُ حُسْنَ تَرتِيبِها:

فاعلمْ أنَّ الشُّبهةَ أوَّلُ البَلِيَّةِ، فتُغادِرُ المَرءَ مُتَحيِّراً، لا يَدرِي أيَّ الأمرَيْنِ يُـرَجِّحُ.

فإنْ كان له سَبَبٌ إلى المَعرِفَةِ مالَ إليها، فَهُدِيَ إلى الصِّدقِ.

وحِينَئِذٍ يَحتاجُ إلى التَّـثَبُّتِ عليهِ، ثُمَّ التَّـثَبُّتُ يَعُودُ تَعَسُّفاً، إذا نَـبَذَ الإنصافَ، فَيَجمَدُ على ما عَرَفَ، ولا يَصعَدُ إلى ما هو أرفَعُ مِنهُ.

فإنْ زُيِّن في عينه الإنصافُ، تاقَ إليه. وهَاهُنا كَمُلَتْ له أسبابُ العِلمِ. فهذه سِتُّ مَنازِلَ في العِلمِ.

ثُمَّ لابُدَّ من العَمَلِ بِما عَلِمَ، وإلَّا فَسَدَ رأيُهُ، فيُوشِكُ أنْ يَـرَى الباطِلَ حَقًّا. وبهذا عَلِمتَ شِدَّةَ حاجَتِنا إلى تَهذِيبِ أخلاقِنا، لِأجْلِ إصابَةِ الرَّأيِ.

فمِنَ الأوّلِ احتاجَ المَرْءُ إلى مَدَدِ التَّقوى ـ فإنَّها مَنبَعُ فِعْلِ الخَيْرِ ـ.

والمُتَّقِي ـ في هذه الدّارِ الفانِيَةِ ـ رُبَّما ابْتُلِيَ بِالبُؤْسِ والضُّرِّ، فإذا نَبَذَ الدُّنيا وقَنَعَ بِالتَّقوى فنَّدَهُ النّاسُ، واستَهانَهُ الجُمهُورُ.

فإنْ صَبَرَ على الضُّرِّ، فكيف يَصبِرُ على المَهانَةِ؟ إلّا أنْ يَشْعُرَ بِذُلِّ الباطِلِ، وعِزِّ الحَقِّ، فيُكرِمُ نَفْسَهُ، ويَهُونُ في عَينِهِ جاهُ الأشرارِ، لِيَقينِهِ الثّابِتِ بِفلاحِ المُتَّقِينَ.

فبِهذا العِزِّ الَّذي أُشْرِبَ قَلبُهُ، طُرِدَ عنهُ ذُلُّ اليأسِ ـ ولوهَجَمَتِ الشَّدائِدُ، وبَعُدَ عنهُ الوَعْدُ الإلَهِيُّ ـ فحِينَئِذٍ يَرى الباطِلَ عَينَ الذِّلَّةِ، ويَرى الجَهْلَ عَينَ الفَقْرِ.

فانظُرْ كيف جَمَعَ أسبابَ العِلْمِ والعَمَلِ، وجَعَلَ سِتَّةً لِلعِلْمِ، وسِتَّةً لِلعَمَلِ.

وكيف خَتَمَ الكلامَ بِذِكْرِ أنَّ مِلاكَ أفْعالِنا، رَغْبَةُ النَّفْسِ إلى العِزِّ والغِنى.

ولَكِنَّهُ عَلِمَ أنَّ النُّفْرَةَ أقوى من الرَّغْبَةِ سُلْطاناً على أفعالِنا، فذَكَرَ الذِّلَّةَ والفَقْرَ.

فما أدَقَّ نَظَرَهُ حِينَ بَدأ القَولَ بِالشُّبهَةِ، وخَتَمَ بِالمَعرِفَةِ الغامِضَةِ، الَّتِي هِيَ مَصدَرُ الإراداتِ.

والجاحِظُ، وشَى حِبَرَهُ، على مِثالٍ من قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ عَباسٍ رضِيَ الله عنه، وهو:

«مَنْ لم يَجِدْ من نَقْصِ الجَهْلِ في عَقْلِهِ، وذُلِّ المَعْصِيَةِ في قَلبِهِ، ولم يَسْتَبِنْ مَوْضِعَ الخَلَّةِ في لِسانِهِ، عند كَلالِ حَدِّهِ عن حَدِّ خَصمِهِ، فليس مِمَّنْ يَفزَعُ عن رِيبَةٍ، ولا يَرْغَبُ عن حالِ مَعْجَزَةٍ، ولا يَكْتَرِثُ لِفَصْلِ ما بين حُجَّةٍ وشُبهَةٍ».

فذَكَرَ ثَلاثَ خِصالٍ سَيِّئَةٍ، هي أُصُولُ الهلاكِ ـ فذَكَرَ الجَهْلَ، والمعصيةَ، وضَعْفَ القولِ ـ إشارَةً إلى فَضائِلِ العِلْمِ والعِفَّةِ والنُّطقِ ـ كأنهُ دَلَّ على أُصُولِ كَمالِ الإنسانِيةِ.

وصَرَّحَ بِمَحَالِّها الثّلاث ـ فذكَرَ العَقْلَ والقَلْبَ واللِّسانَ ـ وسَمَّى:

الأَوَّلَ: نَقْصاً.

والثّانيَ: ذِلَّةً.

والثّالِثَ: خَلَّةً.

ثُمَّ جَعَلَ الأَوَّلَيْنِ مِمّا يُعلَمُ بِالبَداهَةِ والوِجْدانِ.

والثّالِثَ مِمّا يُعلَمُ بِالنَّظَرِ والاستِبانَةِ.

ثُمَّ جَعَلَ هذه الثّلاثَ تَحْتَ قُوَّةِ العَقلِ، فإِنَّ الوِجْدانَ والاستِبانَةَ من العَقْلِ، ولذلك ذَكَرَ الجَهْلَ أَوَّلاً؛ فإِنَّهُ مَنْبَعُ الباقِيَيْنِ.

ـ كذلك **تظهر عبقرية الفراهي في المصطلحات التي ابتكرها**، حيث غابت كثير من المصطلحات التقليدية عن كتابه، ونظرة واحدة إلى العناوين المفصلة لموضوعات الكتاب، كفيلة بتأكيد هذه الحقيقة.

ـ لا بُدَّ من الإشارة إلى أن الكتاب، **لم يطبع في حياة المؤلف لعدم تمامه**، ومن ثم **نجد بعض العناوين التي ذكرت في الفهرس، لم تذكر في متن الكتاب**، كما جاء في آخر الفهرس: «**الصرفة في الإعجاز**».

كذلك **نجد بعض الفراغات التي لم تملأ، والتي كان المؤلف ينوي أن يعود إليها**، كالتشبيهات المبالغ فيها، والتي أشار إليها تحت عنوان:

«**المذهب الباطل في التشبيه**» حيث قال:

«اعلم أن المولدين زعموا أن الندرة والبعد في التشبيه من محاسنه، وقد أسهب الجرجاني، في إثبات ذلك، وجمع التشبيهات الرديئة، وإنا نورد عليك منها، لكي تُعْمِلَ فيه ذوقك، وتبين سخافتها.

... وهكذا ترك مكانها خطوطاً، على أمل الرجوع إليها. ويبدو أن المنية عاجلته عن إتمام ذلك، وعن إتمام كثير من المشروعات الكثيرة التي كان يعمل فيها في وقت واحد، الأمر الذي لم يتح له إلا إتمام القليل.

وقد عقب الدكتور أحمد مطلوب على نقد الفراهي للتشبيهات الواردة عند الجرجاني قائلاً:

«ولم يذكر الأمثلة التي وصفها بالسخف في المبحث الذي سماه «المذهب الباطل في التشبيه».

وكلام الفراهي باطل، لأنَّ التشبيهات التي ذكرها الجرجاني من الروائع، وكان تحليله لها أكثر روعة وبياناً. (يُنظر: «أسرار البلاغة» ص٦٤ وما بعدها).

ولدى رجوعنا إلى «أسرار البلاغة» نرى أمثلة كثيرة ذكرها الجرجاني.

ولعل الأشبه بما قصده الفراهي مثل هذه الأمثلة:

هي التشبيهات التي تميزت بالندرة والبعد، **مثل تشبيه الشمس بالمرآة في** كف الأشل كقوله:

والشَّمْسُ كالمِرْآة في كَفِّ الأشَلّ(١)

وهو تشبيه بعيدٌ غريبٌ: ويحتاج في الانتقالِ من المشبَّهِ إلى المشبَّهِ به، إلى فكرٍ وتدقيقِ نظرٍ؛ لخفاءِ وجهِه باديَ الرأي.

وكتشبيه البرق بإصبع السارق في قول كشاجم:

أرِقْتَ أمْ نِمْتَ لضوءِ بارقِ   مُؤْتَلِقاً مِثْلَ الفُؤادِ الخَافِقِ

كأنَّه إصبعُ كفِّ السّارقِ

---

(١) البيت للشماخ في ديوانه، ص٣٩٤، وقال عبد الرحيم العباسي في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (٢/ ٣٢): «هو من الرجز واختلف في قائله: فقيل: الشماخ، وقيل: ابن أخيه، وقيل: أبو النجم، وقيل: ابن المعتز».

وكقول ابن بابك:

وَنَضْنَضَ في حِضْنَي سَمَائِكَ بارقٌ لـه جِـذْوَةٌ من زِبْـرجِ الـلَّاذِ لامِعَهْ
تَعوَّجُ فـي أعلى الســحابِ كأنَّها بَنَـانُ يـدٍ مـن كِلَّـة الـلَّاذِ ضَارِعَـهْ

وكتشبيه البرق في انبساطه وانقباضه والتماعه وائتلاقه بانفتاح المصحف وانطباقه فيما مضى من قول ابن المعتز:

وكأنَّ البـرقَ مُصحَف قارٍ فَـانطباقاً مَـرَّةً وانـفـتـاحا

وكتشبيه سطور الكتاب بأغصان الشوك في قوله:

بشَكـلٍ يأخُـذُ الحَـرْفَ المحَلَّـى كـأن سُــطورَهُ أغـصانُ شَـــوكِ

وكتشبيه الشَّقيق بأعلام يَاقوت على رِماح زَبَـرْجدْ كقول الصَّنَوبريّ:

وكـأنَّ مُـحـمـرَّ الشَّـقيـ ـقِ إذا تصـوَّبَ أو تصعَّـدْ
أعــلامُ يـاقــوتٍ نُشِـــرْ نَ على رِمـاحٍ مـن زَبَـرْجدْ

وكتشبيه النجوم طالعات في السماء، مفترقات مؤتلفات في أديمها، وقد مازجت زُرقةُ لونها بياضَ نورها بدُرٍّ منثورٍ على بساط أزرق، كقول أبي طالب الرَّقِّي:

وكــأنَّ أجـرامَ الـنُّـجـومِ لَـوامعاً دُرَرٌ نُـثِـرْنَ علـى بِسـاطٍ أزرقِ[1]

ويحسن بالقارئ أن ينظر ما قاله الجرجاني في تحليلها، ويعمل فيها ذوقه ـ كما طلب ذلك الفراهي ـ.

---

(١) انظر: أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، بتحقيق محمود شاكر ص١٥٨-١٥٩، نشر دار المدني جدة، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

عملنا في الكتاب:

لقد قمنا بقراءة الكتاب أكثرمن مرة، وقد تبينت لنا صعوبته، والحاجة إلى تيسيره للقارئ، فعمدنا إلى الخطوات التالية:

١. أعدنا النظر في تفقير الكتاب، بحيث تكون كل فقرة خاصة بفكرة واحدة، أو قول واحد.

٢. ضبطنا الكلمات بالشكل شبه الكامل، مع العناية بعلامات الترقيم، مساعدة للقارئ.

٣. نقلنا الآيات القرآنية من المصحف الشريف، لضمان عدم الخطأ المطبعي في كتابتها.

٤. خرجنا الأحاديث النبوية من مظانها في كتب السنة.

٥. عزونا الأبيات الشعرية إلى مظانها من دواوين الشعر.

٦. أضفنا إلى الحواشي من التعليقات، مارأيناه ضرورياً، ومساعداً على فهم النص.

وبعد: فلا يسعني في ختام هذا التقديم، إلا أن أشيد بالجهد الكبير الذي بذله نجلي الدكتور محمد إقبال، الذي شاطرني هذا العمل، وسار معي فيه خطوة خطوة، متذوقاً لبلاغة الفراهي، معجباً بها، متحمساً لإتمام تحقيق هذا الكتاب على الوجه الذي انتهى إليه.

كما نشكر شقيقنا الأستاذ حسن بن حسن فرحات على ماقام به من قراءة الكتاب وتنضيده على هذا الشكل المتميز.

وفي الختام نتوجه بالشكر الجزيل إلى جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم على حرصها أن يكون هذا الكتاب في عداد مطبوعاتها، كما نشكرها على استجابة طلبنا في إرسال هذا الكتاب إلى الدكتور محمد أجمل أيوب لقراءته وإبداء ملاحظاته عليه باعتباره شديد الصلة بتراث الفراهي وقد سبق له أن نشر بعض كتبه، وقد أفادنا الدكتور بملاحظاته القيمة التي أخذنا بها، راجين من الله الهداية والتوفيق.

أ. د. أحمد حسن فرحات

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم
وحدة البحوث والدراسات

سلسلة الثقافة الإسلامية



جمهرة البلاغة

للعلامة
عبد الحميد الفراهي
المتوفى سنة ١٣٤٩هـ

اعتنى به

أ. د. أحمد حسن فرحات
أستاذ التفسير وعلوم القرآن

د. محمد إقبال أحمد فرحات
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم



سُبْحانَ الَّذي فَضَّلَ بَني آدَمَ على سائِرِ الخَلائِقِ، فجَعَلَهُ الحَيَّ النّاطِقَ، كما فَضَّلَ مُحَمَّداً على سائِرِ بَني آدَمَ، فأعْطاهُ أبْلَغَ الكَلِمِ. فلنَشْكُرَنَّ رَبَّنا الرَّحْمنَ، بِدايَةً على أنْ عَلَّمَنا البَيانَ، ونِهايةً على أنْ نَـزَّلَ علينا القُرآنَ. ولا شُكْرَ لِمَنْ جَهِلَ بالنِّعْمَةِ فضَيَّعَها، أو حَوَّلَها فأخطأ موضِعَها. فَوجَبَ عَلينا أنْ نَعْرِفَ أسْرارَ البَيانِ وفَضائِلَهُ، كما وجَبَ عَلَيْنا أنْ نَعْرِفَ إعجازَ القُرآنِ ودَلائِلَهُ؛ لِنَستَكمِلَ من فِطْرَتِنا عُنصُرَها، ونَستَسقِيَ من عُيُونِ الوحي كَوْثَرَها. وها أنا أشْرَعُ في المَقصُود.

❊ ❊ ❊

القسم العمومي
(بحث عن محل هذا العلم ونسبه)

اعلمْ أنَّ البَيانَ كالظِّـلِّ والأثَرِ للنُّطْق ـ الَّذي هو مُقَوِّمٌ لِلإنسانِ ـ كما أنَّ النُّطقَ ظِلٌّ من الوحْيِ الأعْلى، وكَلِمَةِ الله العُليا.

فالبَحْثُ عن أوَّلِيّاتِ عِلْمِ البَيانِ، يَجْلِبُنا إلى الحِكْمَةِ الإلَهِيةِ. ولكِنّا الآنَ في الجَدولِ، فلا نَغُوصُ البَحْرَ، غيرَ أنْ لا نَنْساهُ. ونَعلم أنَّ إليه مُنْتَهاهُ، وهل المَصِيْرُ لِشَيءٍ إلّا لله[1].

وقَدَّمْنا هذه الكَلماتِ، لِيَتَبَيَّنَ لك الفَرْقُ بين تَعاطِيْنا العُلُومَ ـ لاسيَّما هذا العِلْمُ ـ وبين تَعَرُّضِ الأُمَمِ الأُخَرِ له؛ فإنَّهُمْ نَظَرُوا إليه من نَظَرٍ دَنِيٍّ دُنْياويٍّ، فَغالَتْهُمْ غَوائِلُها[2]، وأبْعَدَهُم عـن الحَقِّ باطِلُها، فتَراكَمَتْ عَلَيْهم ظُلُماتٌ بَعْضُها فوق بَعْضٍ، ولكي يَسْطَعَ لك النُّورُ البازِغُ وجَّهْتُكَ إلى الأُفُقِ الأعلى، ثُمَّ نَصْعَدُ بك إلى رَبْوةِ النَّظَرِ، والنَّقْدِ والتَّأمُّل.

صُعُوبَةُ مَعْرِفَةِ مَحاسِنِ الكَلام:

١ ـ قد اتَّفَقَ النّاسُ من القَدِيم والحَدِيثِ، على أنَّ في الكلامِ حَسَناً وقَبِيحاً، وعالِياً، وسافِلاً، وكذلك اجتَمَعَتْ كَلِمَةُ كُلِّ أُمَّةٍ على تَحْسِينِ ما كان منه في الحُسْنِ

---

(١) في الأصل: «الله».

(٢) الغائلة: الفساد والشر، والداهية ـ تجمع على غوائل ـ المعجم الوسيط: ٢/ ٦٩١.

على غايَةِ الكَمالِ، مِثْلَ تَحْسينِهِم كلامَ هُومِيرُسْ[١] في اليونانِ، وامْرِئ القَيْسِ[٢] في العَرَبِ، وفِرْدَوْسِي[٣] في الفُرْسِ.

---

(١) هوميروس عُرِف أيضاً باسم هُومَرْ، أعظم شعراء اليونان، ويرجَّح أنه عاش في القرن التاسع قبل الميلاد، يعتقد البعض أنه ربما عاش في مدينة تتحدث اليونانية على الشاطئ الشرقي لبحر إيجة، وينكر علماء آخرون مجرد وجوده، شاعر ملحمي نظم الإلياذة والأوديسا والأغاني الهوميرية، ويعتبر هوميروس أول شعراء اليونان، وأعظمهم شأناً، وأشدهم تأثيراً في أدباء الغرب جميعاً في مختلف العصور، ومازالت الإلياذة والأوديسا تعتبران المثل الأعلى لشعر الملاحم؛ لامتيازهما بالروعة والفخامة وسمو الأسلوب، وشكل اليونانيون آراءهم الدينية من الأوصاف التي عرضها هومر للآلهة، وكانت قصائده زاداً حافلاً بالشخصيات والحبكة، والعقدة المسرحية، لكتاب المسرح التراجيدي المشاهير، في القرن الرابع قبل الميلاد، أسخيلوس، يوربيدس، وسوفوكليس، ولذا ترجمتا إلى معظم اللغات الحية. انظر: الموسوعة العربية العالمية: ٢٦/ ٢٨٠، والمنجد في اللغة والأعلام، ص٦٠٣، والموسوعة العربية الميسرة: ٢/ ١٩٢١.

(٢) امرُؤُ القيس بن حُجْر بن عمْرو الكندي، (**نحو ١٣٠-٨٠ ق هـ = نحو ٤٩٧-٥٤٥م**) وهو من أهل نجد، عدَّه ابن سلَّام في رأس الطبقة الأولى، وكان أبوه ملك أسد وغطفان، وأمه فاطمة أخت كُليب ومهلِهل ابني ربيعة التغلبيين، وكليب هو الذي تقول فيه العرب: «أعزُّ من كليب وائل» وبمقتله هاجت حرب بكر وتغلب. مات قبل ظهور الإسلام بأنقرة بعدما ظهرت في جسمه قروح. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة: ١/ ١٠٥، ١١٥، والمؤتلف والمختلف للآمدي، ص٥.

(٣) الفردوسي (**٣٢٩-٤١١هـ**)، أبو القاسم منصور، شاعر الفرس الأكبر، ينسب إلى الفردوس، أي: جنة الفردوس، وتحكي ملحمته الكبيرة الشاهنامة (أي: كتاب الملوك) تاريخ بلاد فارس من عصرها السحيق قبل **٣٦٠٠** ق.م وحتى تاريخ الفتح الإسلامي في عام (**٢١هـ، ٦٤١م**)، وهي قصيدة تتألف من **٦٠٠٠٠** بيت، ويبلغ طولها سبعة أضعاف الإلياذة، نظمها للسلطان محمود الغزنوي. انظر: الموسوعة العربية العالمية: ١٧/ ٢٨٩، والرائد لجبران مسعود ص١٧١.

ولَكِنَّهُم اختَلَفوا على تَعيينِ مَوضِعِ الحُسْنِ، وتَـفضيلِ بَعضِ الكلامِ على بعضٍ، حتَّى إنَّ أبْصَرَ النّاسِ بِالنَّقْدِ يُخالِفُ مَنْ هو ليس بِدونِه.

وهكذا العادَةُ في كُلِّ لَذيذٍ مَرغوبٍ؛ لأنَّ أكثرَ الأشياءِ المُستَحسَنَةِ غيرُ بَسيطَةٍ، وأسبابَ الحُسْنِ فيهِ غيرُ واحدَةٍ.

فأمّا البَسيطَةُ: كالنُّورِ، والنَّـشْرِ، والحلاوةِ، والنُّعُومَةِ، والرّاحَةِ بعد التَّعَبِ، والعَمَلِ عند وِجْدانِ النَّشاطِ، والحَرِّ بعد القَرِّ، والبُرُودَةِ بعد السُّخونَةِ، وكُلِّ ما كان مِثْلَها، فلا تَرى النّاسَ فيه على خِلافٍ إلّا في المَدارِجِ.

فإنَّ بَعضَ النُّفُوسِ لاتَشبَعُ بِمِقدارٍ تَشبعُ بِهِ أُخرَى، وبِزَمانٍ يَكفي لِغَيرِها.

فأمّا إذا كَثُرَت وتَلاءَمَتْ أسبابُ الحُسْنِ، وتَـرَكَّبَتْ على اختِلافِ مَقاديرِها، مالَتْ كُلُّ نَفْسٍ إلى ما كان أنْسَبَ لها.

فالشَّيءُ الَّذي اجتَمَعَتْ فيه أسبابُ المَحاسِنِ، أكْثَرَ مِمّا هي في دُونِه، وعلى مِقدارٍ وسَطٍ، يَرتَضِيهِ أكثرُ النُّفُوسِ وأواسِطُها، حَكَموا بِرَجاحَتِهِ، واسْتَقَرَّ له حُكْمُ الجُمهُورِ.

ثُمَّ الباقُونَ يَضُمُّونَ أصواتَهُم بأصواتِهِم، ولكنْ مع ذلك مِنهُمْ مَنْ يُرَجِّحُ عليه ما كان أنسَبَ بِطَبعِهِ بِالخُصُوصِ، ورُبَّما يُظهِرُ رأيَهُ إذا لم يُبالِ بِمَنْ لا يُوافِقُهُ.

ولِما أنَّ صَوْتَ الجُمهُورِ أرفَعُ وأجهَرُ، فَيَبقَى الصِّيتُ لِمَنْ تَعَصَّبُوا له، لاسيَّما إذا كان فيه مَحاسِنُ يَسْتَحِبُّها العُقَلاءُ والحُكَماءُ، فإذا انضَمَّ رأيُهُم لرأيِ الجُمهُورِ، رَسَخَتْ في القُلُوبِ رَجاحَةُ الشَّيءِ، فإنْ لم يَتَّفِقْ بذَوْقِ بَعضِهِم فهو يَتَّهِمُ نَفسَهُ، ويَسعى أنْ يَسْمَعَ ويَرَى ما تَراهُ الأُمَّةُ وسَراتُها، فإنْ لم يَلْتَذَّ بِهِ أخْفاهُ في نَفْسِهِ، وألقَى كلامَهُ مع كلامِ النّاسِ. فهكَذا وقَعَ لِهُومِرُوس، وامْرِئِ القَيْسِ، وأمثالِهِما.

فليس كُلُّ واحِدٍ من النّاسِ يَجِدُ في كَلامِهِم ما يَهُزُّ نَفْسَهُ، وما اسْتَقَرَّ لَهُمْ هذا الفَضْلُ الباهِرُ إِلَّا بعد مُرُورِ الزّمانِ، واتّفاقِ كَلِمَةِ الأُمَّةِ لَهُمْ قَرْناً بعد قَرْنٍ، فما زادَتْ لَهُمُ الأَيّامُ إلا استِقراراً وغَلَبَةً، حَتَّى إِنَّ سُلطانَهُم يَقْهَرُ كُلَّ مَنْ يُخالِفُهُم، وإِنْ كانَ مَلِكاً مُطاعاً.

فمعَ أنَّ لِلكلام حُسْناً وعُلُوّا، تُذْعِنُ له الأذْواقُ، صَعُبَ سَبِيلُ النَّقدِ والتَّمييزِ، وأُبهِمَتْ مَعرِفَةُ كُنْهِ الحُسْنِ وسِرِّ البَراعَةِ، حَتَّى إِنَّكَ تَرى شِعْراً أونَثْراً يَرُوقُ أَكْثَرَ النّاقِدِينَ، وعامَّةَ أهْلِ الذَّوْقِ، ولكنْ إذا سألْتَهُم عن وجْهِ الحُسْنِ اختَلَفَتْ كَلِمَتُهُم، كما إذا سَمِعُوا صَوتاً، أو شَمُّوا طِيباً، فسألْتَهُمْ من أيِّ جِهَةٍ جاءَكُمْ هذا؟! اخْتَلَفُوا في جَوابِه.

(بَلاغَةُ العَجَمِ):

ـ كما أنَّ عُلماءَ الإسلامِ، أقْبَلوا على هذا الفنِّ، لِأجْلِ الكَشْفِ عن إعجازِ القرآنِ، فلو أنَّهُم استَقصَوا كلامَ العَرَبِ، واقتَفَوا آثارَ المَحاسِنِ فيهِ، وقَيَّدُوها بِالحُدُودِ، ونَظَمُوها في تَرتيبٍ حَتَّى يَصيرَ لَهُم مِيزانٌ ومَحَكٌّ لِمَعْرِفَةِ مَحاسِنِ الكلامِ، ثم نَظَروا في بَراعَةِ القُرآنِ ونَظْمِهِ المُعْجِزِ، لكانوا أقْرَبَ إلى مَعرِفَتِهِ.

ولَكِنَّهُم لم يأْخُذُوا من العَرَبِ، ولا من كَلامِهِم، فإنَّهُم أَثَّرَتْ فيهم عُلُومُ العَجَمِ، كما خالَطَتْهُم سَجاياهُم، إِلَّا الأَوَّلِينَ مِنهُم، كالجاحِظِ[1] فإنَّهُ لا يَبْعُدُ عن

---

(١) الجاحظ (١٦٣-٢٥٥هـ)، العلّامة، المُتَبَحِّرُ، ذُو الفُنون، أَبُو عُثْمانَ، عَمْرُو بنُ بَحْرِ بنِ مَحْبُوبِ البَصْرِيُّ، المُعْتَزِلِيُّ، صاحِبُ التَّصانِيْفِ، أَخَذَ عن: النَّظّامِ، ورَوَى عَنْ: أبي يُوْسُفَ القاضِي، وثُمامَةَ بنِ أشْرَسَ، وكانَ أحَدَ الأذْكِياءِ، ومِنْ بُحُورِ العِلْمِ، وتَصانِيْفُه كَثِيرَةٌ جِدّاً، منها: كِتابُ «الحَيَوانِ»، وكتاب «البيان والتبيين»، وكِتاب «النِّساءِ»، وكِتاب «البِغالِ».

انظر: سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٢٦.

سَنَنِ العَرَبِ، كبُعْدِ صاحِبِ «دَلائلِ الإعجاز»[١] ـ ولم يَبْعُدْ هذا إلّا لِقِلَّةِ مُمارَسَتِهِ بِكَلامِ العَرَبِ الخالِصِ ـ فلو تَيَسَّرَ لهُ ذلكَ، عَرفَ مَنزلتَهُم في هذه الصِّناعَةِ، واعتَرَفَ بِفَضلِهِم على المُولَّدِينَ. وقال بِقَولِ الجاحِظِ:

«لم أجِدْ في خُطَبِ السَّلَفِ الطَيِّبِ، والأعْرابِ الأقْحاحِ ألْفاظاً مَسْخوطَةً، ولا مَعانِيَ مَدخُولَةً، ولا طَبْعاً رَدِيّاً، ولا قَوْلاً مُستَكرَهاً. وأكثَرُ ما نَجِدُ ذلك في خُطَبِ المُولَّدِينَ، [وفي خُطَبِ][٢] البَلَدِيِّينَ المُتَكَلِّفِينَ، ومِنْ أهْلِ الصَّنعَةِ المُتأدِّبِينَ. وسَواءٌ كان ذلك على جِهَةِ الارتِجالِ والاقتِضابِ، أو كان من نَتاجِ التَّخَيُّرِ والتَّفكُّرِ»[٣].

فلمّا تَركوا مَنْهَجَ كلامِ العَرَبِ، صار أهمَّ شيءٍ عِندهُم البَدِيعُ، ومَطْمَحَ نَظَرِهِمُ التَّشْبِيهُ، وعند العَرَبِ: أوَّلُهُما مُنْكَرٌ، والثّاني غَيرُ مُهِمٍّ لِذاتِهِ.

وإنْ كان هذا البَحْثُ يَتَعَلَّقُ بِالتّارِيخِ، ولكِنَّهُ يُمَهِّدُ لَنا سَبِيْلَ الفَرْقِ بين بلاغَةِ العَرَبِ وغيرِ العَرَبِ، وأصلِ البَلاغَةِ والباطِلِ الشَّبِيهِ بها.

(بَلاغَةُ العَرَب):

ـ فاعلَمْ أنَّهُ ليس أنَّ العَرَبَ أُعْطُوا البَلاغَةَ، ولم يُعْطَوا تمييزاً بين مَحاسِنِ الكلامِ ومَساوِيهِ، وانتِباهاً لِمَواضِعِ الجَودَةِ والرَّداءَةِ فيه. فإنَّهُم كانوا يُباهون بِبَراعَةِ

---

(١) أبو بَكْرٍ عَبْدُ القاهِرِ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الجُرْجانِيُّ، (... ـ ٤٧١هـ = ... ـ ١٠٧٨م) شَيْخُ العَرَبِيَّةِ، أخَذَ النَّحْو بِجُرْجان عَنْ أبِي الحُسَيْنِ مُحَمَّدِ بن حَسَنٍ، ابن أُخْت الأُسْتاذ أبِي عَلِيٍّ الفارِسِيّ، صَنَّفَ «إعجاز القُرْآن»، و«مُخْتَصَر شرح الإيضاح»، وكانَ شافعيّاً، عالِماً، أشعريّاً، ذا نُسُكٍ وَدين، وكانَ وَرِعاً قانِعاً، وكانَ آيَةً في النَّحْوِ. انظر: سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٤٣٢.

(٢) ساقطة من الأصل. وقد سقطت في إحدى النسخ الخطية للبيان والتبيين، للجاحظ، كما بين ذلك محققه الأستاذ عبد السلام هارون: ٢/ ٩.

(٣) البيان والتبيين، للجاحظ، بتحقيق عبد السلام هارون: ٢/ ٨-٩.

الكلامِ، ويُحَكِّمونَ بينهُم مَنْ كان أبْصَرَهُم بِنَقْدِهِ ـ والأخبارُ في ذلك كَثِيرَةٌ ـ حَتَّى بَلغَ أمْرُ البَلاغَةِ فيهم مَنزِلَةَ نِظامِ المُعاشَرَةِ.

فكان خَطِيبُهُم يأخُذُ بِـزِمامِ القَومِ، فيَقودُهُم إلى حيث شاءَ.

ويَقومُ شاعِرُهُم فَيَرفَعُ قومَهُ من الأرضِ إلى السَّماءِ.

فأجْدِرْ بِقَومٍ هذا شأنُهُم، أنْ يَجرِيَ ذَوقُهُم في هذه الصِّناعَةِ، على سُنَّةٍ وأُصُولٍ مَعلُومَةٍ، وإلَّا كيف يَقضي فيهم حَكَمُهُم، أمْ كيف يُذْعِنُ لِحُكْمِهِ أرْبابُ العَقْلِ فيهم.

وإنْ رأيتَ في كُتُبِ الأدَبِ نَقْدَهُم، وبَيانَهُم وُجُوهَ المزيَّةِ لِكلامٍ على كلامٍ، عَلِمْتَ باليَقِينِ صِدْقَ هذه الدَّعْوى. ـ وذَكَرْنا نُبَذاً منه في بابِ اختيارِ اللَّفْظِ ـ.

ـ ثُمَّ عَلِمْتَ أنَّ سَبِيلَهُم في نَقْدِ الكلامِ، لم يَكُنْ كَسَبِيلِ صاحِبِ «أسْرارِ البَلاغَةِ» ـ وهو القُدْوةُ لِلَّذِينَ جاؤوا من بَعدِهِ، فاتَّبَعُوا خُطُواتِهِ ـ فكان سَبِيلُهُ سَدًّا بينهُم وبينَ العَرَبِ. فلو التَزَمُوا كلامَ العَرَبِ، ولم يلتَفِتُوا إلى أُصُولٍ مَهَّدَها المُبْعِدُونَ لكان خَيْراً لَهُم.

وكانوا أقْرَبَ إلى مَعرِفةِ إعجازِ القُرآنِ من طَرِيقِ الذَّوقِ، وإنْ لم يَكونوا من طَرِيقِ الصِّناعَةِ.

ـ وكانوا أقَلَّ عُذراً من أرِسْطُو[1] ـ وهو أوَّلُ كاتِبٍ يُوجَدُ رأْيُهُ في هذا الفَنِّ ـ.

---

(١) أرسطو أو أرسطاطليس (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) المقدم المشهور، والحكيم المطلق. تلميذ أفلاطون، ومكث عنده نيفاً وعشرين سنة، ثم صار حكيماً مبرزاً يعتمد عليه، كان وأفلاطون أعظم نوابغ النظر العقلي في تاريخ الفكر اليوناني، وتاريخ الفلسفة بأسره يهيمن عليه هذان الوجهان، حتى قيل: إن كل فيلسوف حتى لو كان من المحدثين إما أفلاطوني وإما أرسطوطاليسي. من تصانيفه: كتاب «الشعر»، و«الخطابة»، و«السياسة»، و«المنطق»، وغيرها، له أثره في جميع من جاء بعده من الفلاسفة، من مسلمين وغيرهم. =

فَبَدأ كِتابَهُ على الشِّعْرِ، بِقَوْلٍ كادَ يَهْدِيهِ إلى الصَّوابِ حيث قال:

«إِنَّ أَصْنافَ الشِّعْرِ والنَّغَمِ، جِنْسُهُ الأَعْلى مُحاكاةٌ، فإنَّ الإنسانَ:

إِمَّا من الفِطْرَةِ، أو من التَّعَلُّمِ يُحاكِي أشياءَ مُخْتَلِفَةً ـ بِوسِيلَةِ اللَّونِ، والشَّكلِ، أو بِالصَّوتِ ـ»[1].

فلو قال: إنَّ الشِّعْرَ ـ بل كُلَّ كلامٍ ونَغَمٍ ـ جِنسُهُ الأعْلى تَصويرٌ، لكان أقْرَبَ. إِذْ ليس بين المُحاكاةِ والتَّصويرِ إلَّا فَرْقٌ يَسِيرٌ.

ولَـكِنَّهُ أبعَدَهُ عن الصَّوابِ خَطَؤُهُ في غايَةِ الشِّعْرِ، ومادَّتِهِ، ومَبْدَئِهِ. وكان مَثارَ خَطَئِهِ كَلامُ قَوْمِهِ، واستِعمالُهُم إِيّاه.

ولو بَحَثَ عن أمْرِ الشِّعْرِ ـ على طَرِيقِ الفَلْسَفَةِ ـ ونَظَرَ فيه من جِهَةِ العِلَلِ، الَّتي ألَحَّ على البَحْثِ عنها في «ما بعد الطَّبِيْعَةِ»، ورَدَّ فيه على الحُكَماءِ الأقْدَمِينَ، لم يَخْفَ عليه الصَّوابُ بعد الاقتِرابِ، ولم يَلتَبِسْ عليهِ غايَةُ الشِّعْرِ.

فمَرَةً يَزْعُمُ: أنَّها الأثَـرُ والإطرابُ.

وحِيناً يَزْعُمُ: أنَّها القِصَّةُ؛ لأنَّ العَمَلَ غايَةُ كُلِّ شَيءٍ، لا الصِّفَةُ.

وهذا ـ مع الخَبْطِ ـ مَغْلَطَةٌ أُخْرَى؛ فإنَّ العَمَلَ لا وزْنَ له، من دُوْنِ الصِّفَةِ. ـ ولَكِنَّ هذا أمْرٌ يُخرِجُنا عن فَنِّ البَلاغَةِ إلى عِلْمِ الأخْلاقِ ـ.

وإنّا لَنُحسِنُ الظَّنَّ بِأرِسْطُو، فنَقـولُ: لَعَلَّ كِتابَهُ على الشِّعْرِ بَداهَةُ رَيْعانِ

= انظر: تاريخ ابن الوردي: ١/ ٧٣، والمختصر في أخبار البشر، ص٥٤، ومعجم الفلاسفة لجورج طرابيشي، ص٤٧.

(١) انظر: «فن الشعر» لأرسطوطاليس، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ص٣-٧.

حِكْمَتِهِ. وكان أولَى بنا الصَّفْحُ عن إبْرازِ باطِلِهِ، لولا أنْ رأيْنا أثَرَهُ قد تَغَلْغَلَ في هذه الصِّناعةِ، والنّاسُ أذْعَنوا لهُ فيما مَهَّدَه.

فإنَّه عندنا لأقْرَبُ عُذْراً من عُلمائِنا ـ الَّذينَ كَتَبوا عن البَلاغَةِ ـ بعد ما رأوا إعجازَ القُرآنِ، وعَجائِبَ لُغَةِ العرب.

وظَنّي بِهِ أنَّ الرَّجُلَ لو كان في العَرَبِ، ورأى حُسْنَ كلامِهِم أصابَ الحَقَّ، ولكِنَّه نَظَرَ في كَلامِ قَومِهِ، فبَنَى فَنَّ نَقْدِ الشِّعْرِ حَسْبَ ما وجَدَ في أحْسَنِ كَلامِهِم.

ولَمّا كان جُلُّ أشْعارِ يُونان قَصَصاً وحِكاياتٍ مَكْذُوبَةً، مِثْلَ نَظْمِ هُومِيْرُس، وسُوفُوكْلِيس[1]، وغيرِهِما. فأمْعَنَ فيها، لاستِنباطِ أُصُولِ النَّقْدِ، ومَناطِ المَحاسِن.

وهذا هو الطَّريقُ: فإنَّ المَحاسِنَ تُوجَدُ أوَّلاً، ثُمَّ أهْلُ النَّظَرِ يَستَخرِجونَ منها الأُصُولَ ـ كما أنَّ أُصُولَ الطَّبِيعِيّاتِ تُستَخرَجُ عن آثارِها ـ.

---

(١) سوفوكليس (٤٩٦-٤٠٦ ق.م) مؤلف مسرحي يوناني، شاعر المأساة اليونانية المشهور، وهو ثاني أبرز ثلاثة من كتاب المأساة الإغريق. والآخران هما إيسخيلوس أول الثلاثة، وتلاه يوربيدس. يدور موضوع مسرحيات سوفوكليس حول إنسان قوي في صراع مع القدر. وفي معظم تلك المسرحيات يختار هذا الإنسان نمطاً من السلوك لاتقره الجوقة ولا الشخصيات الثانوية الأخرى، ويتسبب عن هذا السلوك معاناة ذلك الإنسان، وقد يؤدي إلى موته، إلا أن ذلك يجعله أكثر نبلاً وإنسانية، مما حدا بأرسطو إلى القول إن سوفوكليس عرض شخصياته كما يجب أن تكون واعتبر مسرحياته نموذجية. وضع نحواً من ١٢٣ تراجيديا شعرية، لم يصلنا منها غير سبع، أشهر مسرحياته «أوديب ملكاً»، و«أنتيغونا»، و«ألكترا»، وامتازت جميعها ببراعة الحوار، والحبكة الفنية في التركيب، وروعة المقطوعات الغنائية.

انظر: الموسوعة العربية العالمية: ١٣/ ٢٤٨، والرائد ص١٣١، والموسوعة العربية الميسرة: ٢/ ١٠٣٤.

ولكن قَلَّما يَسْلَمُ المَرءُ عن الخطإ في استنباطِ أُصُولِ الآثار، فإنَّ الشَّيءَ المُؤَثِّرَ يَستَجمِعُ عِدَّةَ صِفاتٍ، فالمُستنبِطُ رُبَّما يَتوهَّمُ صفته الغالبَةَ على سائِرِها مَناطَ الأثَرِ الَّذي يَطْلُبُ أصْلَه.

مثلاً: إذا رأى زِنْجِيٌّ أنَّ الإنسانَ أكثرُ عَقْلاً، وأبينُ لِساناً من سائِرِ الحَيَواناتِ، ورأى أنَّ الصِّفَةَ الغالِبَةَ الفارِقَةَ الظّاهِرَةَ، هي سَوادُ جِلْدِهِ وتَعَرِّيهِ من الشَّعْرِ، فتوهَّمَ أنَّ الأسْودَ الأمْلَسَ أكثرُ عَقْلاً وبَياناً من غيرِهِ. فإذا رأى رَجُلاً ـ على غيرِ هذه الصِّفَةِ ـ ظَنَّهُ أشَدَّ النّاسِ بَلادَةً وعِيّاً.

ولا تَستَبعِدْ هذا الأمْرَ من المُلَقَّبينَ بِالحُكَماءِ. ألا تَرى ابنَ سينا[1] كيف غَلَبَ على ظَنِّهِ أنَّ الحَياةَ والقُوى من الحَرارَةِ، وأنَّ النُّضْجَ ـ أشَدَّ ما يَكونُ ـ في الأقاليمِ الحارَّةِ، فأكْمَلُ النّاسِ بِنْيَةً مَنْ يَسكُنُ تَحْتَ خَطِّ الاستِواء.

ولِمِثْلِ هذه التَّوهُّماتِ أمثِلَةٌ لا تُحصى، فإنَّ مَوْقِفَ المُستَنبِطِ لِلأُصُولِ مَوقِفٌ صَعْبٌ، فكَثُرَتْ فيه مَصارِعُ الحُكَماءِ، حَتّى لا يَخْفى على العامَّةِ شِدَّةُ اختِلافِهِم فيما بينهُم. ـ وحَسْبُكَ منه هذا القَدْرُ هاهُنا ـ.

ـ فَلَمّا رأى أرِسطُو أنَّ غالِبَ صِفَةِ الكلامِ المُستَحسَنِ، كَونُهُ قِصَّةً وحِكايَةً عن الوقائِعِ، ثُمَّ رأى أنَّ هذه الحِكاياتِ، رُبَّما لا تُطابِقُ الواقِعاتِ، وبِكَذِبِها لا تَزْدادُ إلّا حُسْناً، غَلَبَ على ظَنِّهِ أنَّ حُسْنَ الكلامِ في كَونِهِ حِكايةً.

---

(١) الرئيس ابن سينا (٣٧٠هـ ـ ٤٢٨هـ) الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي، شرف الملك: الفيلسوف الرئيس، طبيب عربي، يلقب بالشيخ الرئيس، يعتبر من أعظم الفلاسفة المسلمين. وقد تضمن ثبت مؤلفاته الذي نشره في القاهرة سنة ١٩٥٠ الأب قنواتي ٢٧٦ عنواناً، ومن أشهر كتبه «القانون في الطب»، وله شعر جيد، وكتابه «القانون» بقي يدرس في أوربا ستة قرون، وترجمه الفرنج إلى لغاتهم. انظر: معجم الفلاسفة، ص٢٣، والرائد ص١٧، والأعلام للزركلي: ٢ / ٢٤١-٢٤٢.

ثُمَّ التَمَسَ المِثالَ، فَوجَدَ أنَّ التَّصوِيرَ يُستحْسَنُ، وإنْ كان يَحْكِي شَيئاً قَبيحاً.
ثُمَّ أحْكَمَ هذا الرَّأيَ بِالتِماسِ عَلاقَةٍ بينَ الاستِحسانِ والحِكايَةِ، فاعتَصَمَ بِأمْرَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ الإنسانَ حاكِيَةٌ بِالطَّبْعِ أكْثَرَ من سائِرِ الحَيَوان، فهذه الصِّفَةُ أنْسَبُ بِطَبْعِهِ، وأحَبُّها إليهِ.

والثّانِي: أنَّ العِلْمَ مَرْغُوبٌ بِالطَّبْعِ، وحِكايَةُ الشَّيءِ تُخْبِرُ عن المَحْكِيِّ عنهُ، فلذلك هي مَحبُوبَةٌ.

فإذا رَسَخَ هذا الرّأيُ عندهُ، استَقامَ عليه، وتَعَصَّبَ له، ورَدَّ على كُلِّ امرِئٍ رأى خِلافَه.

مثلاً: استَحسَنَ جَوابَ سُوفاكْلِيس ـ حين أخَذوا عليهِ أنَّكَ وصَفْتَ النّاسَ خِلافَ صِفَتِهِم ـ فقال:

«إنِّي وصَفْتُهم كما يَنبَغي، و«يُورابْ دِيس»[1]: وصَفَهُم كما هُمْ عليهِ».

ـ ثُمَّ لَمّا كان جُلُّ أشْعارِهِم للتَّـلَذُّذِ، والتَّـلَهِّي ـ في مَحافِلِ المُسامَرَةِ، ونادِي اللَّهوِ ـ بِحِكاياتٍ مُضْحِكَةٍ، أو مُبْكِيَةٍ ـ لم يَجِدْ لِمَحاسِنِ الأشعارِ غايَةً إلَّا الإطرابَ. فقال:

---

(١) يوربيدس (حوالي ٤٨٠-٤٠٦ ق.م) أحد ثلاثة كتاب تراجيديا من الإغريق، تعامل مع أبطال الأساطير مثلما فعل إيسخيلوس وسوفوكليس، ولكنه أظهر الأبطال أناساً عاديين، واستخدم مسرحياته لانتقاد الأفكار السياسية والاجتماعية والعقائدية في زمانه، واستعمل لغة أبسط من كُتَّاب المسرحيات الأوائل، وكان مقرباً من سقراط الذي أثر في كتاباته. نظم حوالي ٩٢ مسرحية، لم يلاق نجاحاً كبيراً أثناء حياته، لكنه اشتهر بعد موته، من أشهر آثاره: هيلانة، وألكترا.

انظر: الموسوعة العربية العالمية: ٢٧/ ٣٦٦، وموسوعة علماء ومشاهير، لخليل البدوي، ص٩٩-١٠٠، طبع دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٩٩م، والرائد، ص٢٦٦.

«إِنْ يَكُنْ الصِّدْقُ لا يُطْرِبُ، فَيَنْبَغِي لِلشّاعِرِ أنْ يَزِيدَ أو يَنقُصَ».

ولم يَكُنْ في هذا الرّأيِ بِدْعاً في قَوْمِهِ، فإنَّهُ ظَنَّ كما ظَنّوا، فإنَّ اسمَ الشّاعِرِ عندهُم: المُخْتَلِقُ، الَّذي يَصْنَعُ الحِكاياتِ والقِصَصَ، لإطْرابِ السّامِعين.

ـ ولَمّا رأوا أنَّ أرِسْطُو أسَّسَ الأمْرَ على مَهارَةِ الاختِلاقِ، سَبَقَ إلى ظَنِّ بَعْضِهِم، أنَّ أحْسَنَ الشِّعْرِ أكْذَبُه.

وإذْ ليس في أشْعارِ العَرَبِ، من أمْرِ القِصَّةِ، والحِكايَةِ، إلَّا التَّشْبيهُ ظنّوا أنَّ الغُلُوَّ في التَّشبيهِ من المَحاسِنِ، وكما أنَّ المُحاكاةَ صارتْ عَمودَ الزَّجاجَةِ عند أرِسْطُو، فكذلك صار التَّمْثِيلُ والتَّشْبيهُ الَّذي يُشابِهُ القِصَّةَ عندهُم قُطْبَ البَلاغَة.

ثُمَّ إنَّهُمْ وافَقُوهُ في عينِ هذا الرَّأيِ؛ فإنَّهُ قال في عَدِّ مَحاسِنِ الكلامِ:

«إنَّ أعْلى كَمالِ البَلِيغِ أنْ يَكُونَ حاذِقاً في استِعمالِ التَّشبيه».

وقال صاحِبُ «أسْرارِ البَلاغَةِ»:

«كأنَّ جُلَّ مَحاسِنِ الكلامِ ـ إنْ لم نَقُلْ كُلَّها ـ مُتَفَرِّعَةٌ عنها ـ أنواع التشبيهِ ـ وراجِعَةٌ إليها»[1].

فانظر: ما أشْبَهَ اللَّيلَةَ بِالبارِحَة[2].

فدَخَلَ في الكلامِ بِذِكْرِه، وخَرَجَ بِهِ.

---

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، ص٢٧، نشر دار المدني جدة، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

(٢) وردت عبارة: «ما أشبه الليلة بالبارحة» في كلام السلف، والشعراء وكتب الأمثال، وغير ذلك، وقد تمثل به الحسن بن علي رضي الله عنه في بعض كلامه للناس، وهو من بيت أوله:

كلهم أروغ من ثعلب ... ما أشبه الليلة بالبارحة

انظر: مجمع الأمثال للميداني: ٢/ ٢٧٥.

وكان نَتِيجَةَ هذا الرّأي أنَّ المُتـكَلّفين من المُولَّدِينَ عَكَفُوا عليه، فَغابَ عنهُم ما كان لِلعَرَبِ من سِحْرِ الكلامِ وإِعجازِه. ـ والورُودُ عليه ليس الآنَ ببَعِيدٍ عنّا ـ.

ـ ولَجَّ بِهِم التَّسَلُّلُ عن الصِّدْقِ من جِهَةٍ أُخرَى، فإنَّهُم لَمّا وجَدُوا الاستِعارَةَ ألذَّ من التشبيهِ، التَمَسُوا الفَرْقَ بينهُما، فبادَرَ إلى فَهْمِهِم أنَّهُ هو الغُلُوُّ، فإنَّكَ مثلاً إذا قُلْتَ: زَيْدٌ كالأسَدِ، فإنَّما شَبَّهْتَهُ بالأسَدِ. ولكن إذا قُلْتَ: رأيْتُ أسَداً فإنَّكَ جعلْتَهُ عَيْنَ الأسَدِ، فَغَلَبَ على ظَنِّهِم أنَّ الحُسْنَ أمْيَلُ إلى الكَذِبِ. ـ وسَتَعْلَمُ أنَّ العَرَبَ لَهُمْ أُصُولٌ أُخَرُ لِمَحاسِنِ الكَلامِ ـ.

وإنّا لا نُنْكِرُ مَحاسَنَ التَّشبيهِ وأنواعَهُ، ولكِنّا نَجْعَلُهُ مُتَفَرِّعاً عن أصْلٍ غيرِ التَّشبيهِ، وأساسُهُ الصِّدْقُ، خِلافَ ما سَمِعْتَ من مَذْهَبِ أرِسْطُو وأمْثالِهِ، كما نُـبَيِّنُ لك حين نَـكْشِفُ عن أصْلِ البَلاغَةِ.

فبعدما أشَرتُ إليه بالإجمالِ من مَذهَبِهِم، في كُنْهِ مَحاسِنِ الكلامِ وغايَتِهِ، والسَّبِيلِ إليه. لا أراكَ تَرتَضي به.

وكيف يَرتَضي عاقِلٌ: بِأنْ يَصرِفَ هِمَّتَهُ إلى أمْرٍ عِلَّتُهُ التَّـكلُّفُ ـ كالقِرَدَةِ ـ. واسمُهُ الاختِلاقُ، وناصِرُهُ الكَذِبُ، وغَرَضُهُ التَّـلَهِّي

ـ لاسيَّما إنْ كان مِمَّنْ يَعْلَمُ أنَّ البَلاغَةَ من أهمِّ كمالاتِ المُرسَلِين.

ـ ولاسيَّما إنْ كان من الَّذينَ يُؤْمِنونَ بِأنَّها من المُعْجِزاتِ: أعْلاها، وأوْفاها، وأبْقاها.

ـ ولاسيَّما إنْ كان مِمَّنْ قامَ لِدَلالَةِ النّاسِ إلى حَقيقتِها، والإيضاحِ عن أسْرارِها ـ.

فإنْ صَدَقَ ظَنِّي بك ـ وأرْجُوهُ صادِقاً ـ هاجَ بك الشَّوْقُ إلى قَصْدِ السَّبِيلِ بعد الحِيادَةِ عن جائرِهِ.

قَصْدُ السَّبِيْلِ إلى البَلاغَة:

ـ قد سَبَقَ في أوَّلِ الكَلامِ أنَّ الإنسانَ في فِطْرَتِهِ ناطِقٌ، فإنَّ النُّطْقَ هو الفَصلُ المُقَوِّمُ له، لا المُحاكاةُ ـ كما زَعَمَ أرِسْطُو ـ. فإنَّ الإنسانَ ليس من خِلالِهِ المُحاكاةُ ـ كما يُـرَى في بادِي الرّأي ـ. فإنَّهُ لا يُحاكِي أحَداً غيرَ الإنسانِ. فلو كان من طَبعِهِ المُحاكاةُ لَحاكَى كُلَّ مَنْ مَرَّ عَلَيْه.

وأمّا اتِّباعُهُ والِدَيهِ وكُبَراءَ بَيتِهِ فَسائرُ الحَيَواناتِ مِثلُه.

وحَقِيقَةُ الأمرِ أنَّ الطِّفلَ له بِالقُوَّةِ خَصائِلُ الإنسانِ، ورُؤيَتُهُ الفِعْلَ تَبعَثُ فيه القُوَّةَ، فتَخْرُجُ ـ كما أنَّ رُؤيَةَ الضِّحِكِ تُضْحِكُ، ورُؤْيَةَ البُكاءِ تُبْكي، ورُؤْيَةَ الطَّعامِ تَبعَثُ المَيلَ إليه ـ.

وبعِبارَةٍ أُخْرى: إنَّ النُّطقَ مُودَعٌ في فِطْرَتِهِ، وكُلُّ قُوَّةٍ تَلتَمِسُ الوسيلَةَ لِلعَمَلِ. ألا ترى أنَّ القُوى تُلهِمُ استِعمالَها ـ فَمَنْ يُعَلِّمُ النَّمْلَ الطَّيَرانَ إذا نَبَتَ لها الجَناحُ؟ والمَصَّ لِلرَّضِيعِ؟ فهكذا مُحاكاتُهُ لِلصَّوتِ لِيُؤَدِّيَ ما في نَفْسِه ـ.

وإنْ أمْعَنّا في واقِعَةِ الحالِ، حَكَمنا بِأنَّ الطِّفْلَ هو المُعَلِّمُ للِّسانِ لا المُحاكي.

وبَيانُهُ: أنَّ الطِّفْلَ هو الَّذي اخْتَـرَعَ الأسماءَ من قِبَلِ نَفْسِهِ من غَيرِ تَعليمٍ، فإنَّهُ في أوَّلِ الأمْرِ يُعْطي ـ مثلاً ـ لِلماءِ أسْماءً، فيَقُولُ: مَمْ مَمْ، أو بَبْ بَبْ. وكذلك يُعْطي الاسْمَ لِأَبَوَيْهِ: ماما، بابا.

فهو المُبْدِعُ لا المُحاكي، وليس هذا إلَّا لِأنَّ فيه هِمَّةً وجُهْداً لِأداءِ ما يُرِيدُ، فَيُحَرِّكُ الشّفَةَ أوّلاً، ويَلْفِظُ بِالحُرُوفِ الشَّفَوِيَةِ، وأوَّلُ ما يَقْرَعُ صِماخَهُ ليس إلَّا بُكاؤُهُ. وهو أوَّلُ لُغَتِه.

ومِمّا يُرى من أثَرِهِ ـ البكاء ـ على أُمِّهِ عند ألَمِ الجُوعِ والفَزَعِ، يَتَعَلَّمُ مَعناهُ،

ويَستَعمِلُهُ رَفْعاً وخَفْضاً، ونَحيباً وعَوِيلاً، فهذا البُكاءُ يُفَتِّقُ آلاتِ صَوْتِهِ، ويُعَلِّمُهُ جَراثيمَ الحُرُوفِ الحَلْقِيَّةِ، فَيَسْتَعِدُّ لِأداءِ الأصْواتِ الأُخَرِ.

ثُمَّ يأخُذُ لُغَةَ أبويْهِ المَصْنوعَةَ المُبَدَّلَةَ، من اللُّغَةِ الأصليَّةِ الَّتي هي أُمُّ اللُّغاتِ، فَيُؤَدِّي ما في نَفسِهِ بِلُغَةٍ خاصَّةٍ، ولولاها لأدّاهُ على جِهَةٍ أقْرَبَ إلى وضعِ آلاتِهِ.

فإنّا لا نَرى طائِفَةً من الإنسانِ من غيرِ لُغَةٍ، فَمَنْ عَلَّمَهُم غيرُ فِطْرَةِ اللهِ؟. فإنَّ المُحاكاةَ لابُدَّ لها من مُنْتَهَى، وأصلٍ ثابتٍ، كما أنَّ لِكُلِّ فَرعٍ لابُدَّ من أصلٍ، ولِكُلِّ نَظَرِيٍّ من بَدِيْهِيٍّ.

ـ فاعلمْ أنَّ النُّطْقَ زَهْرَةٌ تَخرُجُ من كمالِ الفَهمِ، وصَلاحِ البِنْيَةِ، فليس لِأحَدٍ من الحَيَوانِ فَطانَةٌ كَفَطانَةِ الإنسانِ، ولا لِسانٌ كَلِسانِهِ. فَمَنْ كان أكْمَلَهُم عِلْماً وجِسْماً كان أشْرَفَهُمْ، ولايَخْفى عليك أنَّ اللِّسانَ طَوعُ الفَهْمِ بعد ما سُوِّيَتْ خِلْقَتُهُ، فهو آلَةٌ يَقْبَلُها العَقْلُ.

وهذا الأمْرُ يَهْديكَ إلى أنَّ حُسْنَ النُّطقِ، ليس في الحَقِيقَةِ من جِهَةِ نَغْمَتِهِ ـ كَنَغْمَةِ البُلْبُلِ ـ بل حُسْنُهُ في كونِهِ آلَةً صَحِيحَةً لِلعَقلِ، لكيلا يُقْصِرَ أدْنَى الإقصارِ، عن إفصاحِ ما أرادهُ العَقْلُ، وعن إبلاغِهِ إلَى قَلْبِ السّامِعِ، فالنُّطقُ هو الرَّسُولُ بين العَقلِ والعَقلِ.

فاجعلْ هذا الأمْرَ الفِطْرِيَّ أُمَّ الأمْرِ، وقُطْبَ رَحاهُ، لا المُحاكاةَ. فإنَّها أمْرٌ ثانَوِيٌّ لِتُكتَسَبَ بِهِ وسائِلُ النُّطقِ، فلو لم يَكُنْ النُّطقُ في الإنسانِ لما استَطاعَ المُحاكاةَ.

فإنْ نَظَرْنا من جِهَةِ الحِكمَةِ إلى أسْبابِ الكلامِ، تَبَيَّنَ لَنا أنَّ قُوَّةَ النُّطقِ هو العِلَّةُ الفاعِلِيَّةُ[1].

---

(١) أنواع العلة في البرهان العلمي:

١ ـ العلة الفاعلية، ٢ ـ العلة المادية، ٣ ـ العلة الصورية، ٤ ـ العلة الغائية. =

وأمّا المَعاني، ثمّ الألفاظ، فهما المادّة. فالنّطق يأخذ المعانيَ ويلبسُها ألفاظاً؛ سَواءٌ كانت مِمّا ابتدَعَها، أو مِمّا تَعلّمها الإنسانُ بوسيلةِ المُحاكاةِ.

وأمّا العِلّةُ الغائيّةُ[1] فرِسالةُ العَقلِ، فإنّ الأمْرَ العامّ الّذي يَجْري إليه النُّطقُ ليس غيرَ هذا.

وأمّا اللّذّةُ فليس من غايةِ الكلامِ، بل ما من قُوّةٍ إلّا وفي استِعمالِها لَذّةٌ، كأنّ كُلّ قُوّةٍ بِطَبعِها تَشْتاقُ البُروزَ إلى الفِعلِ.

فالجاهِلُ يَستَعْمِلُ القُوّةَ لِلّذّةِ، والعاقِلُ لِحِكمَتِها، فَحِكمَتُها أحَقُّ باسْمِ الغايَةِ.

وأمّا العِلّةُ الصُّورِيّةُ[2] فَحُسْنُ الكلامِ، فلا يَكُونُ كمالُهُ إلّا من جِهَةِ كمالِ الإبلاغِ؛ فالإبلاغُ هو مِعيارُ حُسنِ الكلامِ.

ـ واعلمْ أنّ حُسْنَ البلاغِ وكمالَهَ، يَحتوي حُسْنَ ما يُبَلِّغُهُ من الصُّورِ، والمَعاني.

وهو أولَى بِاللِّحاظِ، فلا نُقيمُ وزْناً لِكلامٍ أبْلَغَ بِكمالِ الصِّحَةِ شَيئاً خَبيثاً من نَفسٍ مُتَدَنِّسَةٍ.

فالخَرَسُ أحْسَنُ من هذا النُّطقِ ـ وهذا رأيٌ يَستَدعي بَياناً لِصِحَّتِهِ ـ.

فإنّ أبا جعفرٍ ـ قُدامَةَ ـ[3] صاحِبَ نَقْدِ الشِّعْرِ ـ وهو أوّلُ مَنْ جَعَلَهُ فَنّاً من

= فالعلة الفاعلية هي: ما منه الوجود، أو هي الفاعل أو السبب أو مبدأ الحركة مثل الباني للدار، والنجار للسرير، والأب للولد.

(١) العلة الغائية هي: ما له الوجود، أو هي التي لأجلها وجد الشيء. مثل الجلوس للكرسي، والسكنى للبيت.

(٢) العلة الصورية هي ما به الوجود، أو هي التي يحصل بها الشيء بالفعل. مثل هيئة السرير والدار، وصور الجنين التي بها يكون إنساناً، والشجرة فإنها أصل للبذرة، والجنين للنطفة.

(٣) قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج (ت ٣٣٧هـ)، من البلغاء الفصحاء =

العُلُومِ ـ قال قَوْلاً يَضِلُّ بِهِ الغافِلُ ـ وإنْ كان له وجْهٌ صَحِيحٌ ـ فقال:

«ليس فَحاشَةُ المَعنَى في نَفسِهِ، مِمّا يُزِيلُ جودةَ الشِّعرِ فيه، كما لايَعيبُ جَوْدَةَ النِّجارَةِ في الخَشَبِ مثلاً، رَداءَتُهُ في ذاتِهِ»(١).

وقال أيضاً: «إنَّ الشّاعِرَ ليس يُوصَفُ بأنْ يَكُونَ صادِقاً، بل إنَّما يُرادُ مِنهُ إذا أخَذَ في مَعنىً من المَعاني ـ كائناً ما كان ـ أنْ يُجِيدَهُ في وقتِهِ الحاضِرِ»(٢).

فلم يُرِدْ من الشِّعرِ إلَّا شَيئاً نازِلاً، وصِناعَةً دَنِيَّةً ـ كما هو وجَدَ أكْثَرَ المُنتَسِبِينَ إليه ـ وإليهِمُ الإشارةُ في قوله تعالى:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤].

ونحن نَلتَمِسُ مَحاسِنَ الكلامِ، كما يَلِيقُ بِهِ، وكما وضَعَتْهُ الفِطْرَةُ الإلَهِيَّةُ، ويَقتَضِيهِ كمالُ قُوَّةِ النُّطقِ، ويَستَعمِلُهُ الشّاعِرُ، أو الخَطيبُ، الجَديرُ بِهذا الاسمِ.

ـ فاعلَمْ أنَّ الشِّعرَ ليس إلَّا قِسماً من أقسامِ الكلامِ، والكلامُ ليس اسماً لِلجَرْسِ المَحضِ، بل هو شَيءٌ مُرَكَّبٌ من المَعنى والصَّوتِ، والشَّيءُ المُرَكَّبُ يُحْكَمُ بُحُسنِهِ لِحاظاً إلى أصلِ الأمرِ فيه.

مثلاً: إنَّكَ لا تَصِفُ بِالملاحَةِ وجَهَ رَجُلٍ أعوَرَ، أفْطَسَ، إذا وجَدتَ إحدَى

= المتقدمين في علم المنطق والفلسفة، كان في أيام المكتفي بالله العباسي، وأسلم على يده، يضرب به المثل في البلاغة له كتب منها: «نقد الشعر»، و«جواهر الألفاظ» ـ ط، و«السياسة»، و«البلدان»، و«زهر الربيع» في الأخبار والتاريخ، و«نزهة القلوب»، و«الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام». انظر: الفهرست، ص١٨٨، والأعلام للزركلي: ٥/ ١٩١.

(١) انظر: نقد الشعر لقدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، ص٢١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٢٣.

عَيْنَيهِ مَلِيْحَةً، فكذلك الأمرُ في حُسْنِ الكلامِ، نَعَمْ، إنْ شِئْتَ قُلْتَ: إنَّ وزْنَ هذا الشِّعرِ أو صَوتَهُ حَسَنٌ.

ثُمَّ نُؤْزِرُ هذا الرَّأيَ بِأمْرٍ أقرَبَ إلى الكلامِ من جِهةِ الإبلاغِ، وهو أنَّ الكلامَ لا يَبلُغُ قَلبَ العاقِلِ، إلَّا أنْ يَكُونَ مَعناهُ شَرِيفاً، ولا اعتِبارَ لِتأثُّرِ الحَمْقى والأشرارِ، فإنَّنا إنَّما نُعطي الأشياءَ أسْماءً لِحاظاً إلى سَلامةِ الحالِ، وإلَّا لَزِمَكَ أنْ تُسَمِّيَ الكلامَ حَسَناً وقَبيحاً معاً، أو لا تُسمِّيه شَيئاً.

وهذا أمْرٌ يَتَّضِحُ لك كُلَّ الاتِّضاحِ، إذا بَحَثنا عن أسبابِ بُلُوغِ المَعاني القُلُوبَ. فترى أنَّ الألفاظَ، رُبَّما تُصرَفُ عن قَواعِدِها الصَّحيحَةِ العامَّةِ، لِأجلِ المَعنى الَّذي يُبَلِّغُ نَفسَهُ بِقُوَّةٍ فيه، ويَجِدُ الألفاظَ حِجاباً وثِقْلاً عليه، كما أنَّ مَلِكاً جَعَلَ نَفْسَهُ سَفيراً، فالبَليغُ هو المَعنى، واللَّفظُ مَرْكَبُهُ. فالمعنى أجدَرُ بِاللِّحاظِ في حُسْنِ الكلامِ، فذانك بُرهانانِ.

ثُمَّ نُعَزِّزُهُما بِثالِثٍ: وهو أنَّ العَرَبَ لم يَحمَدُوا الكلامَ إلَّا لِحُسنِ مَعناهُ، وليس لَهُمْ نُزُوعٌ إلى قَوْلٍ أدَّى الخُبْثَ، فإنَّهُم يَذُمُّونَهُ، ويَستَحقِرُونَهُ.

كما قال زُهَيْرُ بْنُ أبي سُلْمى[1]:

---

(١) زهير بن أبي سلمى (... ـ ١٣ ق هـ = ... ـ ٦٠٩م) حكيم الشعراء في الجاهلية. وفي أئمة الأدب من يفضله على شعراء العرب كافة. قال ابن الأعرابي: كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره، كان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة. ولد في بلاد (مزينة) بنواحي المدينة، وكان يقيم في الحاجر (من ديار نجد)، واستمر بنوه فيه بعد الاسلام. قيل: كان ينظم القصيدة في شهر، وينقحها ويهذبها في سنة، فكانت قصائده تسمى «الحوليات»، أشهر شعره معلقته التي مطلعها:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

ويقال: إن أبياته التي في آخر هذه القصيدة تشبه كلام الأنبياء. الأعلام للزركلي: ٣/ ٥٢.

وذِيْ نِـعْمَـةٍ تَـمَّمْتَهـا وشَـكَـرْتَها   وخَصْمٍ يَكادُ يَغلِبُ الحَقَّ باطِلُـهْ[١]
دَفَعتَ بِمَعرُوفٍ مِنَ القَوْلِ صائبٍ   إذا ما أَضَـلَّ النّاطِقِيـنَ مَفاصِلُهْ[٢]

(أيْ سَجْعُه وقَوافيه).

وذِي خَطَلٍ في القَوْلِ يَحْسِـبُ أَنَّهُ   مُصِيْبٌ فما يُلْـمِمْ بِـهِ فهو قائِلُهُ[٣]
عَبَـأْتَ لَـهُ حِلْمـاً وأَكْرَمْـتَ غَيْـرَهُ   وأعْرَضْتَ عنهُ وهو بـادٍ مَقاتِلُهُ[٤]

فانظُرْ كيف جَعَلَ مَعروفَ القَولِ صائِبَهُ. وبَيَّنَ أنَّ حُسْنَ القَوافي رُبَّما يُضِلُّ النّاسَ، ولكن بإزاءِ المَعرُوفِ يَضمَحِلُّ رَونَقُهُ، فإذا جاء الحَقُّ زَهَقَ الباطِلُ. ثُمَّ كيف استَحقَرَ مَنْ يَقُولُ كُلَّ ما يَجري على لِسانِهِ، ولم يُرِدْ أَنَّهُما لم يُبْلِغا مَعناهُما، ولكِنَّهُ عَدَّهُ غيرَ صائِبٍ، نُـكْراً[٥]، ذا خَطَلٍ، يَرُدُّهُ القَلْبُ، فهل تَظُنُّ أَنَّهُم يُسَمُّونَ أمثالَهُ بَلِيغاً؟

(١) تممتها: أي: نعمة على غيري، ونعمة عليّ شكرتها. وأراد: ورب ذي نعمة أنعمت بها فتممتها، ونعمة أسديت إليّ فشكرتها، وحذف إحدى النعمتين لدلالة اللفظ عليها.

(٢) قال الأصمعي: إذا لم يصب أحدٌ مَفصِلًا أصبْتَه أنتَ، والفعل للمفاصل هي التي أضلتهم يقول: ورب خصم دفعت بقول معروف. وصائب: قاصد. وقوله: مفاصله، مثَلٌ، يقال للرجل إذا أصاب الفتوى: طَـبَّقَ، والتطبيق: أن يصيب المفصل. يقول: إذا لم يهتدوا لمفاصل الكلام ومقاتله. وجواب الشرط مستفاد من قوله: «دفعت بمعروف إلخ».
انظر: شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ص١٣٩، صنعة الإمام ثعلب أبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني، طبع دار الكتب المصرية، ١٩٤٤م.

(٣) الخطل: كثرة الكلام والخطأ، أي مايحضره من الكلام يقوله من غير تثبت فهو سفيه. مايلمم به: ما يحضره من الكلام يقوله.

(٤) عبأت له حلمي، أي: جمعت له حلمي. ويقال: هيّأتُ له حلماً ولو شئت أصبت مقاتله، وقوله: وأكرمت غيره، يقول: أكرمت نفسي ـ أي بإعراضي عنه، ويحتمل أن يريد: أكرمت بحلمي وعفوي عنه غيره وممن راعيت حقه فيه ـ. وبادٍ مقاتله: ممكنة ظاهرة لي. انظر شرح ديوان زهير، ص١٣٨-١٣٩.

(٥) في الأصل «نكر».

أم تَظُنُّ إنْ رأيْتَ صَخّاباً، يَشْتُمُ أحداً ذاهِباً في كُلِّ مَذْهَبٍ من الاستِعارَةِ، والتَّشبيهِ، ومُصَوِّراً لِكُلِّ أمْرٍ قَبِيْحٍ، فهل تُسَمِّيهِ بَليغاً أو فَصِيحاً؟!.

فهذا يُبَيِّنُ لك أنَّ حُسْنَ الكلام، تابعٌ لِحُسْنِ المعنَى، فلا نُسَمِّي الكلامَ حَسَناً، إلّا بعد أنْ حَسُنَ مَعْناهُ، ولا نَتْرُكُ لِلكَلام فَضيلةً إلّا صِحَّةَ الأداءِ، فإذا أُدِّيَ الكَلامُ من قَلْبِ المُتكَلِّمِ أُدِّيَ حَقُّهُ، ولكِنَّهُ مع ذلك غيرُ بَلِيغٍ إنْ لم يَكُنْ المعنى مِمّا يَبْلُغُ القَلْبَ.

وكَثُرَ في كَلامِ العَرَبِ ذَمُّ الفُحْشِ، والخَنا، والهُجْرِ، والبَذاذَةِ. حَتَّى إذا خُلِطَ شِعْرُهُمْ بِهذه المَساوِئِ، صار ساقِطاً، ألا ترى كيف أمَرَ الحُجْرُ[1] بِقَتْلِ ابْنِهِ امرِئِ القَيْسِ لِقَوْلِ الشِّعْرِ، وسَمّاهُ النّاسُ ضِلِّيلاً، وكيف ذَمُّوا النّابِغَةَ[2] لِمَدْحِهِ المُلوكَ. والعَرَبُ تُحِبُّ مَدْحَ الشّاكِرِ، وذَمَّ السّاخِطِ، وتأنَفُ عن مَدْحِ المُتَذَلِّلِ. ونورِدُ عليك جُمْلَةً من كَلامِهِمْ تَشْهَدُ على صِدْقِ ما سَرَدْتُ لك: قالتْ الخِرْنِق[3] تَرْثي بِشْراً،

---

(١) يقصد: الملك حجر بن الحارث الكندي، والد الشاعر امرئ القيس.

(٢) النابغة الذبياني (... ـ نحو ١٨ ق هـ = ... ـ نحو ٦٠٤م) زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ، فتقصده الشعراء، فتعرض عليه أشعارها. وكان الأعشى وحسّان والخنساء ممن يعرض شعره على النابغة. وكان أبو عمرو بن العلاء يفضله على سائر الشعراء. وهو أحد الأشراف في الجاهلية. وكان حظياً عند النعمان بن المنذر، حتى شبب في قصيدة له بالمتجردة (زوجة النعمان)، فغضب النعمان، ففر النابغة ووفد على الغسانيين بالشام، وغاب زمناً. ثم رضي عنه النعمان، فعاد إليه. شعره كثير، جمع بعضه في «ديوان» صغير ـ ط. وكان أحسن شعراء العرب ديباجة، لا تكلف في شعره ولاحشو، وعاش عمراً طويلاً. انظر: المؤتلف والمختلف، ص٢٥٢، ورجال المعلقات العشر، ص٥٦، والشعر والشعراء لابن قتيبة، ١/ ١٥٦، والأعلام للزركلي: ٣/ ٥٤.

(٣) الخِرْنِق بنت بدر بن هفان بن مالك، (... ـ نحو ٥٠ ق هـ = ... ـ نحو ٥٧٤م) من بني ضبيعة، البكرية العدنانية: شاعرة، من الشهيرات في الجاهلية. وهي أخت طرفة بن العبد لأمه. وفي المؤرخين من يسميها: الخرنق بنت هفان بن مالك. بإسقاط بدر. تزوجها =

ومَنْ قُتِلَ معهُ في يَوْمِ قُلَاب[١].

لا يَبْعَدَنْ قَوْمِي الَّذِينَ هُمُ	سُمُّ العُداةِ وآفَةُ الجُزْرِ[٢]
النّازِلُونَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ	والطَّيِّبُونَ مَعاقِدَ الأُزْرِ[٣]
إنْ يَشْرَبُوا يَهَبُوا وإنْ يَذَرُوا	يَتَواعَظُوا عَنْ مَنْطِقِ الهُجْرِ[٤]
قَوْمٌ إذا رَكِبُوا سَمِعْتَ لَهُمْ	لَغَطاً مِنَ التَّأْيِيهِ والزَّجْرِ[٥]
مِنْ غَيْرِ ما فُحْشٍ يَكُونُ بِهِمْ	في مُنْتَجِ المُهُراتِ والمُهْرِ[٦]

فانظرْ كيف مَدَحَتْ قَوْمَها بالنَّشاطِ للشَّجاعَةِ، والسَّخاوةِ، وبالعِفَّةِ، وبِالفُرُوسِيَّةِ، ثُمَّ لم تَتْرُكْ المَدْحَ إلَّا ذَكَرَتْ أنَّهُمْ مع هذا النَّشاطِ، والأريحِيَّةِ،

= بشر بن عمرو بن مرثد (سيد بني أسد)، وقتله بنو أسد يوم قلاب (من أيام الجاهلية)، فكان أكثر شعرها في رثائه ورثاء من قتل معه من قومها، ورثاء أخيها طرفة. لها «ديوان شعر» صغير ـ ط. انظر: سمط اللآلئ في شرح أمالي القالي ١/ ٥٤٨، ٧٨٠، وخزانة الأدب للبغدادي ٥/ ٤٤، ٥١، ٥٥، والأعلام للزركلي: ٢/ ٣٠٣.

(١) قُلاب: جبل وهو من محلة بني أسد على ليلة، وهو المكان الذي قتل فيه زوج الخرنق بشر ابن عمرو بن مرثد الضُّبَعي، قتله عُمَيْلة الوالبي.
انظر: معجم ما استعجم، للبكري ٣/ ١٠٨٨، بتحقيق مصطفى السقا، طبع عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

(٢) أي: هم لأعدائهم كالسم، وهم آفة الجزر، لأنهم ينحرونها للأضياف.

(٣) تريد هنا أنهم أعفاء الفروج. والأزر: جمع إزار، ويروى: «والنازلين والطيبين».

(٤) أي: إن يذروا الشراب: يعظ بعضهم بعضاً عن أن ينطقوا بالهُجر، وهو المنطق الفاحش، ويروى «يتزاجروا».

(٥) تريد أنهم إذا نُتجت خيلهم فَسَرَوا بها لم يخرجوا إلى فُحْشٍ، والتأييه إذا نَفَر الفرس يقول صاحبه إيه إيه. انظر ديوان الخرنق: ص٤٦.

(٦) تريد أنهم كثير، فإذا ركبوا الأمر، اختلطت أصواتهم. واللغط: الذي لايكاد يفهم. والتأييه: التصويت، يقال: أَيَّهْتُ به: إذا صحت به. والزجر: يعني به زجر الخيل.

بُراَءٌ من مَنْطِقِ الهُجْرِ، والفُحْشِ في القولِ.

فإنْ سَمَّيْتَ تَمامَ الكَذِبِ والهُجْرِ والشَّتْمِ والخَنا بَلاغةً، فإنَّما قد وضَعْتَ من مَنْزِلَةِ هذا الاسْمِ، وما زِدْتَ في العِلْمِ شَيئاً، ثُمَّ يَبْقى عليك أنْ تُعْطِيَ اسْماً لِكَلامٍ كَمُلَ صِدْقاً وعَدْلاً وبَلاغاً وإصابةً.

ولا تَغْفُلْ عن أنَّ الكَلامَ من صِفاتِ رَبِّنا، وأنَّ كَلامَهُ معنا. فإنْ كان مِعْيارُ الكَلامِ أمْراً نازِلاً، غَفَلَ الجُمْهُورُ عن مَعْرِفَةِ أحْسَنِ الكَلامِ، ووزَنوهُ بِمِعيارٍ سافِلٍ، ولَمَسُوهُ بأيدٍ غَيرِ طاهِرَةٍ. فإنْ قَصرَ أحَدٌ نَظَرَهُ على سَفاسِفِ الكَلامِ، فإنَّما نحن نَبْحَثُ عن عَوالِيهِ، الَّتي بِها شَرُفَ الإنسانُ، ولِكُلٍّ وِجْهَةٌ هو مُولِّيها.

ـ وإنِّي وإنْ لم أكُنْ تَبَعاً في هذا الرَّأيِ، فلَسْتُ فيه بِدْعاً، ولِكي يَطْمَئِنَّ بِهِ قَلْبُ مَنْ لا يَعْتَمِدُ على المُبْتَدِعِ، أذْكُرُ من السَّلَفِ رأيَ الجاحِظِ، قال:

«ومَنْ أعارَهُ الله من مَعْرِفَتِهِ نَصِيباً، وأفْرَغَ عليه من مَحَبَّتِهِ ذَنُوباً، حَنَّتْ إليه المعاني، وسَلِسَ له نِظامُ اللَّفْظِ، وكان قد أغْنَى المُستَمِعَ من كَدِّ التَّكَلُّفِ، وأراحَ قارِئَ الكِتابِ من عِلاجِ التَّفَهُّمِ»[1].

فَجَعَلَ مَدارَ البَلاغَةِ نورَ العِلْمِ، وطَهارَةَ القَلْبِ، وهل يَنْشأُ الكَلامُ من غيرِهِما؟ أو يُهْتَدَى للقَولِ الصّائِبِ بِدُونِهِما؟!

وأمّا كَلامُ الحَجّاجِ[2]، والمُتَشَدِّقِينَ من أمْثالِهِ ـ فَعَصَمَكَ الله عن المَكْرِ السَّيِّئِ،

---

(١) البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون: ٢ / ٨.

(٢) الحجَّاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد: (٤٠-٩٥هـ = ٦٦٠-٧١٤م) قائد، داهية، سفاك، خطيب. ولد ونشأ في الطائف (بالحجاز) وانتقل إلى الشام فلحق بروح ابن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير، فزحف إلى الحجاز بجيش كبير، =

فلا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ـ فأيَّ قَلْبٍ حَكِيمٍ، بَلَغَ ذلك الكَلام ولم يمْجّهْ؟ وأيَّ سَمْعٍ سَلِيمٍ قَـرَعَ ذلك القول ولم يَشْمَئِزَّ منه؟!

والكَلامُ أعالِيهِ القرآنُ والزَّبُورُ، وهو الَّذي يُحْيي القُلوبَ، ويُنْمِي الأُمَمَ من الأرْضِ إلى السَّماءِ كما وصَفَهُ القُرآنُ، والإنجِيلُ وعَرَفَتْهُ العَرَبُ:

فقال شاعِرُهُمْ المِقْدامُ ـ عَبِيدُ بنُ الأبْـرَص[1] ـ:

القائِلُ القَوْلَ الَّذي مِثْلُهُ يَمْرَعُ مِنْهُ البَلَدُ الماحِلُ[2]

ولذلك مَدَحوا القَوْلَ الحَسَنَ الصّادِقَ المُصِيْبَ. كما قال طَرَفَةُ[3]:

= وقتل عبد الله وفرق جموعه، فولّاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه، فانصرف إلى بغداد في ثمانية أو تسعة رجال على النجائب، فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة. وبنى مدينة واسط (بين الكوفة والبصرة). وكان سفاكاً سفاحاً باتفاق معظم المؤرخين. انظر: معجم البلدان: ٨/ ٣٨٢، ووفيات الأعيان: ١/ ١٢٣، وسير أعلام النبلاء: ٥/ ١٩٩، والأعلام: ٢/ ١٦٨.

(١) عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدي، (... ـ نحو ٢٥ ق هـ = ... ـ نحو ٦٠٠م): من مضر، أبو زياد، شاعر من دهاة الجاهلية وحكمائها، وهو أحد أصحاب «المجمهرات» المعدودة طبقة ثانية عن المعلقات. عاصر أمرأ القيس، بنوه من أشراف العرب، وإليهم يشير الأعشى بقوله:
«ولست من الكرام بني عبيد» وهم الذين عناهم الأعشى بقوله: «واستكثرن من الكرام بني عبيد» وله معه مناظرات ومناقضات. وعمر طويلاً حتى قتله النعمان بن المنذر وقد وفد عليه في يوم بؤسه. له «ديوان شعر» ـ ط. انظر: المؤتلف والمختلف ص٦١، والشعر والشعراء ١/ ٢٥٩، والأعلام للزركلي: ٤/ ١٨٨.

(٢) يمرع: يخصب، وفي المختارات: ينبت. الماحل: الجدب لانبات فيه، يريد يحيا به البلد المجدب. انظر: ديوان عبيد بن الأبرص: ص١٠٠، تحقيق وشرح دكتور حسين نصار، ط١/ ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م، نشر مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

(٣) طرفة بن العبد (نحو ٨٦-٦٠ ق هـ = نحو ٥٣٨-٥٦٤م) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي، أبو عمرو: شاعر، جاهلي، من الطبقة الأولى. ولد في بادية البحرين، =

وإنَّ أحْسَـنَ بَيْتٍ أنْتَ قـائِلُـهُ ... بَيْتٌ يُقـالُ إذا أنْشَـدْتَهُ صَدَقـا[١]

وهذانِ الشّاعِرانِ ذَكَرا أمْرَيْنِ:

الأوَّلُ: أرادَ قَوْلاً تَصْلُحُ بِهِ أُمُورُ النّاسِ، فنَظَرَ إلى جِهَةٍ أخلاقِيَّةٍ.

والثّانِي: أرادَ قَوْلاً يَقْبَلُهُ القَلْبُ؛ لكونه حَقًّا ناصِعاً، فنَظَرَ إلى جِهَةٍ عَقْلِيَّةٍ.

ثُمَّ نُكَلِّلُ هذا الرَّأيَ بالاستناد إلى القُرآنِ، فإنَّ الله تعالى سَمّى كَلامَهُ بَلِيغاً؛ لكونه يَبلُغُ القَلْبَ، حيث قال:

﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

وحيث قال:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

فاتَّضَحَ أنَّ أبْلَغَ الكَلامِ أبْلَغُهُ في القُلُوبِ، وأهْداهُ إلى العَقْلِ.

= وتنقل في بقاع نجد، واتصل بالملك عمرو بن هند، فجعله في ندمائه، ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر (عامله على البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر، شاباً، في (هجر)، قيل: ابن عشرين عاماً، وقيل: ابن ست وعشرين. أشهر شعره معلقته، ومطلعها: لخولة أطلال ببرقة ثهمد. وجمع المحفوظ من شعره في «ديوان» ـ ط، وكان هَجَّاءً، غير فاحش القول، تفيض الحكمة على لسانه في أكثر شعره. انظر: الشعر والشعراء: ١/ ١٨، وسمط اللآلي في شرح أمالي القالي: ١/ ٣١٩، ورجال المعلقات العشر ص٢٣، والأعلام: ٣/ ٢٢٥.

(١) وقبله:

ولَا أُغِيرُ عَلَى الأشْعارِ أَسْرِقُها ... عَنْهاَ غَنِيتُ وَشَرُّ النّاس مَنْ سَرَقا

ويقصد الشاعر أن من صفاته أنه أمين في الشعر، فلا يسرق أشعار غيره وينسبها لنفسه؛ لأن عنده من القوة الشعرية مايغنيه عن ذلك، ثم يقول: إن أفضل بيت يقوله الشاعر هو ذلك البيت المملوء بالعاطفة القوية الصادقة. ديوان طرفة: ص٢١٦، تحقيق الدكتور علي الجندي، طبع مكتبة الأنجلو المصرية، وديوان طرفة ص١٨٠، بتحقيق درية الخطيب، ولطفي الصقال، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٥م.

ـ وإذْ عَلِمْتَ أنَّ حُسْنَ الكَلامِ ليس في مَحْضِ كَونِهِ مُحاكاةً، بل في إبلاغ المعاني من المُتَكَلِّم، وأنَّ غايَتَهُ ليستْ إطْرابَ السَّامِعِ، بل كَونهُ سَفيراً صادِقاً للعَقْلِ، وأنَّ التَّلَذُّذَ بِها، ليس لِكونِ المُحاكاةِ داخِلَةً في عُنْصُرِ الإنسانِ، بل لأنَّ فيه استِعمالَ أرْفَعِ قُواهُ، وأنْ ليست المُحاكاةُ، بل النُّطْقُ من خَصائِصِ الإنسانِ. وأنَّ الصِّدْقَ يَلْزَمُ المُخْبِرَ؛ فإنْ خالَطَهُ الكَذِبُ حَطَّهُ عن دَرَجَتِهِ، وأنَّ سُوءَ المعنى يَمْحُو عنهُ اسْمَ البَلاغَةِ.

فإذا عَلِمْتَ هذه الأُمُورَ، اتَّضَحَ لك الفَرْقُ بين مَذْهَبِ أرِسْطُو، ومَذْهَبِنا. واتَّضَحَ لك ما في هذا الرَّأيِ من الائتِلافِ والمُناسَبَةِ بين أجْزائِهِ مع شَرَفِ المَكانِ.

ـ أمّا الكَذِبُ الَّذي يُوجَدُ في الشِّعْرِ فليس إلَّا لِغَرَضِ صِحَّةِ التَّمثِيلِ، فإنَّكَ لا تُبَلِّغُ الأمْرَ المُبْهَمَ، فتُعْطِيهِ شَكْلاً وتَشَخُّصاً، فإنْ أعْياكَ الخَبرُ أعْطَيْتَ الشَّكْلَ من قِبَلِ خَيالِكَ، وليس المُرادُ منه إلَّا التَّصْوير.

وهذا هو المَطْلُوبُ من الأمْثالِ وحِكاياتِ العَجْماواتِ، وهو أخُو التشبيهِ. ـ وزِيادَةُ البَيانِ في بابِ التَّخْييلِ ـ وأمّا كَذِبُ المُبالَغَةِ في التَّشبيهِ وغيرِ التَّشبيهِ، فسَتَعْلَمُ أنَّ الشّاعِرَ لا يُخْبِرُ إلَّا عن نَفْسِهِ، بل ليس الخَبَرُ من غايَتِهِ. ـ ونَفْسُهُ من شِدَّةِ الأثَرِ يَرَى الدَّقِيقَ جَلِيلاً، والجَلِيلَ دَقِيقاً، ألا تَرى المَرِيضَ يَشْعُرُ بِطُولِ الزَّمانِ، والزَّمانُ قَصِيرٌ، والمُغْتَبِطُ يَراهُ قَصِيراً، وهو طَوِيلٌ ـ.

وقد لَهِجَ الشُّعَراءُ في ذِكْرِ طُولِ لَيلِ الكَرْبِ، والمُرادُ مَعلُومٌ، ـ إنَّهُ يَذْكُرُ ما يُحِسُّهُ ـ فإن كان كَذِبُ المُبالَغَةِ غيرَ مُتَجاوِزٍ هذا الحَدَّ ـ أيْ: إحْساسَ النَّفْسِ ـ فهي عَيْنُ الصِّدْقِ، فمَنْ لم يَعْلم هذا الأمْرَ لم يُفرِّقْ بين الإحساسِ، والافتِراءِ، فظَنَّ الكَذِبَ من أجْزاءِ الشِّعْرِ. والشِّعْرُ بِناؤُهُ ليس إلَّاعلى الصِّدْقِ.

فإنْ تَبَيَّنْتَ ما سَبَقَ من الكَلامِ، عَلِمْتَ شَرَفَ البَلاغَةِ، لِكونِها يَمِينَ العَقْلِ،

وعُنْصُرَ الإنسانِيَّةِ، وتَرْجُمانَ الصِّدْقِ، وإكْلِيلَ العِزِّ، وشَـمَّرْتَ لاقْتِنائِها، وحَلَلْتَ بِفِنائِها، وتَـيَقَّنْتَ أنَّها حريٌّ أنْ تَـكُونَ مُعْجِزَةً لِنَبيٍّ عَظِيمٍ، أكْبَر من قَلْبِ العَصا حَيَّةً، أو جَعْلِ الجُثَّةِ حَيّاً.

ألم تر البَوْنَ البَعِيْدَ في آثارِها؟

ـ فما عادَتْ أُمَمُ المُعْجِزَتَيْنِ، إلّا عَبِيدَ الصَّلِيبِ والعَصَى.

ـ وهذا القولُ البالغُ ـ القُرآنُ ـ أبْلَغَ حِزْبَهُ من الأرْضِ إلى السَّماواتِ العُلَى.

ولَمّا رَفَضُوهُ حَطَّهُمْ إلى حَضِيْضِ السُّفْلَى.

فإذا عَلِمْتَ لها الحَدَّ، والعِلَّةَ، والغايَةَ، حانَ لَنا الورُودُ على الشِّرْبِ المُحْتَضَرِ بعد طُولِ المُنْـتَظَرِ.

فَصْلٌ في حَدِّ الشِّعْرِ والخَطابَةِ والفَرْقِ بينهُما:

ـ وإذْ إنَّ البَلاغَةَ أوضَحُ وأرْفَعُ في الشِّعْرِ والخُطَبِ أبْتَدِئُ بِذِكْرِهِما، وبَيانِ الفَرْقِ بينهُما.

قال أرِسْطُو:

«إنَّ الشِّعْرَ حِكايَةٌ عن أفْعالِ النّاسِ؛ إمّا معالِيها، أو مَخازِيها».

وأمّا نحن فلا نُفَرِّقُ الشِّعْرَ من الخَطابَةِ من هذه الجِهَةِ، بل قد وجَدْنا الشِّعْرَ والخَطابَةَ شَرِيْكَيْنِ في البَلاغَةِ.

فأيُّما كان مِنْهُما، لا يَكُونُ أحْسَنُهُ إلّا ما كان أبْلَغَهُ، ولكنْ مع ذلك بينهُما فَرْقٌ عَظِيْمٌ.

فإنَّ الفَرْقَ بين الشِّعْرِ وغيرِ الشِّعْرِ، لا يُحْصَرُ في الوزْنِ والقافيةِ، بل للشِّعْرِ

أوصافٌ أُخَرُ، كما أنَّ الخَطِيبَ ليس كُلُّ مَنْ قال: أمّا بَعْدُ.

والآنَ نُبيِنُ وجْهَ الفَرْقِ، ونوجِّهُكَ إلى اسْمَيْهِما عند العَرَبِ، فإنَّهُم أحْذَقُ الأُمَمِ في التَّسْمِيَةِ فَنِعِمّا فَعَلوا، حين سَمَّوا الشّاعِرَ شاعِراً، والخَطِيْبَ خَطِيباً.

فإنَّ الشّاعِرَ يَشْعُرُ بِأمْرٍ فيَهْتاجُ لِلْقَولِ فيَقُولُ، كما أنَّ الضَّحِكَ والبُكاءَ والتَّثاؤُبَ والرَّفةَ[1]، والعَطْسَةَ، أفْعالٌ غالِبَةٌ على النَّفْسِ، فكذلك الشِّعْرُ. وليس هَيَجانُهُ لِلْقَوْلِ إلّا لأنَّهُ أكثرُ النّاسِ شُعُوراً ـ أيْ: إحْساساً نَفسانِيًّا ـ.

فكما أنَّ الجِسْمَ من جِهَةِ إحْساسٍ قاهِرٍ جِسْمانِي، يَصْدُرُ عنهُ التَّثاؤُبُ، والعَطْسَةُ، فكذلك النَّفْسُ تَشْعُرُ بباعِثٍ ما من السُّرُورِ، والحُزْنِ، والرِّضَى، والسُّخْطِ، والعُجْبِ، واليأْسِ، وأمْثالِها، فتَنْطِقُ.

وليس المُرادَ بِأكْثَرَ النّاسِ شُعُوراً، أنَّهُ يَحْزَنُ مثلاً بِأكْثَرَ من سائِرِ النّاسِ، بل إنَّ شُعُورَهُ يَعْمَلُ فيه فيُنَبِّهُ مُتَخَيِّلَهُ، ونُطْقَهُ، وغِناءَهُ، فتَسْتَيْقِظُ فيه هذه القُوى.

وأمّا غيرُهُ فَشُعُورُهُ جامِدٌ خامِدٌ. فكأنَّ الشّاعِرَ نَباتٌ حَيٌّ، إذا سَقَيْتَ أصْلَهُ ذَهَبَ الماءُ في كُلِّ عِرْقٍ مِنْهُ، فاهْتَزَّ. فكذلك الشّاعِرُ يَدِبُّ الإحْساسُ في جَمِيعِ مَشاعِرِهِ، فيَفيضُ مِنْهُ الكَلامُ، كما قال عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُثْمانَ[2] حِينَ قِيل له:

«كيف تَقُولُ الشِّعْرَ مع النُّسُكِ والفِقْهِ»؟!

---

(١) الرّفة: رفت العين أو الحاجب: اضطربت وتحركت بخير أو شر. المعجم الوسيط مادة: (رفّ).

(٢) عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي المعروف بالمُطرَف لحسنه، روى عن أبيه وأمه فاطمة بنت الحسين ورافع بن خديج وابن عباس والحسن بن علي وجماعة، وروى عنه ابنه محمد ـ المعروف بالديباج ـ والزهري وآخرون، وثقه النسائي، وكان شريفاً جواداً ممدَّحاً، مات بمصر سنة ٩٦هـ. انظر: إسعاف المبطأ برجال الموطأ، لعبد الرحمن ابن أبي بكر أبي الفضل السيوطي، ص١٧، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

فقال: «إنَّ المَصْدُورَ لا يَمْلِكُ أنْ يَنْفُثَ»[١].

وقيل لِصُحارٍ العَبْدِيِّ[٢]:

«ما هذا الكَلامُ الَّذي يَظْهَرُ مِنْكَ»؟

قال: «شَيءٌ تَجِيْشُ بِهِ صُدُورُنا، فتَقْذِفُهُ على ألسِنَتِنا»[٣].

فأمّا الخَطِيْبُ فليس هو بِأقَلّ شُعُوراً من الشّاعِرِ، ولكِنَّهُ فارَقَ الشّاعِرَ في أنَّهُ غالِبٌ على شُعُورِهِ، فليس حالُهُ كالمَصْدُورِ، والمُتَثائِبِ المَقْهُورِ، ولكِنَّهُ قاهِرٌ على نَفْسِهِ، ومُنْغَمِسٌ في المُخاطَبِينَ، فهَمُّهُ التّأثِيرُ في غيرِهِ، كما أنَّ الشّاعِرَ

---

(١) ويروى: «لابد للمصدور أن ينفث». وقد ذكر «المصدور» أبو زبيد الطائي في صفة الأسد، فقال:

للصَّدرِ منه عويلٌ فيه حَشْرَجَةٌ ... كأنَّما هو من أحشاءِ مَصْدُورِ.

البيان والتبيين: ١/ ٣٥٧، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، بتحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط٢، نشر مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٦٠م.

(٢) القائل هو معاوية بن أبي سفيان. وصُحار بن عيّاش (أو عباس) بن شراحيل بن منقذ العبدي، من بني عبد القيس، خطيب مفوّه، كان من شيعة عثمان، له صحبة، وأخبار حسنة، وهو أحد النسّابين، وله مع دغفل النسّابة محاورات، وكان ممن شهدوا فتح مصر، ولما قتل عثمان قام صحار يطالب بدمه، وشهد صفين مع معاوية، وسكن البصرة، ومات فيها نحو ٤٠هـ. انظر: الاستيعاب ١/ ٢٢١، والأعلام للزركلي: ٣/ ٢٠١.

(٣) تتمة القصة: فقال له رجل من عُرْض القَوم: يا أمير المؤمنين، هؤلاء بالبُسْر والرُّطَب، أبصرُ منهم بالخُطَب. فقال له صُحار: أجل والله، إنا لنعلم إنّ الريح لَتُلْقِحُه، وإن البرد لَيعقِدُه، وإن القمر ليصبِغُهُ، وإن الحرّ ليُنْضِجهُ. وقال له معاوية: ماتعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ، فقال له معاوية: أوكذلك ياصحار؟ قال صحار: أقلني يا أمير المؤمنين، ألّا تبطئ ولا تخطئ. البيان والتبيين: ١/ ٩٦.

لا هَمَّ له إِلَّا الانْقِيادُ لِقُوىً تَعْمَلُ فيه.

فالخَطِيْبُ لا يُفارِقُ الشّاعِرَ في الهَيَجانِ، ولا قِلَّةِ الشُّعُورِ، ولَكِنَّهُ بزِيادَةِ صِفَةٍ عالِيَةٍ اسْتَحَقَّ هذا الاسْمَ، فالشّاعِرُ مُلْتَفِتٌ إلى الماضِي، والخَطِيْبُ يَنْظُرُ إلى المُسْتَقْبَلِ.

فالخَطِيْبُ أَرْفَعُ مَنْزِلَةً؛ لِغَرَضِهِ الأعْلَى، وأقْوى عَقْلاً، وأَشَدُّ قُوَّةً، وأذْكَى نَفْساً، كما أنَّ الشّاعِرَ أغَنُّ طَبْعاً، وأرَقُّ فِطْرَةً.

ولذلك مَنْ نَظَرَ في كَلامِ الخَطِيْبِ، وهَيَجانِ قَلْبِهِ، ولم يُؤمِنْ بِعُلُوِّ غَرَضِهِ، وطَهارَةِ نَفْسِهِ، وصِحَّةِ رأْيِهِ، لم يَفْرُقْهُ من الشّاعِرِ، بل لِتَصْوِيْرِهِ البَعِيْدَ المُنْتَظَرَ، الَّذي لا يَراهُ غيرُهُ، يَظَنُّهُ مَجْنوناً.

ولذلك ترى العَرَبَ، وصَفُوا الخُطْبَةَ بِالحِكْمَةِ، والبَيانِ، والفَصْلِ، كما أَنَّهُم وصَفُوا الشِّعْرَ بِالسِّحْرِ.

فالشِّعْرُ لِخُرُوجِهِ من رِقَّةِ الطَّبْعِ، وجِهَةِ النَّفْسِ، يَمَسُّ النَّفْسَ.

والخُطْبَةُ لِخُرُوجِها من صَفاءِ العَقْلِ، وجِهَةِ البَصِيرَةِ، تَمَسُّ العَقْلَ، فكان أَثَرُ الشِّعْرِ مُشابِهاً لِلسِّحْرِ، وأَثَرُ الخُطْبَةِ لِنورِ العَقْلِ.

ثُمَّ لَمّا كان الشِّعْرُ أَنْسَبَ لِلوزْنِ، لِعِلَّةٍ سَتَعْلَمُها، صار الوزْنُ من الصِّفاتِ الظّاهِرَةِ للشِّعْرِ.

فإِنْ صَدَرَ كَلامٌ من جِهَةِ العَقْلِ، في لِباسِ الوزْنِ، فهو في الحَقِيقَةِ أعلى وأَرْفَعُ من الشِّعْرِ.

وكذلك إِنْ صَدَرَتْ خُطْبَةٌ من جِهَةٍ نَفْسانِيَّةٍ، فهي أَقْرَبُ إلى الشِّعْرِ، والإِنْسانُ

يُعْطِي خَصائِصَ بَعْضِ الشَّيءِ لِغيرِهِ، وهُم كانوا يَتَعَجَّبُونَ إذا وجَدُوا في الشِّعْرِ حِكْمَةً، وفي البَيانِ سِحْراً.

ثُمَّ من الشِّعْرِ ما يَنْبَعِثُ من مَنْبَعِ الرُّوحِ، فإِنَّ الرُّوحَ أَشْبَهُ بِالنَّفْسِ في الاشْتِعالِ، وهذا الشِّعْرُ أَرْفعُ من الخُطْبَةِ، فإِنَّ طَهارَةَ الفِطْرَةِ، وعُلُوَّ الغَرَضِ، بل عُلوّاً من الغَرَضِ، يَرْفعُهُ على آثارِ العَقْلِ، ولَكِنَّ هذا الشِّعْرَ، لا يَحْتاجُ إلى الوزْنِ، ولَكِنَّهُ إِنْ زُوِّجَ بِالوزْنِ والنَّغْمَةِ، عَلِقَ بِالرُّوحِ، وأذابَهُ فسالَ معهُ.

وعَدَمُ التَّمْييزِ بين الشّاعِرِ، والخَطِيبِ، أوقَعَ بَعْضَ النّاسِ من جِهَةٍ أُخْرَى في الالتِباسِ.

فإِنَّهُمْ ظَنّوا أنَّ الشِّعْرَ هو كَلامٌ ذُوْ مَجازٍ وتَشبيهٍ، فاشتَبَهَ عليهم كَلامُ الحُكَماءِ بِالشِّعرِ، مِثْلُ: وعْظِ عِيْسَى عليه السَّلام، فإِنَّهُ مَلآنٌ مِنَ الأمْثالِ والتَّشْبِيْهاتِ.

فنُرِيدُ أَنْ نُفَصِّلَ قَوْلَنا:

«إِنَّ الشّاعِرَ أغَنُّ طَبْعاً، وأرَقُّ فِطْرَةً»:

فعَنينا بِهِ، أنَّ الشّاعِرَ يَتأَثَّرُ بِأمْرٍ، فيُهِيْجُ فيه الوزْنَ، والنَّغْمَةَ، والرَّقْصَ، فما من شاعِرٍ إِلّا فيه عِرْقٌ من هذه الانبِعاثاتِ. ألا ترى داودَ عليه السَّلام كيف رَقَصَ حين امْتَلأ من الشُّكْرِ، وكَلامُهُ كُلُّهُ شِعْرٌ فائِضٌ عن قَلْبِهِ المُهْتاجِ.

فأمّا عِيْسَى عليه السَّلام فكان أقْوى عَقْلاً، كما أنَّ داودَ عليه السَّلام كان أرَقَّ فِطْرَةً، فصوَّرَ الحِكَمَ من غيرِ أنْ تَقْهَرَهُ سَكَراتُ الشِّعْرِ.

وإِنَّما سَلكْنا العَرُوضَ، والنَّغْمَةَ، والرَّقْصَ، في سِلْكٍ واحِدٍ، فإِنها في الحَقِيْقَةِ كذلك، وهذا أيضاً مِمّا خَفي كُنْهُهُ على أرِسْطُو، فإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ شاعِراً فلم يَدْرِ ما لم يَذُقْ.

فزَعَمَ كما زَعَمَ في أمْرِ الشِّعْرِ، أنَّ النَّغْمَةَ، والرَّقْصَ، مُحاكاةٌ؛ لأنَّ فيهما إظهاراً لِوارِداتِ النَّفسِ، والأحوالِ، والأعمالِ.

وإنَّما قال ذلك، لأنَّهُ رأى المُغَنِّينَ، والرَّقّاصَةَ، يُظْهِرُونَ ـ بالغِناءِ والرَّقْصِ ـ من جِهَةِ أثْرِ الأوَّلِ وإشاراتِ الثّاني ـ أحْوالَ النَّفْسِ، وأفْعالَ النّاسِ، فمَرَّ بِأمْرٍ لَوْ تأمَّلَ فيه، أو كان له من الوِجْدانِ كَوِجْدانِ الشّاعِرِ، عَلِمَ أنَّ هَذِهِ الأمُورَ لم تُسْتَعْمَلْ لِلْمُحاكاةِ، وإظْهارِ ما تُظْهِرُهُ، إلَّا لأنَّها نَتائِجُ من أحْوالِ النَّفْسِ.

مثلاً: التَّأوُهُ لا يُظْهِرُ الحُزْنَ، والتَّبَسُّمُ لا يُظْهِرُ المَسَرَّةَ، إلَّا لأنَّ النَّفْسَ تَفْهَمُ هذه الإشاراتِ؛ لِما أنَّها تَبْعَثُ فيها حالَةً خاصَّةً.

فالغِناءُ، والرَّقْصُ، والوزْنُ، أُمُورٌ تَنْشأُ في نَفْسِ مَنْ رَقَّتْ فِطْرَتُهُ، ولِما أنَّها نَتِيجَةٌ لِحالَةٍ نَفْسانِيَّةٍ، تَبْعَثُ في مَنْ ظَهَرَتْ عليه تلك الحالَةَ، ونُبَيِّنُهُ بَعْضَ التَّبْيين:

إنَّ الفرَحَ، والحُزْنَ، والخَوْفَ، والتَّعَجُّبَ، والشَّوْقَ، والنُّفْرَةَ، مع أخَواتِها، وأصْنافِها، تَبْعَثُ حَرَكَةً في القَلْبِ، وشِدَّةُ الحَرَكَةِ تَفيضُ، وتَخرُجُ، فتَنْقَلِبُ صَوْتاً، أو غِناءً، أو رَقْصاً، أو تَمَلْمُلاً.

وإذْ هِيَ آثارٌ لِحَرَكاتِ القَلْبِ، على نَوْعٍ خاصٍّ، يُشابِهُ كُلُّ أثَرٍ باعِثَهُ.

فمَنْ أُدِّيَ إليه أثَرٌ من هذه الآثارِ، صار مُشابِهاً لِصاحِبِ الأثَرِ، في حَرَكَةِ القَلْبِ، كأنَّ حَرَكَةَ قَلْبٍ، انْتَقَلَتْ إلى قَلْبٍ، بِوسِيْلَةِ الحَواس.

فالضَّحِكُ مثلاً: ليس إلَّا حَرَكَةً في قَلْبِ الضّاحِكِ، قد خَرَجَتْ، ثُمَّ انْتَقَلَتْ إلى السّامِعِ، ثُمَّ بَلَغَتْ قَلْبَهُ فحَرَّكَتْهُ، ثُمَّ خَرَجَتْ مِنْهُ، فتَشابَهَتْ الحَرَكَتانِ في النَّفْسِ، كما تَشابَهَتا في الخارِجِ، وهذا أصْلُ التَّفاهُمِ بين الحَيَواناتِ على قَدْرِ تَفَتُّقِ حَواسِّها.

فكما أنَّ النُّطْقَ أمْرٌ فِطْرِيٌّ. فكذلك هذه الإشاراتُ أُمُورٌ فِطْرِيةٌ، ودَلالَتُها

لِتَشابُهِ النُّـفُوسِ، ومُوافَقَةِ العِلَّةِ بِالمَعْلُولِ، وهذا هو أَصْلُ النُّطْقِ.

ولو كان لِسائِرِ الحَيَواناتِ إِحْساسٌ كما لِلإِنْسانِ، لَنَطَقُوا، ولكن ليس فيهم إِلَّا بَعْضُ الحِسِّ، كما قَدَّمْتُ ـ أَنَّ النُّطْقَ زَهْرَةٌ تَخْرُجُ من كمالِ الفَهْمِ، وصَلاحِ البِنْـيَةِ ـ ولولا اضْطِـرِّرْنا لَطَوَيْنا الكَلامَ عن هذه المَسْأَلَةِ، فإِنَّ اسْتِقْصاءَ البَحْثِ يُبْعِدُنا عَمّا نحن بِصَدَدِهِ، ولكِنْ تَرْكُ القولِ قَبْلَ الإِيْضاحِ ظُلْمٌ على المَسْأَلَةِ.

الفَرْقُ بين الشِّعْرِ والنَّـثْرِ البَلِيغ:

وإِذْ قد جَر بنا الكَلامُ إلى هذا المَقامِ، لا نَتْرُكُهُ من غيرِ استنتاجِ بَعْضِ أُمُورٍ، أَخْطأَ فيه مَنْ يُوشِكُ أَنْ يُقَلِّدَهُم النّاسُ:

ـ فمنها عَدَمُ التَّمْييزِ بين الشِّعْرِ والنَّـثْرِ البَلِيْغِ، فأَوَّلُ مَنْ أَخْطأَ فيه أَرِسْطُو، وآخِرُ مَنْ عَلِمْنا اسْمَهُ جانْ مِلْ[1] . والأَوَّلُ: أَشْنَعُ قَوْلًا فإِنَّهُ ظَنَّ أَنَّ لِلمُحاكاةِ طُرُقاً شَتَّى. وفي الكلامِ: وسِيْلَةُ المُحاكاةِ ثَلاثٌ: وزْنٌ، وألفاظٌ، ونَغْمَةٌ، فهذه تُحاكِينا فُرادَى ومَثْنَى وبِأَجْمَعِها.

ثُمَّ ظَنَّ أَنَّ المُحاكاةَ هِيَ الشِّعْرُ، ومُحاكاةُ معالِي الأُمُوْرِ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى إِبُوبِيهِ (EPOPEE)[2] ـ القِسْمُ الَّذي اخْتارَهُ هومِرُوسْ ـ فقال:

---

(١) جون ستيوارت ميل (١٨٠٦-١٨٧٣م) فيلسوف واقتصادي بريطاني، ولد في لندن عام ١٨٠٦م، زاول كتابة المقالات والنقد، وحمل عبء الحركة النفعية على كاهله، وكانت مقالاته مصدر شهرة واسعة له، مما جعله خبيراً في الشؤون العامة. نشر العديد من المقالات والكتب، تناول فيها بالبحث قضايا فلسفية وسياسية واقتصادية، فلسفته قائمة على مفهوم المنفعة، توفي عام ١٨٧٣م.

انظر: معجم الفلاسفة المختصر، ص٢٢٩، د. خلف الجراد، طبع المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

(٢) EPOPEE: معناها ملحمة.

إنَّ إبُوبيهِ تُحاكِي بوسِيْلَةِ الألفاظِ وحْدَها، كَمُكالَمَةِ سُقْراط[١]، أو بِوسِيْلَةِ الألفاظِ مع النَّظْمِ، كَنَظْمِ فُلانٍ وفُلانٍ. ثُمَّ قال:

«إنَّ العادَةَ علَّقَتِ الوزْنَ بالشِّعْرِ، ولَكِنَّ الَّذينَ نَظَمُوا كُتُباً في الطِّبِّ، أولَى باسْمِ الطَّبِيْبِ مِنْهُم باسْمِ الشَّاعِرِ».

وإنَّهُ أصابَ فيما قال إنَّ مُجَرَّدَ الوزْنِ لا يُتِمُّ الشِّعْرَ، ولَكنَّ العِلَّةَ ليستْ أنَّ الوزْنَ ليس من أجْزاءِ الشِّعْرِ، بل لأنَّ الكُلَّ لا يُوجَدُ بِمُجَرَّدِ أنْ يُوجَدَ منه جُزْءٌ. فجَعَلَ كَلامَ هُومِرُوسْ، وسُقْراط، شَيئاً واحِداً، وزَعَمَ عَلاقَةَ الوزْنِ بالشِّعْرِ نَشأتْ من العادَةِ.

وأمّا «جانْ مِلْ» فقارَبَ الإصابَةَ فيما فَهِمَ أنَّ الشِّعْرَ هَيَجانٌ، والشّاعِرُ يُخاطِبُ نَفْسَهُ، فأمِنَ بِهذا الظَّنِّ تَخْليطاً بين الشّاعِرِ، والخَطِيْبِ، أو الحَكِيم، فلا يَكادُ يَعُدُّ كَلامَ سُقْراط من الشِّعْرِ، ولَكِنَّهُ أوضَحُ قَوْلاً من أرِسْطُو، بِأنَّ الوزْنَ أمْرٌ زائِدٌ على الشِّعْرِ.

---

(١) سقراط (٤٦٩-٣٩٩ ق.م) فيلسوف ومعلم يوناني جعلت منه حياته وآراؤه وطريقة موته الشجاعة أحد أشهر الشخصيات التي نالت الإعجاب في التاريخ. صرف سقراط حياته تمامًا للبحث عن الحقيقة والخير. لم يترك أية مؤلفات، وقد عُرِفت معظم المعلومات عن حياته وتعاليمه من تلميذيه المؤرخ زينفون والفيلسوف أفلاطون، بالإضافة إلى ما كتبه عنه أريسطوفانيس وأرسطو. وُلد سقراط وعاش في أثينا.. وكان سقراط يعلم الناس في الشوارع والأسواق والملاعب. قُدّمَ سقراط للمحاكمة وُوجهت إليه تهمة إفساد الشباب والإساءة إلى التقاليد الدينية. وكان سقراط يؤمن بأن الأسلوب السليم لاكتشاف الخصائص العامة هو الطريقة الاستقرائية المسماة بالجدلية؛ أي: مناقشة الحقائق الخاصة للوصول إلى فكرة عامة. وقد أخذت هذه العملية شكل الحوار الجدلي الذي عرف فيما بعد باسم الطريقة السقراطية.

انظر: الموسوعة العربية العالمية: ١٢/ ٣٤٧.

وإذْ قد تَبيَّنْتَ مَقامَ الخطأ، تأمَّلْ فيما مَهَّدْنا من أنَّ الحَرَكَةَ النَّفسانيَّةَ تَسْتَولِي عليها[١] وتَلْتَمِسُ الخُرُوجَ من طُرُقِ النُّطْقِ، فإنَّ الإنسانَ صِفَتُهُ الغالِبَةُ هو النُّطْقُ، ألا ترى أنَّ تَحْنانَ الحَيَواناتِ، وأصْواتَ الغَضَبِ، والمُناغاةَ، آثارٌ لتلك الحَرَكَةِ.

ثُمَّ هَيَجانُ القُوَّةِ يَنْقَلِبُ في الإشاراتِ المَوْزُونَةِ، إنْ كان التَّخَيُّلُ أمْراً مَوْزُوناً، فتَرَى رَقْصَ الطّاووسِ، والحَمامِ، واهْتِزازاً مَوْزُوناً من الحَيَّةِ عند سَماعِ النَّغْمَةِ، فَمَنْ أُوتِيَ نُطْقاً ورِقَّةً وغِناءً يَخرُجُ منه الشِّعْرُ والتَّـرَنُّمُ، وإنْ زَفَّهُ الأثَـرُ رُبَّما رَقَصَ.

فالشِّعْرُ لا يَتَجَرَّدُ عن الوزْنِ، والنَّغْمَةِ، والرَّقْصِ، ولَكِنَّ الوزْنَ يُحْتَمَلُ فيَبْقَى بالكلامِ، فأمّا النَّغْمَةُ فلا يَحْتَمِلُها الكَلامُ إلّا قَليلاً، والرَّقْصُ أمْرٌ على نِهايَةِ الإحْساسِ ـ حَتَّى يُخْرِجَ المَرءَ عن وقارِهِ ـ والكَلامُ لا يَحْتَمِلُهُ، فَبَقِيَ من آثارِ حَرَكاتِ النَّفْسِ بالكلامِ قَدْرٌ مُمْكِنٌ، وتُرِكَ ما لم يُمْكِنْ، ولم يلتزمه؛ فإنَّ كمالَ الشيءِ ليس مِمّا يَصْحَبُهُ في كُلِّ حالٍ.

ألا ترى العَقْلَ من مُقَوِّماتِ الإنْسانِ، ولَكِنَّ كمالَ العَقْلِ لا يلتزمه، وكذلك البَلاغَةُ كمالُ النُّطْقِ، ولَكِنَّها لا تُوجَدُ في كُلِّ ناطِقٍ، فكذلك النَّغْمَةُ لا تُوجَدُ مع كُلِّ شاعِرٍ، ولكن مع ذلك لا يُوجَدُ الشِّعْرُ خالِياً عن النَّغْمَةِ كُلَّ الخُلُوِّ، فإنّا لا نَتَصَوَّرُ شاعِراً لا يَتَـرَنَّمُ ـ والعَرَبُ لاتَعْرِفُ الشِّعْرَ بِغيرِ الإنْشادِ ـ والوزْنُ طَرَفٌ من النَّغْمَةِ ـ.

فإذا تَبيَّنْتَ عَلاقَةَ الشِّعْرِ بالوزْنِ، ثُمَّ بِالنَّغْمَةِ، ثُمَّ بِالرَّقْصِ، وعَلِمْتَ أنَّها أُمُورٌ ناشِئَةٌ من مَنْبِتٍ واحِدٍ، لم تُفَرِّقْ بينها، ثُمَّ عَلِمْتَ أنَّ الوزْنَ أشَدُّ ائتِلافاً من الأُخْرَيَيْنِ، والعادَةُ شَهِدَتْ من القَدِيمِ، أنَّ النّاسَ لم يُجَرِّدوا الشِّعْرَ من الوزْنِ، بل من النَّغْمَةِ، فَمَنْ ظَنَّ أنَّ مُكالَمَةَ سُقْراطٍ، من جِنْسِ الشِّعْرِ، لم يَعْرِفْ من كُنْهِ الشِّعْرِ

---

(١) «عليها»: يعني على النفس.

إِلَّا المُحاكاةَ، ومَنْ ظَنَّ أَنَّ الوزْنَ ليس من الشِّعْرِ، لم يَعْرِفْ من أَصْلِ حَقِيْقَةِ الشِّعْرِ إِلَّا طَرَفاً واحِداً، وهو الهَيَجانُ المفيض إلى النُّطْقِ.

وهذا الَّذي قَدَّمْتُ هو حالُ المَطْبُوعِينَ من الشُّعَراءِ، والخُطَباءِ، فأمّا المُتَصَنِّعُونَ ـ وهُم الأكْثَرونَ ـ فهُمْ تابِعَةٌ لَهُمْ وعِيالٌ عليهم، فبِحَسَبِ ما أَحْسَنوا التَّتَبُّعَ، أَحْسَنوا العَمَلَ، وبَيانُ حالِ المُتَصَنِّعينَ يَسْتَدْعِي تَفْصِيلاً، وذلك الَّذي يُهِمُّنا ويَعْنِينا، فإِنَّ الصِّناعَةَ وُضِعَتْ لَهُمْ، كما أَنَّها أُخِذَتْ من المَطْبُوعِيْنَ. فإِنَّ المَطْبُوعينَ كالمَلِكِ المُخْتارِ؛ تَدُورُ الصِّناعَةُ معهُم حيثما دارُوا، والمُتَصَنِّعُونَ كالرَّعِيَةِ؛ يُطِيْعُونَ قَوانِينَ الصِّناعَةِ، ألا ترى في أَمْرِ اللِّسانِ والعَرُوضِ: لا تَسْلَمُ لك قاعِدَةٌ إِلَّا وهُم يَضْطَرُّونَكَ إلى الاسْتِثْناءِ.

ثُمَّ لا تُبَدِّلُ أوْهَنَ قَواعِدِكَ لِغيرِهِم، ولكن مع ذلك إِنْ فازَ سَهْمُ الصِّناعَةِ، واسْتَقَرَّ أَمْرُها على حَقِيْقَةِ العِلْمِ، جَعَلْناهُ حاكِماً، ورَجَعْنا إليها.

فالآنَ نُبَيِّنُ الفَرْقَ بين المَطْبُوعِيْنَ والمُتَصَنِّعينَ، ونُبَيِّنُ دَرَجاتِهِم.

فاعلمْ أَنَّ المُتَصَنِّعَ لا يَكُونُ أَجْنَبِيًّا من إِحْساسِ البَلاغَةِ، وإِلَّا لم يَكُنْ حَيّاً ناطِقاً، ولَكِنَّهُ ضَعِيفٌ، فيَتَّبِعُ القَوِيَّ المُضْطَلِعَ، ويُحاكِيهِ بَعْضَ المُحاكاةِ، فأَحْسَنُهُم مَنْ كان أَقْرَبَهُم مُحاكاةً.

فإِنْ قُلْتَ: إِنَّ لِبَعْضِ المُتَكَلِّفينَ، من المُتَخَيِّلَةِ، والعَقْلِ، والبَصِيْرَةِ بِصِناعَةِ الكلامِ، مابِهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يأتِيَ بِأَحْسَنَ مِمّا يُرتَجَى من المَطْبُوعِ اللَّسِنِ، ولولا ذلك لَما خَدَعَ زُخْرُفُ القَولِ أَحَداً في النّاسِ.

قُلْتُ: ألا ترى أَنَّ الجاهِلَ يَحْسَبُ الزُّجاجَ جَوْهَراً، ولكِنَّ ـ مع ذلك ـ بينهُما فَرْقاً عند البَصِيرِ، أَوَتَظُنُّ أَنَّ زُخْرُفَ القَولِ يَخْدَعُ كُلَّ أَحَدٍ؟!

فإنْ قُلْتَ: إنَّ الكَلامَ شَيءٌ مَصْنوعٌ، فَسَواءٌ حالُهُ أصَنَعَهُ صاحِبُ القولِ أم غيرُهُ، ألا ترى النّاسَ مُتَخالِفينَ في أصْواتِهِم، ومع ذلك تَجِدُ مَنْ يُحاكِي عن رجل، فلا تَعْلَمُ واحِداً من الآخرِ، بل رُبَّما يَبْلُغُ المُحاكِي كمالاً يَسْبِقُ بِهِ المحكي عنه.

ـ كما نَقَلَ الجاحِظُ أنَّ بَعْضَ الحاكِيَةِ، كان يُحاكِي صَوْتَ الحِمارِ، فإذا نَهَقَ، نَهَقَ بِهِ كُلُّ حِمارٍ، حَتَّى الَّذي لم يَكُنْ يَبْعَثُهُ نُهاقٌ، فكأن الرَّجُلَ جَمَعَ من النَّهِيقِ كُلَّ طُرفة، وجَعَلَها في نَهِيقٍ واحِدٍ، فاشْتَدَّ أثَـرُهُ[1] ـ.

قُلْتُ: أجْدِرْ بِالحِمارِ أنْ يَنْخَدِعَ ـ ورُبَّما يَنْخَدِعُ المَرْءُ السَّلِيمُ، لِحُسْنِ ظَنِّهِ بِالنّاسِ وغَرارَتِهِ ـ.

ولكِنّا قد بينَّا أنَّ النُّطْقَ أمْرٌ فِطْرِيٌّ لِلإنْسانِ، فيَنْشأُ منه كما تَنْشأُ جَذَباتُهُ، فلا كَلامَ إلّا تَحْتَهُ إرادَةٌ ونِيَّةٌ ـ من صِدْقٍ، أو كَذِبٍ، خَيْرٍ أو شَرٍّ، مُصْلِحٍ أو مُفْسِدٍ ـ فإنَّما هو صُورَةٌ لِما في القَلْبِ، وأثَرٌ منه، وآيَةٌ عليه، فهو ذُو حَياةٍ ورُوْحٍ، يُحِسُّ بِهِ السّامِعُ، ويَتَأثَّرُ له، حَسْبَ اسْتِعْدادِهِ، فَرُبَّ كَلامٍ أحيى أُمَّةً صالِحَةً، وإنْ شَقِيَ بِهِ ذُوْ شِقْوَةٍ، كَمَطَرٍ أصابَ صَلْداً.

ومن هذا الإحْساسِ قالوا: «الحَقُّ أبْلَجُ، والباطِلُ لَجْلَجٌ»[2].

نَعَمْ في الكلامِ قَبِيْحٌ ومُفْسِدٌ، يَعْلَقُ بِالقُلُوبِ المَرِيْضَةِ، بل الكَلامُ الحَسَنُ رُبَّما أضَرَّ بِالنُّفُوسِ الشِّرِّيْرَةِ، كما جاءَ في القرآنِ الحَكِيمِ:

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ

(١) انظر البيان والتبيين: ١/ ٦٩-٧٠.

(٢) يراد به أنَّ الحقَّ منكشف والباطل ملتبس، يقال: انبلج الصبح، إذا انكشف، ومنه سمي الكشفة بين الحاجبين: بُلْجة. واللجلج من قولهم: تلجلج في القول، إذا تتعتع فيه، ولم يستوف العبارة عن معناه. جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش: ١/ ٣٦٤.

يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

فالمُتَصنِّعُ المُتكلِّفُ، لا يَتَكَلَّمُ بِرُوحٍ، ولا يَجْرِي قولُهُ من قَلْبٍ مُهْتاجٍ، فإنَّهُ يَتَصَنَّعُ في إظْهارِ العَواطِفِ، أو يَتَكَلَّفُ في تأليفِ الكلام، حَسْبَ عاطِفَتِهِ العاجِزَةِ عن النُّطْقِ، فيأخُذُ من أقوالِ المَطبُوعِينَ مايُوافِقُ مُسْتَكَنَّ ضَمِيرِهِ، وهذا رُبَّما يُقارِبُ المَطبُوعَ.

وأمّا المُتَصَنِّعُ في أوَّلِ أمْرِهِ، فهو مُخادِعٌ، ومُنافِقٌ، لا رُوحَ في كَلامِهِ، ولِلمُتَكَلِّفينَ حِيَلٌ لا حاجَةَ إلى تَفصِيلِ ذِكْرِها.

طريق البلاغة:

إذْ قد عَلِمْتَ أنَّ الكَلامَ ليس إلّا البَلاغَ، ولا يَتِمُّ ذلك إلّا بِمُطابَقَتِهِ بِالأصْلِ الأوَّلِ، وبالَّذي في خَيالِ المُتَكَلِّمِ، وبكونِهِ واضِحَ الدَّلالَةِ، أو صائِبَ الإشارَةِ، وبكونِهِ مُؤَثِّراً حَسْبَ حالِ المُسْتَمِعِ، إمّا لَيِّناً سائِغاً، أو خَشِناً دامِغاً، فَنَذْكُرُ الآنَ هذه الأُمُورَ.

ثُمَّ الكَلامُ إمّا هو خِطابٌ إلى:

- **العَواطِفِ**.
- أو إلى **العُقُولِ**.
- أو إلى **الرُّوحِ**.

الأوَّلُ: يُناسِبُهُ مَحاسِنُ ظاهِرَةٌ، من مُناسَبَةِ اللَّفْظِ، وتَصْويرِ المَعانِي.

والثّانِي: نَظَرُهُ إلى قُوةِ الحُجَّةِ، وتَرْتِيْبِ المُقَدِّماتِ مع الوضاحة.

والثّالِثُ: نَظَرُهُ إلى معالِي الأُمُورِ.

والثّالِثُ يَحْوِي مَحاسِنَ الثّانِي، كما هو يَحْوِي مَحاسِنَ الأوَّلِ، والكَلامُ

على هذا البَحْثِ في مَوْضِعٍ آخر[١].

أمّا مُطابَقَةُ الكلامِ بالأصْلِ، فأمْرٌ ظاهِرٌ، وأراكَ تَعْجَبُ من الَّذينَ اسْتَخَفُّوا بِهِ، وهُمْ من أئمَّةِ هذه الصِّناعَةِ.

ولا سيَّما أرِسْطُو حين قال:

«مُحاكاةُ الشّاعِرِ يَنْبَغِي أنْ يَكُونَ مِثْلَ تَماثِيلِ زُوكْسِيسْ[٢]، التِّمْثالُ: أكْمَلُ من أصْلِ الشَّيءِ».

---

(١) من كلام المؤلف: تَذْكِرَةٌ: أسْبابُ الإيضاحِ والقَبُولِ عَلَى غَيْرِ تَرْتِيبٍ:
١- عِلْمُ المُسْتَمِعِ بِمَعْنَى الكلام وأساليبِهِ.
٢- تَشْخِيصُ المُنْتَزَعِ بِالْمَحَلِّ.
٣- بتَحْوِيلِ المُنْتَزَعِ إلى الْمَحْسُوسِ.
٤- مِنَ الأسْهَلِ إلى الأصْعَبِ.
٥- تَفْخِيمُ اللَّفْظِ أحْياناً.
٦- الوَصْفُ مَكانُ الْإِسْمِ أو مَعَهُ.
٧- الْخاصُّ وَنَفْيُ الْإِشْتِراكِ.
٨- مِنْ جِهَةِ الصَّوْتِ.
٩- لِسانُ التَّرْجَمَةِ.
١٠- مُوافَقَةُ الْحالِ مِن الغَرَضِ والمُتَكَلِّمِ.

(٢) زوكسيس: مصور يوناني، من أعظم فناني القرن الخامس قبل الميلاد. انظر: المنجد في الأعلام واللغة، ص٢٨١، طبع دار المشرق، بيروت، ط٣٣. وكان من يزور رومة في الزمن القديم يجد فن التصوير أكثر انتشاراً من فن النحت في هياكلها ومساكنها وأروقتها، ذات العمد، وميادينها؛ وكان يعثر فيها على كثير من أعمال كبار الفنانين الأقدمين: بولجنوتس، وزيوكسيس، وأبليز، وبروتجنيس وغيرهم، ولم تكن هذه الأعمال أقل قيمة، أو أقل تقديراً في الإمبراطورية الواسعة الثراء من صور عهد النهضة الأوربية في أمريكا الغنية في هذه الأيام. انظر: قصة الحضارة: ١٠/ ٢٨٠، ديورانت، طبع دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨م.

ولكن لا غَرْو أنْ يَقُولُوا مِثْلَ هذا القولِ، فإنَّ غَرَضَ الشِّعْرِ عندهُمْ التَّلَذُّذُ. ـ وقد تكَلمنا على هذا فيما قَدَّمْنا، من ضَرُورَةِ الصِّدْقِ في الكلامِ ـ.

وأمّا بالَّذي في خَيالِ المُتَكَلِّم، فإنَّ الكَلامَ لابُدَّ أنْ يُؤَدِّيَ عن ضَمِيرِ المُتَكَلِّمِ. فإنْ قَصَّرَ فهو عَيٌّ أو مُخادَعَةٌ.

وأمّا وضاحَةُ الدَّلالَةِ فتَسْتَدْعِي تَفْصِيْلاً:

ـ فأوَّلُ شَيءٍ فيه: أنْ تَكُونَ بين المُتَكَلِّمِ والمُسْتَمِعِ عِبارَةٌ يَشْتَرِكانِ في عِلْمِ دَلالَتِها، ولَزِمَ من ذلك أنْ يَعْلَما العِبارَةَ والمعنى مَعاً.

مثلاً: إذا قُلْتَ لِرَجُلٍ: «رأيْتُ اليَومَ فِيلاً»، وهو لا يَعْرِفُ هَيئَةَ الفيلِ، فلم يُصَوِّرْ له كَلامُكَ، فإنْ سألَكَ ما هو الفيلُ؟

فقُلْتَ: حَيوانٌ عَظِيمٌ، له أنْفٌ طَوِيلٌ، وأُذُنانِ عَرِيْضَتانِ، ونابانِ كَقَرْنِ البَقَرِ، لَمُساوانِ بَيْضاوانِ، وقَوائِمُ كالعُمُدِ.

فإنْ عَلِمَ معانِيَ هذه الألفاظِ، فقد صَوَّرْتَ له ما أرَدْتَ، ولكن مع ذلك ليس هذا الخَبَرُ كالعَيانِ، فإنَّكَ تَمَلُّ وتَسْأمُ، أنْ تُبَيِّنَ له كُلَّ شَيءٍ من هَيْئَةِ الفيلِ، فالمُسْتَمِعُ، وإنْ فَهِمَ بَعْضَ ما أرَدْتَ، ولَكِنَّهُ لم يَفْهَم كُلَّ مُرادِكَ، إذْ لم يَتَصَوَّرْ ما صَوَّرْتَ لِعَدَمِ اشْتِراكِهِ معكَ في عِلْمِ المعنى.

ولكِنَّهُ إنْ كان قد عَلِمَ هَيئَةَ الفيلِ فَقولُكَ: «رأيْتُ اليَومَ فِيلاً» صَوَّرَ له ما في خَيالِكَ. وهذا لأنَّهُ شارَكَكَ في عِلْمِ اللَّفْظِ والمعنى. والنَّتِيْجَةُ أنْ لا يُكَلِّمَ الرَّجُلُ إلّا بِلِسانِهِ.

كما قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤].

ثُمَّ إِنَّهُ لَمّا لم نَتَعَوَّدْ عِلْمَ الصِّفاتِ، إِلّا حين اتِّصافِ الذَّواتِ بِها، لا يَكُونُ في خَيالِنا لِلمعاني المُنْتَزَعَةِ، من الوضاحة والجَلاءِ، مِثْلُ ما لها حين نَراها مَقْرُونَةً بِذَواتِها، فكأَنَّ الصِّفاتِ في ذَواتِ المَوصُوفِ، مُصَوَّرَةٌ مُمَثَّلَةٌ. وعند التَّجْرِيدِ مُتَوَهَّمَةٌ غُفْلٌ.

مثلاً: لَفْظُ الأَبْيَضِ، أو الأَسْودِ، لا يُعْطِيكَ من الجَلاءِ، ما يُعْطِيْكَ قَوْلُنا: أَبْيَضُ كالثَّلْجِ، أو أَسْودُ كالغُرابِ، وليست هذه الوضاحة إِلّا لأَنَّكَ ذَكَرْتَ من الذَّواتِ ما أَخرَجَهُما من التَّجَرُّدِ إلى التَّشَخُّصِ، فتَمَثَّلا بين يَدَيْكَ، إِمّا بِأُسْلُوبِ التَّمْثِيْلِ، أو بِغيرِهِ.

مثلاً: تُخْبِرُ عن التَّكَبُّرِ، والغَضَبِ، والمَحَبَّةِ، والشَّفَقَةِ، بِعَلاماتِها الظّاهِرَةِ، وبِتَشْخِيْصِها بِالمَكانِ كما قال:

وإِنَّ الَّتي حُدِّثْتَها في أُنوفِنا   وأَعْناقِنا مِنَ الإِباءِ كما هِيا[1]

---

(١) البيت لجزء بن كليب الفقعسي، يقول: وإن النخوة التي أُبلغتها، والحمية التي حُدِّثْتَها، باقيةٌ في أنوفنا حتى لانشمَّ بِها مَرْغَمَةً، وفي أعناقنا ورؤوسنا حتى لا نلويها إلى مُخْزِيَةٍ ومنقصةٍ هي حاصلةٌ فيها كما أَبْلغتَ؛ فالامتناعُ من مثل ماسمعت معروف منا، ومأخوذ به في عاداتنا فلا نستطرفُه. وقوله: «في أنوفنا» في موضع المفعول الثالث لحدثتها. وقوله: «كما هيا» في موضع خبر إنَّ، وما زائدة، أراد: كَهِيَ، أي: هي باقية بحالها، مستمرةٌ على طريقها. ويجوز أن يكون «هي» مبتدأ، و«كما» في موضع الخبر. ويقولون: كما أنا كما أنت، أي: تشابهنا، ويكون «ما» نكرة غير موصوفة، ويجوز أن يكون حذف صفته كأنه قال: كما حُدِّثْتَه أي: كشيءٍ حُدِّثْتَه. وإنما خص «في أنوفنا وأعناقنا» بالذكر؛ لأنه يقال في الكِبْرِ والصُّعوبة: في أنف فلان خُنزُوانةٌ، وَزَمَّ فلانٌ بأنفِهِ، وأنفُه أنفُ الليث، وهو أَحْمَى أنفاً من أن يقبل كذا، ويقولون: في خَدِّه صَعَرٌ، وفي عنقِهِ صَوَرٌ وَصَيَد، وفي ناظره شَوَسٌ وَصادٌ.
شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ١/ ٢٤٣-٢٤٤.

فأراكَ الإباءَ، فمَثَّلَهُ لك في شُمُوخِ الأنفِ، وصَورِ العُنُقِ[١]. وهذا هو الأصْلُ لِضَرْبِ الأمْثالِ، واخْتِلاقِ القِصَصِ وعَمَلِها، كما فعَلَتْ الهُنودُ واليُونانُ. والآنَ صار من الدَّواهِي العامَّةِ.

ثُمَّ من الصِّفاتِ ما هو أدَقُّ وأغْمَضُ؛ لِكونِها مُدْرَكَةً بالعَقْلِ. والمَعاني المُدْرَكَةُ بِالعَقْلِ المَحْضِ، أصْعَبُ تَصْويراً لِلعامَّةِ، إلَّا أنْ تُلْبِسَها لِباسَ المَحْسُوسِ.

مثلاً: تَقُولُ: «الحِكْمَةُ كَنْزٌ لا يَفْنَى» فإذَنْ: صَوَّرْتَ نَفْعَ الحِكْمَةِ الَّذي يَبْقَى دائِماً، بِما ألبَسْتَها لِباسَ المَحْسُوسِ.

فإنْ لم يَلْتَبِسْ عليك شَيءٌ مِمّا قَدَّمْتُ لك، انْحَسَرَ لك القِناعُ عن وجْهِ التَّشْبيهِ، وعَلِمْتَ أنَّ أكثَرَ أقسامِهِ مُتَفَجِّرٌ من هذا اليَنبُوعِ. وفَهِمْتَ أنَّ التَّصوِيرَ لا يَنْحَصِرُ في التَّشبيهِ، بل كُلُّ كَلِمَةٍ تصويرٌ؛ فإنَّها تُحْضِرُ صُوْرَةَ مَعْناها. وإنَّ الغَرَضَ الَّذي يَتَعَلَّقُ بِالتَّشبِيهِ ليس غيرَ التَّصوِيرِ، فإنْ أقْصَرَ، وأسْرَفَ، أو نَفَّرَ. كان مُسْتَهْجَناً.

وكما أنَّ بَعْضَ الأُمُورِ، يَعْسُرُ فَهْمُهُ لِتَجَرُّدِهِ وغُمُوضِهِ، فكذلك بَعْضُ الأُمُورِ يَصْعُبُ قَبُولُهُ؛ لِعَدَمِ اعْتِيادِ الطَّبْعِ بِهِ، والشُّغْلِ بِخِلافِهِ، فحِينئذٍ يَلْزَمُ الوضاحة أنْ يأتِيَ المُخاطِبُ بِألْيَنِ جانِبِهِ مَسّاً، وأحَبِّهِ له حِسّاً؛ لكي لا يَـرُدَّهُ، فإنَّ رَدَّ الأمْرِ والتَّـنَفُّرَ منه، مِثْلُ عَدَمِ فَهْمِهِ، وهذا ما أرَدْتُ من أنْ يَكُونَ صائبة الإشارَةِ.

وتَفصِيلُهُ في بابِ الكِنايَةِ وحُسْنِ التَّرتِيبِ، وهذا لا يَسْتَدْعِي الكَذِبَ، فإنَّ البَلاغَةَ أنْ يُخاطِبَ المُسْتَمِعِينَ بأحْسَـنِ قَوْلٍ يُمكِنُ، فإنْ لم يَقْبَلُوهُ بعد ذلك، فالتَّقْصِيرُ مِنْهُم، فَهُم إذاً كالأصَمِّ والأعْمَى.

ألا تَرى كيف أمَرَ اللهُ رَسُولَهُ مُوسَى عليه السَّلام:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

---

(١) وصَوَر العنق: مَيْلُه واعوجاجه.

ورَسُوْلَهُ مُحَمَّداً ﷺ:

﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

ومِثْلُهُ:

﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

هذا عند شِدَّةِ الخِلافِ، وعُتُوِّ المُخالِفِ.

وأمّا في غيرِ ذلك، فَرُبَّما يَكُوْنُ الزَّجْرُ أبْلَغَ، وهذا الَّذي أرَدْتُ من قَوْلِي «خَشِناً دامِغاً».

ونَبْسُطُ القَوْلَ عليه في بابِ التَّصْرِيْحِ، ومِلاكُ الأمْرِ: إلقاءُ الكلامِ، بِحيث يَنْطَبِعُ في قَلْبِ السّامِعِ ـ بعد أنْ كان كما هو في أصْلِ وُجُودِ الشيءِ ـ.

طُرُقُ التَّوْضِيْحِ من جِهَةِ اسْتِعْمالِ الألفاظ:

ـ اعلمْ أنَّ اسْمَ كُلِّ شيء في طَيِّ الكلامِ، لا يُصَوِّرُ المعنى لِنَفْسِكَ إلّا مُبهَماً، لِعِلَّتَينِ:

لِسُرْعَةِ تَنَقُّلِها من كُلِّ لَفْظَةٍ، فإنَّها مُتَوجِهَةٌ إلى عَمُودِ الكلامِ.

ولِجُمُودِ أكْثَرِ الأسْماءِ.

ولكِنَّكَ إذا اسْتَعْمَلْتَ لَفْظاً فَخيماً غيرَ مُعْتادٍ، تَوجَّهَتْ إليه النَّفْسُ، ولم تُسْرِعْ منه كُلَّ الإسْراعِ.

ـ وهكذا إذا ضَمَمْتَ معهُ صِفَةً.

ـ أو جِئْتَ بِصِفَةٍ في مَكانِ الاسْمِ.

مثلاً: في عِوضِ قولكَ: «رأيْتُ أسَداً» تَقُولُ:

«رأيْتُ ضِرْغاماً»، أو: «رأيْتُ أسَداً جَهْمَ المُحَيّا»، أو: «رأيْتُ ذا لِبْدَتَيْنِ هَرِيتَ الشِّدْقِ».

وفي مَكانِ قولكَ: «مَشَيْتُ وبيَدِي سَيْفٌ». تَقُولُ:

«مَشَيْتُ وبيَدِي صَمْصامٌ، أو «بيَدِي سَيْفٌ صارِمٌ».

أو «رَقِيْقُ الشَّفْرَتَيْنِ ذُوْ شُطَبٍ».

فهذه ثَلاثُ وسائِلَ إلى جَعْلِ التَّصْوِيرِ أوضَحَ وأبْيَنَ.

ـ ثُمَّ مع هَذهِ الثّلاثِ اخْتِيارُ الخاصِّ، في مَحَلِّ العامِّ المُبْهَمِ.

مثلاً: لَفْظُ «زَيْدٍ» أشَدُّ تَصْوِيراً من لَفْظِ «رَجُلٍ».

وهذه الوسِيْلَةُ: فيها العَرَبُ أطْوَلُ باعاً ـ فإنَّ لَهُمْ ألفاظاً خاصَّةً، تَحْتَ كُلِّ جِنْسٍ عامٍّ ـ أكثرَ من سائِرِ اللُّغاتِ، فيُصَوِّرُونَ الشَّيْءَ، ويُمَثِّلُوْنَهُ مُشَخَّصاً بين يَدَيْكَ، من غيرِ ضَمِّ صِفَةٍ.

وفي ذلك لَهُمْ طُرُقٌ كَثِيْرَةٌ:

ـ الأَوّلُ: وُجُودُ الأسْماءِ الدّالّةِ على أنْواعِ جِنْسٍ واحِدٍ.

ـ والثّانِي: وُجُودُ الأفعالِ مِثْلُ ذلك ـ كما ترى في: «كَسَّرَ»، «حَطَّمَ» «فَتَقَ» «فَلَّقَ» ـ ولِهَذَيْنِ الأمْرَيْنِ نُحَوِّلُكَ إلى كُتُبِ هذا الفَنِّ.

ـ والثّالِثُ: من جِهَةِ الاشتِقاقِ. للدَّلالَةِ على:

ـ التّأنِيْثِ.

ـ والتَّثْنِـيَةِ.

ـ وجَمْعِ القِلَّةِ.

ـ وعلى الشِّدَّةِ:

مِثْلُ: «كَسَرَ، وكَسَّرَ». و: «قَتَلَ، وقَتَّلَ». و: «حَطَمَ وحَطَّمَ».

ومِثْلُ: «سَقَطَ، وتَساقَطَ». و: «عَلا»، و«تَعالَى».

ومِثْلُ: «كَسَبَ واكْتَسَبَ»، و: «جَهِدَ، واجْتَهَدَ».

ومِثْلُ: «خَشُنَ، واخْشَوْشَنَ»، و: «حَدِبَ، واحْدَوْدَبَ».

ومِثْلُ: «بَعَثَ، وبَعْثَرَ».

ـ وعلى هَيْئَةِ الشِّدَّةِ في الأسْماءِ:

مِثْلُ: «خِضَمّ»، و«عَفْرَناة»[1].

ـ وكذلك هَيْئَةُ الشِّدَّةِ في «الصِّفَةِ»، و«المَصْدَرِ»:

ـ مِثْلُ: «فاعِلَ»، و«فَعّالٌ»، و«خِلافَةٌ»، و«خِلِّيفَى».

ـ ولِلدّلالَةِ على هَيْئَةِ الاشْتِراكِ.

ـ ثُمَّ فَرْقُ المُتَعَدِّي من اللّازِمِ في الاشْتِراكِ:

مِثْلُ: «شَتَمَ، وشاتَمَ، وتَشاتَمَ».

ـ ومن ذلك جَعْلُ الأفعالِ من الأسْماءِ، مِثْلُ: «تأَبَّطَ»، و«حَمْلَقَ».

ـ ومن الجُمْلَةِ مِثْلُ: «هَلَّلَ»، و«حَوْقَلَ».

ـ وجَعْلُ المَجْهُولِ من المَعْرُوْفِ من غيرِ زِيادَةٍ.

ـ ومن جِهَةِ الاشْتِقاقِ للدَّلالَةِ على حالَةٍ مع الفعلِ من التَّطَلُّبِ له، كَـ: «اسْتَعانَ، واسْتَفْهَمَ».

(١) العفرناة: الغول. انظر القاموس المحيط: مادة (عفر).

ـ أو التَّكلُّفِ فيه، مِثْلُ: «تَستَّرَ».

ـ ثُمَّ التَّعدِّي فيه، مِثْلُ: «تَمارَضَ».

ـ وهـذا بابٌ عَظِيمٌ. إنَّما أوقفْناكَ عليه ـ وإنْ دَخلْنا فيه، دَخلْنا في عِلْمِ الاشْتِقاقِ ـ ثُمَّ يَصعُبُ لَنا الخُروجُ منه، فما أَشَرْتُ إلَّا إلى أُنْموذَجٍ، وإلَّا دَلالاتُ الاشْتِقاقِ أكثرُ من هذا.

ونَزيْدُ قَوْلاً على أمْرٍ واحِدٍ من الاشْتِقاقِ، إذا بَحثْنا عن دَلالَةِ الصَّوْتِ والنَّغْمَةِ.

ومن الاشْتِقاقِ ما يَحتَوي التشبيهَ، مِثْلُ: «حَمْلَقَ»، و«تَنَمَّرَ»، و«اسْتَنْسَرَ».

ـ فإنْ ظَنَنْتَ أنَّ الدَّلالَةَ على هذه المَعاني ـ يُمْكِنُ بِضَمِّ لَفْظٍ مع لَفْظٍ في غيرِ اللُّغَةِ العَربيَّةِ ـ والتَّصْويرُ يَحصُلُ سَواءٌ صَنَعْناهُ من كَلِمَةٍ، أو من كَلِماتٍ. مثلاً: «احْتَـرَقَ الثَّوبُ من هَاهُنا وهَاهُنا» يُصَوِّرُ لَنا كُلَّ ما نَفْهَمُ من: «احْرَوْرَقَ الثَّوْبُ».

وكذلك أخذُ الشيءِ في الإبْطِ مِثْلُ: «تأبَّطَ»، أو فَتْحُ عَيْنِهُ ـ كأنَّهُ جَعلَها حَلَقَةً ـ مِثْلُ: «حَمْلَقَ» ـ.

فَأيُّ مَزيَّةٍ لِلعَرَبِ في هذا الأمْرِ ـ فإنَّ الغَرَضَ إنَّما هو تَصْويرُ الشيءِ ـ؟

قُلْنا: إنَّ التَّخيِيلَ يَكُونُ دَفْعَةً وجُمْلَةً، كما أنَّ إحْساسَ الأشْياءِ يَكُونُ جُمْلَةً ودَفْعَةً، فالَّذي في الخَيالِ صُوْرَةٌ مُتَّحِدَةٌ.

فإنْ أعْطَيْتَ السَّامِعَ جُزْءاً جُزْءاً، خالَفَ أصْلَ الصُّوْرَةِ، ولم يُؤَدِّها، كأنَّكَ مَزَجْتَ ماءً وسُكَّراً وثَلْجاً ووَرْداً، فشَرِبْتَهُ، وأشْرَبْتَ السَّامِعَ ماءً، ثُمَّ أطْعَمْتَهُ سُكَّراً، ثُمَّ أشْمَمْتَهُ وَرْداً، ثُمَّ أبْلَعْتَهُ ثَلْجاً، أفَـتَظُنُّ أنْ لا اخْتِلافَ بين الطَّعْمَيْنِ؟

ولكن رُبَّما يَكُونُ المُرادُ تَصْويرَ كُلِّ شيءٍ على حِدَةٍ، فحِيْنَئِذٍ يَحْسُنُ التَّفْصِيلُ، والبَحْثُ عن مَواقِعِهِ يأتِيْكَ في بابِ «الإحْكامِ والتَّفْصِيْلِ»، أيْ: الإيجازِ والإطْنابِ.

ـ وهذا الوَلُوعُ بِتَصْويرِ الشيءِ، ورَفْعِ الإبْهامِ عنهُ، ذَهَبَ بِهِمْ إلى أنْ لم يَـقْنَعُوا

بِأنْ يَدْعُوا الرَّجُلَ بِاسْمٍ سَمَّتْهُ بِهِ أُمُّـهُ، حَتّى أعْطَوْهُ اسْماً آخَرَ يَدُلُّ على صِفَةٍ له، أو واقِعَةٍ منه أو بِهِ. وكان يَغْلُبُ هذا اللَّقَبُ على اسْمِهِ، فكَثُرَ فيهم مِثالُ اللَّقَبِ، مِثْلُ: «تأبَّطَ شَراً»[1]، و«المُتَلَمِّس»[2]، و«ذُو الإِصْبَع»[3] ـ مِمّا يُذَكِّرُ واقِعَةً لِلرَّجُلِ ـ.

ولَمّا تَدَنَّسَتْ أخْلاقُهُمْ بِمُخالَطَةِ العَجَمِ قَبْلَ البِعْثَةِ، وتَجاوزوا الحَدَّ في تَنابُزِ

---

(١) تَأَبَّطَ شَرًّا: لَقَبُ ثابت بن جابر بنِ سُفْيانَ بنِ عَديٍّ بن كَعْبِ بن حَرْبِ بن تَيْمِ بنِ سَعدِ بنِ فَهْمِ ابنِ عَمْرو بن قَيْس عَيْلانَ، الفَهْمِيّ، المُضَرِيّ، أحَد رَآبيلِ العَرَبِ ـ جمع رِئْبالٍ، وهو الَّذي وَلَدَتْهُ أُمُّه وَحْدَه ـ من مضرَ بن نزارِ بنِ مَعَدِّ بنِ عَدْنانَ؛ لأنَّ قَيْسَ عَيْلانَ هو ابنُ مُضَرَ، وإنَّما لُقِّبَ به لأنَّه رَأتْهُ أمُّه وَقَدْ تَأبَّطَ جَفِيرَ سِهام وأخَذَ قَوْساً، فقالت له أُمُّه: هذا تَأَبَّطَ شَرّاً. قالَهُ أبو حاتم سَهْلُ بنُ محمَّدٍ السِّجِسْتانِيُّ، ونصُّه: وَقَدْ وَضع جَفِيرَ سِهامِه تَحْتَ إِبْطِه وأخذَ القوسَ. والمَآلُ واحدٌ. أو تَأَبَّطَ سِكِّيناً فأتى نادِيَهُم فوَجَأ بَعْضَهُم، فسُمِّي به لذلك. وفي «الصّحاح»: زَعَموا كانَ لا يُفارِقُه السَّيْفُ. وفي «العُبَاب»: قتلَتْهُ هُذَيْلٌ. انظر: تاج العروس: مادة (أبط).

(٢) المُتَلَمِّسُ (... ـ نحو ٥٠ ق هـ = ... ـ نحو ٥٦٩م): لَقَبُ جرير بنِ عبدِ المَسيح؛ لقولِهِ:

وذَاكَ أَوَانُ العِرْضِ طَـنَّ ذُبَـابُـهُ زَنَـابِـيرُهُ والأزْرَقُ الـمُـتَـلَـمِّـسُ

من بني ضبيعة، من ربيعة، شاعر جاهلي، من أهل البحرين. وهو خال طرفة بن العبد. كان ينادم عمرو بن هند (ملك العراق) ثم هجاه، فأراد عمرو قتله ففر إلى الشام، ولحق بآل جفنة (ملوكها)، ومات ببصرى (من أعمال حوران ـ في سورية)، وفي الأمثال: «أشأم من صحيفة المتلمس»، وهي كتاب حمله من عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين، وفيه الأمر بقتله. ففضه وقرئ له ما فيه، فقذفه في نهر الحيرة، ونجا. له «ديوان شعر» ـ ط، فيه ما بقي من شعره. انظر: الشعر والشعراء: ١/ ١٧٧، وسمط اللآلي في شرح أمالي القالي: ١/ ٢٥٠، والأعلام للزركلي: ٢/ ١١٩، وتاج العروس: مادة: (لمس).

(٣) ذو الإصبع العدواني (... ـ نحو ٢٢ ق هـ = ... ـ نحو ٦٠٠م) حرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة، من عدوان، ينتهي نسبه إلى مضر: شاعر حكيم شجاع جاهلي. لقب بذي الإصبع؛ لأن حية نهشت إصبع رجله فقطعها، ويقال: كانت له إصبع زائدة. وعاش طويلاً حتى عد في المعمرين. له حروب ووقائع وأخبار. وشعره مليء بالحكمة والعظة والفخر، قليل الغزل والمديح، وهو صاحب القصيدة المشهورة التي يقول في أولها: (أأسيد إن مالاً ملكتَ فسر به سيراً جميلا). انظر: المؤتلف والمختلف، ص١٤٩، وخزانة الأدب للبغدادي: ٥/ ٢٨٤، والأعلام للزركلي: ٢/ ١٧٣.

الألقابِ، نَهاهُم الله عن الفُسُوقِ فيه، وأمّا اللّقَبُ بِالحَقِّ فلم يَنْهَهُم، ومن ذلك:

«زَيْدُ الفَوارِسِ[١]، والخَيْرِ[٢]».

وتَسْمِيَةُ «أبي جَهْلٍ»[٣]. و«أبي لَهَبٍ»[٤].

---

(١) زيد الفوارس (...ـ... = ...ـ...) هو ابن حصين بن ضرار بن عمرو بن مالك بن زيد بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك بن بكر، الضبي، شاعرٌ جاهليٌّ. وضرار بن عمرو وكان يقال له: الرّديم؛ لأنه كان إذا وقف في الحرب ردم ناحيته، أي: سدّها. وطالت رياسته وشهد يوم القرنتين ومعه ثمانية عشر من ولده يقاتلون معه، وزيد الفوارس كان فارسهم. ولهذا قيل له: زيد الفوارس.

انظر: الأعلام: ٣/ ٥٨، وخزانة الأدب: ٣/ ١٦٨، والمؤتلف والمختلف ص١٦٧.

(٢) زيد الخير (... ـ ٩هـ = ... ـ ٦٣٠م) زيد بن مهلهل بن منهب بن عبد رضا، من طيئ، كنيته أبو مكنف: من أبطال الجاهلية، لقب: زيد الخيل؛ لكثرة خيله، أو لكثرة طراده بها. كان طويلاً جسيماً، من أجمل الناس، وكان شاعرا محسناً، وخطيباً لسناً، موصوفاً بالكرم. وله مهاجاة مع كعب بن زهير. أدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ سنة ٩هـ، في وفد طيئ، فأسلم، وسرَّ به رسول الله، وسماه: زيد الخير. وقال له: «يا زيد، ما وصف لي أحدٌ في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيته دون ما وصف لي، غيرك». وأقطعه أرضاً بنجد، فمكث في المدينة سبعة أيام، وأصابته حمى شديدة، فخرج عائداً إلى نجد، فنزل على ماء يقال له: (فردة)، فمات هنالك. وللمفجع البصري كتاب (غريب شعر زيد الخيل). انظر: الأعلام للزركلي: ٣/ ٦١.

(٣) أبو جهل (... ـ ٢هـ = ... ـ ٦٢٤م) عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي: أشد الناس عداوة للنبي ﷺ في صدر الإسلام، وأحد سادات قريش وأبطالها ودهاتها في الجاهلية. قال صاحب «عيون الأخبار»: سودت قريش أبا جهل ولم يطر شاربه، فأدخلته دار الندوة مع الكهول. أدرك الإسلام، وكان يقال له: أبو الحكم. فدعاه المسلمون: أبا جهل. واستمر على عناده، يثير الناس على محمد رسول الله ﷺ وأصحابه، لايفتر عن الكيد لهم والعمل على إيذائهم، حتى كانت وقعة بدر الكبرى، فشهدها مع المشركين، فكان من قتلاها. انظر: عيون الأخبار: ١/ ٢٣٠، والسيرة الحلبية: ٢/ ٣٣، والأعلام: ٥/ ٨٧.

(٤) أبو لهب (...ـ ٢هـ = ...ـ ٦٢٤م) عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم، من قريش: =

ومن هذا الاعْتِناءِ أَنَّهُم كانوا يُسَمُّونَ كُلَّ «سَيْفٍ»، و«ناقَةٍ»، و«فَرَسٍ»، و«دِرْعٍ»، و«حِصْنٍ»، و«عِمارَةٍ». وفي بَعْضِ ذلك شارَكَهُم العَجَم.

التَّوْضِيْحُ من جِهَةِ الصَّوْت:

ـ اعلمْ أنَّ لِلصَّوْتِ دَلالَةً على بَعْضِ المَعاني لِمُناسَبَةٍ بينهُما ـ وما من لُغَةٍ إلَّا وفيه آياتٌ على ذلك ـ وأمّا لُغَةُ العَرَبِ: فالدَّلالَةُ فيها أكثرُ وأبْيَنُ من أنْ يُنْكِرَهُ مُنْكِرٌ. وأعْجَبُ من صاحِبِ «دَلائِلِ الإعجازِ» كيف غمض عَيْنَهُ عن هذا الأمْرِ، ورَدَّ على العُلَماءِ ـ الَّذينَ جَعَلُوا للَّفْظِ حَظاً في مَزِيَّةِ الكلامِ من جِهَةِ صَوْتِهِ ـ رَدَّ مُكابِرٍ ألَدّ.

فالظّاهِرُ منها ما اشْتُهِرَ بين عُلَماءِ الاشْتِقاقِ، أنَّ شِدَّةً في البِناءِ تَدلُّ على شِدَّةٍ في المعنى، مثلاً:

«كَسَّرَ» أشَدُّ من «كَسَرَ»، و«حَطَّمَ» من «حَطَمَ»، و«اخْشَوْشَنَ» من «خَشُنَ»، و«احْدَوْدَبَ»، من «حَدِبَ».

ـ وكذلك: «فَعّالٌ»، من «فاعِل»، و«صِدِّيق»، من «صَديق».

ـ وكذلك زِيادَةٌ في البِناءِ تَدُلُّ على زِيادَةٍ في المعنى، وهذا قَرِيْبٌ من الأوَّلِ، مِثْلُ: «كَفَرَ» و«اكْفَهَرَّ».

ـ ثُمَّ قَرِيْبٌ من ذلك كَيْفيةٌ أُخْرَى في الصَّوْتِ، تَدُلُّ على مَعْنًى يُناسِبُها، مثلاً:

= عم رسول الله صلى الله عليه وآله، وأحد الأشراف الشجعان في الجاهلية، ومن أشد الناس عداوة للمسلمين في الإسلام. كان غنياً عتياً، كبر عليه أن يتبع ديناً جاء به ابن أخيه، فآذى أنصاره، وحرّض عليهم، وقاتلهم وفيه الآية: «تبت يدا أبي لهب، وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب». وكان أحمر الوجه، مشرقاً، فلقب في الجاهلية بأبي لهب. مات بعد وقعة بدر بأيام، ولم يشهدها. انظر: الأعلام: ٤ / ١٢، والروض الأنف: ١/ ٢٦٥، وتاريخ الإسلام للذهبي: ١/ ٨٤، ١٦٩.

ـ تَوالِي الحَرَكاتِ في الصَّوْتِ، تَدُلُّ على تَوالِي الحَرَكاتِ في المعنى، مثلاً: «خفقانٌ»، «عَسَلانٌ»[١] «ضَرَبانٌ»[٢].

ـ وقَرِيْبٌ منه تَكْرارُ صَوْتٍ يَدُلُّ على تَكْرارٍ في المعنى.

مثلاً: «زَلْزَلَ»، «كَبْكَبَ»، «لأْلأ».

ـ ثُمَّ بعد ذلك دَلالَةُ جَوْهَرِ اللَّفْظِ على المعنى:

أمّا على الصَّوْتِ فظاهِرٌ، ولا أظُنُّ لُغَةً تَخْلُو عنها، مِثْلُ: «قَطَّ»، «فَلَقَ»، «شَقَّ»، «خَرَّ». حتَّى إنَّ بَعْضَ المُجْتَهِدِيْنَ، تَوهَّمَ أنَّ جَمِيْعَ ألْفاظِ اللُّغَةِ راجِعَةٌ إلى الأصواتِ.

ثُمَّ تَرْكِيْبُ الخامِسِ بِالرّابِعِ مِثْلُ: «بَرْبَرَ»[٣]، «تَغَطْمَطَ»[٤]، «وَلْوَلَ»[٥].

ـ وأمّا على غيرِ الصَّوْتِ، فهذا أمْرٌ يَنْبَغِي له بَعْضُ تأمُّلٍ. ولم يَغْفُلْ عنهُ عُلَماءُ الاشْتِقاقِ فقالوا: إنَّ كَذا وكَذا من الحُرُوفِ، يَدُلُّ على مَعْنىً فُلانِيّ. وسَبِيْلُهُمْ كان

---

(١) العَسَلان، هو ضربٌ من عَدْو الذِّئب فيه اضطراب. يقال: عَسَلَ الذِّئبُ عَسَلًا وعَسَلاناً. قال الشاعر:

عَسَلانَ الذئبِ أمسَى قارباً ... بَرَدَ اللَّيلُ عليه فنَسَلْ

الاشتقاق لابن دريد، تحقيق عبد السلام هارون: ص٢٢٧.

(٢) الضَّرَبان: الحَرَكَةُ بقُوَّة. تاج العروس، مادة: (ضرب).

(٣) البَرْبَرَةُ: كثرةُ الكَلام، والجَلَبَةُ باللِّسانِ. وقِيلَ: الصِّياحُ، رَجُلٌ بَرْبارٌ، وقدْ بَرْبَرَ. المحكم لابن سيده، تحقيق عبد الحميد هنداوي: ١٠ / ٢٤٣.

(٤) تَغَطْمَطَ الماءُ: اضْطَرَبَ. تاج العروس: مادة: (غلط).

(٥) الوَلْوالُ: البَلْبالُ، ووَلْوَلَت المرأةُ: دَعَتْ بالوَيْل وأعْوَلَتْ، والاسم الوَلْوالُ، قال العجاج:

كأنَّ أصْواتَ كِلابٍ تَهْتَرِشْ ... هاجَتْ بِوَلْوالٍ ولَجَّتْ في حَرَشْ

قال ابن بري: قال ابن جني: وَلْوَلَتْ مأخوذ من وَيْلٌ له. لسان العرب، مادة: (ولول).

سَبِيْلَ الاستِقراءِ ـ تَـكَلَّفُوا فيه بَعْضَ التَّـكَلُّفِ ـ ولكن مع ذلك هو أمْرٌ له حَقِيْقَةٌ كما سَتَعْلَمُ ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالى ـ.

ـ لا يَخْفَى عليك أنَّ دَلالَةَ الحَرَكاتِ أَقَلُّ ظُهُوراً من دَلالَةِ الحُرُوفِ، وإذْ كانتْ تلك فَعَسَى أنْ تَـكُونَ هذه.

فاعلمْ أَنَّهُ مَهْما كان من المَحْسُوساتِ، فَلَهُ صِفاتٌ يَشْتَرِكُ فيها غيرُهُ. والنّاسُ لم يَغْفُلُوا عنهُ. فقالوا:

قَوْلٌ لَيِّنٌ، وصَوْتٌ رَخيمٌ، وكَلامٌ واضِحٌ.

وقالوا: أمْرٌ غُمَّةٌ، وعَيْشٌ ضَيِّقٌ.

فإنْ قُلْتَ: هذا من التَّشبيهِ والتَّمْثِيْلِ.

قُلْنا: لم نُرِدْ نحن إلَّا هذا.

ولـكن تأمَّلْ فيما قُـلْـتُ: الحَلاوةُ تُـدْرَكُ بِالطَّعْمِ، والظُّلْمَةُ تُـدْرَكُ بِالعَيْنِ، والنُّعُومَةُ تُدْرَكُ بِاللمسِ، فإذا شَبَّهْتَ بَعْضَ المَحْسُوسِ بِبَعْضٍ آخَرَ، لم تَفْعَلْ ذلك إلَّا بعد أنْ وجَدْتَ فيهما أمْراً مُشْتَـرَكاً، والآنَ نَخُوضُ معكَ هذه اللُّجَّةَ، فانْتَبِهْ.

فأوَّلُ ما يُهِمُّنا أنْ نَلْتَمِسَ سَبِيْلاً، إلى تَرْجَمَةِ حاسَّةٍ بِلِسانِ حاسَّةٍ أُخْرَى.

مثلاً: نُرِيْدُ أنْ نُتَـرْجِمَ اللَّوْنَ لِلأعْمَى، والرِّيْحَ لِلأخْشَمِ[1]، والطَّعْمَ بِلَفْظِ اللَّوْنِ، واللمسَ بِلِسانِ الصَّوْتِ، وهكذا أيّما شِئْنا مَثَّلْناهُ بِاسْمِ غيرِهِ.

---

(١) الأخْشَم: الذي لا يَجِدُ ريح الشيء وهو الخُشَام. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي: ٢/ ٩٣.

فإنْ وجَدْتَ هذا السَّبِيْلَ مُمَهَّداً، فُتِحَ لك بابٌ من عِلْمٍ جَدِيْدٍ، أمْكَنَكَ التَّعْبِيْرُ عَمّا تَجِدُ، ولا تَدْرِي كيف تُخْبِرُ عنهُ.

وهذا العِلْمُ ليس بِجَدِيدٍ، بل كان في قَدِيْمِ الأيّامِ - ولكن أضاعَهُ الغافِلُونَ - والأمْرُ الَّذي دَعانِي إلى مَحْضِهِ، أنّي كُنْتُ أجِدُ ذَوْقاً خاصّاً في بَعْضِ الشيءِ، ولا أشُكُّ في أنَّ هذه الصِّفَةَ، لازِمَةٌ لذلك الشيءِ، أيْ كُلُّ مَنْ يَذُوقُهُ، يَجِدُ مِثْلَما وجَدْتُ.

ولكن لم أجِدْ لِتَعْبِيْرِهِ لِساناً، لِأعْلَمَ أنَّ وِجْدانِي كَوِجْدانِ غيرِي. فلم يُمْكِنِّي أنْ أُثْبِتَ لِمَنْ أنْكَرَ، فإنَّ الأخْشَمَ مثلاً إنْ أنْكَرَ أنْ لا رِيحَ لِلْوَرْدِ، فكيف تُثْبِتُ له، غيرَ أنْ يَشْهَدَ معكَ كَثِيرٌ من النّاسِ، أنَّ فيهِ رِيحاً طَيِّباً؟

ولكن إنْ كان الأخْشَمُونَ كثيراً، شَهِدُوا عليك، وفَنَّدُوكَ، فهكذا في الأذْواقِ الغامِضَةِ - المُنْكِرُونَ فيه كَثِيرٌ - بل بَعْضُ مَنْ يَجِدُ يُكَذِّبُ نَفْسَهُ، أو يَشُكُّ فيه، لإنْكارِ العامَّةِ لهُ.

وسَبِيْلُ الإثْباتِ على المنكر، والإيْضاحِ لِمَنْ هو في شَكٍّ، ليس إلّا أنْ نُعَبِّرَ عنهُ بِلِسانٍ تَفْهَمُهُ العامَّةُ، فإذا اتَّفَقَ فيه جَمْعٌ يَسِيْرٌ، من أصْحابِ الذَّوْقِ، عُلِمَ أنَّ الاتِّفاقَ في التَّمْيِيزِ لا يَكُونُ في أمْرٍ مَعْدُومٍ.

مثلاً: إنْ كان البَحْثُ في أمْرِ الرِّيحِ، فإذا اتَّفَقَ جَمْعٌ يَسِيرٌ، في أنَّ رِيحَ هذا الشَّيءِ مثلاً طَيِّبٌ، وذاكَ نَتِنٌ، والثّالِثُ بَيْنَ بَيْنَ، عَلِمَ الأخْشَمُ أنَّ هُناكَ صِفَةً ما، وإلّا كيف يَتَّفِقُ حُكْمُ واحِدٍ بِحُكْمِ آخَرَ.

فكذلك إذا بَدَّلْنا هذه العِبارةَ. وقُلْنا: إنَّ هذا الرِّيحَ مثلاً أخْضَرُ، وذاكَ أرْبَدُ، والثّالِثَ أبْيَضُ، واجْتَمعتْ فيه كَلِماتُ جَمْعٍ - ولو يَسِيرٍ - عُلِمَ أنَّ هُناكَ شَيئاً ما، ثُمَّ كان مع ذلك نَوْعٌ من التَّخَيُّلِ لِلأخْشَمِ وإحْساسٌ مّا، فهذا ما نُرِيْدُ بِالتَّرْجَمَةِ من حاسَّةٍ بِحاسَّةٍ.

أمَّا الطَّرِيقُ إلى هذه التَّرْجَمَةِ فبوسِيلَةِ صِفاتٍ مُشْتَرَكَةٍ بين الحَواسِّ الخَمْسِ:

- من اللَّذَّةِ والألَمِ وعَدَمِهما.
- ثُمَّ الشِّدَةِ واللِّينِ وعَدَمِهما.
- ثُمَّ الحِدَّةِ والغِلْظَةِ وعَدَمِهما.

فإذا قَسَّمْتَ كُلَّ مَحْسُوسٍ بِاعْتِبارِ هذه الصِّفاتِ، صار لك من كُلِّ جِنْسٍ سَبْعَةٌ وعِشْرُونَ قِسْماً.

فإذا أرَدْتَ تَرْجَمَةَ مَحْسُوسٍ بِلِسانِ حِسٍّ آخَرَ، أخَذْتَ ما كان مِثْلَهُ في هذه الصِّفاتِ المُشْتَرَكَةِ؛ من اللَّذَّةِ، والشِّدَّةِ، والحِدَّةِ، مع أضْدادِها.

مثلاً:

- أخَذْتَ في أوَّلِ المَرْتَبَةِ، الزَّنْجَبِيلَ في الطَّعْمِ، والكافُورَ في الشَّمِّ، والحُمْرَةَ في اللَّوْنِ، والحَرارَةَ في اللمسِ، وصَوْتَ المِزْمارِ في السَّمْعِ. فوجَدتَها في مَرْتَبَةٍ واحِدَةٍ من الحِدَّةِ، مع كونِها مَحْسُوساتٍ مُخْتَلِفَةً.

فبعدما اسْتَقَرَّ هذا الاصْطِلاحُ، وعَرَفُوا مَعْنَى المُطابَقَةِ. فإذا جاءَ أحَدٌ بِالكافُورِ، وقال لِلأخْشَمِ: إنَّ له رِيحاً مِثْلَ الزَّنْجَبِيلِ في الطَّعْمِ، والحُمْرَةِ في اللَّوْنِ، وصَوْتِ المِزْمارِ في السَّمْعِ، كان له سَبِيلٌ إلى تَخْيِيلٍ ما. وعَلِمَ ماذا دَرَجَتُهُ في اللَّذَّةِ.

وكذلك إذا قُلْتَ لِلأعْمَى: إنَّ صُورَةَ هذا الرَّجُلِ مِثْلُ نَهِيقِ الحِمارِ، وضَرْبِ العَصا، ونَتْنِ الجِيفَةِ، تَصَوَّرَ شَيئاً من أمْرِ الصُّورَةِ، وأُشْرِبَ في قَلْبِهِ من الكَراهِيَةِ مِثْلَ مَنْ يَرَى الصُّورَةَ رأْيَ العَيْنِ، وإن اتَّفَقَ كَلِماتُ جَمْعٍ ولو يَسِيرٍ، على هذا الحُكْمِ تَيَقَّنَ بِصِحَّةِ الحُكْمِ.

وهذا لِسانُ التَّرْجَمَةِ أصْلُ التَّشبِيهِ، ولم يَترُكْهُ الشُّعَراءُ، فإنَّهُمْ يُعَبِّرُونَ عن حِسٍّ بِلِسانِ حِسٍّ آخَرَ كَثِيراً، ونورِدُ بَعضَ الأمثِلَةِ في تَمثِيلِ القَولِ، قال القَطامِيُّ[1] :

وفي الخُدُورِ غَماماتٌ بَرَقْنَ لَنا حَتَّى تَصَيَّدْنَنا مِن كُلِّ مُصْطادِ
فَهُنَّ يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ مَواقِعَ الماءِ مِنْ ذِي الغُلَّةِ الصّادِي[2]

وهذا أكثَرُ من أنْ تَفْتَقِدَهُ، ولَكِنّا نُشيرُ إلى أمْرٍعَجِبَ النّاسُ منه، وكُنْهُهُ في لُغَةِ التَّرجَمَةِ هذه. وبَيانُهُ: أنَّ مَنْ حُرِمَ حِسّاً، كان أمْيَلَ إلى التشبيه وإجادته؛ فإنَّهُ لا

---

(١) القَطامي (... ـ نحو ١٣٠هـ = ... ـ نحو ٧٤٧م) والقطامي بضم القاف وفتحها. قال الزبيدي: الفتح لقيس، وسائر العرب يضمون. عمير بن شييم بن عمرو بن عباد، من بني جشم بن بكر، أبو سعيد، التغلبي، الملقب بالقطامي: شاعر غزل فحل. كان من نصارى تغلب في العراق، وأسلم. وجعله ابن سلَّام في الطبقة الثانية من الإسلاميين، وقال: الأخطل أبعد منه ذكراً وأمتن شعراً. ونقل أن القطامي أول من لقب: (صريع الغواني) بقوله:

صَرِيعِ غَوانٍ راقَهُنَّ ورُقْنَه لَدُنْ شبَّ حتى شاب سُودُ الذَّوائبِ

من شعره البيت المشهور:

قد يُدرِكُ المُتَأنّي بعضَ حاجَتِهِ وقد يكونُ مع المُسْتَعجِلِ الزَّلَلُ

له «ديوان شعر» ـ ط، نشر مشروحاً في ليدن، وأعيد طبعه محققا في بغداد. انظر: طبقات فحول الشعراء: ٢/ ٥٣٥، والشعر والشعراء: ٢/ ٧١٣، ٩١٠، ٩١٤، وسمط اللآلي في شرح أمالي القالي: ١/ ١٣١، ١٨٤، والأعلام للزركلي: ٥/ ٨٨.

(٢) من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له، أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أضن وأشغف، ولذلك ضرب المثل لكل مالطف موقعه ببرد الماء على الظمأ كما قال الشاعر. انظر: أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ص١٣٩، بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر.

ينبذن: أي: يرمين به يتكلمن. الغلة: الحرارة. انظر: ديوان القطامي، ص: ٨٠-٨١، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، طبع دار الثقافة بيروت، ط١، ١٩٦٠م.

يَعْلَمُ من الشيءِ الَّذي لا يُحِسُّهُ إِلَّا مِثالَهُ. فيَجْمَعُ في خَيالِهِ صُورَ الشيءِ، مَلْبُوسَةً بِلِباسِ الحِسِّ الآخَرِ، ثُمَّ كَثْرَةُ تَعاطِيهِ بِالتَّمْثِيلِ، تَجْعَلُهُ أَقْوى عليه؛ فإِنَّ القُوى تَشْتَدُّ بإِعمالِها.

ومن كَثْرَةِ التَّعَرُّضِ لهُ، رُبَّما يَعثُرُ على أحْسَنِ شيءٍ فيهِ. وهذا أمرٌ مَعلُومٌ مُشاهَدٌ في العُميانِ. وفي الشُّعَراءِ: هذا بَشّارٌ الأعْمَى[(١)]، مُجِيدٌ في تَشبِيهِ المَرْئِياتِ. وتَعَجَّبُوا من قولِهِ المَشْهُورِ:

كأَنَّ مُثارَ النَّقْعِ فوق رؤوسنا وأسْيافَنا لَيْلٌ تَهاوى كَواكِبُهْ[(٢)]

وتَراهُ كَثِيراً ما يُشَبِّهُ الأشْياءَ بِالمَرْئِياتِ وغيرِها لِسَبَبٍ أشَرْنا إليه، فقال:

وكأَنَّ رَفْضَ حَدِيثِها قِطَعُ الرِّياضِ كُسِينَ زَهْرا[(٣)]

---

(١) بشار بن برد (٩٥-١٦٧هـ = ٧١٤-٧٨٤م) العقيلي، بالولاء، أبو معاذ: أشعر المولدين على الإطلاق. أصله من طخارستان (غربي نهر جيحون)، ونسبته إلى امرأة (عقيلية)، قيل: إنها أعتقته من الرق. وكان ضريراً، نشأ في البصرة وقدم بغداد، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية، وشعره كثير متفرق من الطبقة الأولى، جمع بعضه في «ديوان» - ط٣ أجزاء منه. قال الجاحظ: «كان شاعراً راجزاً، سجاعاً خطيباً، صاحب منثور ومزدوج، وله رسائل معروفة». واتهم بالزندقة، فمات ضرباً بالسياط، ودفن بالبصرة. وأخباره كثيرة. انظر: الأعلام للزركلي: ٢ / ٥٢، سير أعلام النبلاء: ٦/ ٤٨٤، والشعراء والشعراء: ٢/ ٧٤٥، وسمط اللآلي: ١/ ١٩٦، ١٩٧.

(٢) النقع: غبار الحرب، أي: النقعُ الذي أثارته الخيلُ والرجال في الزحف، وهذا البيتُ هو الذي أكسب بشار شهرة في النبوغ في الشعر، وذلك أنه جمع فيه تشبيه مركب بمركب، فجمع تشبيهين في تشبيه، وبذلك فاق امرأ القيس في التشبيه في قوله:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

ديوان بشار بن برد، جمع وشرح وتكميل وتعليق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ١/ ٣٣٥، طبع الشركة التونسية للتوزيع، سنة ١٩٧٦م.

(٣) ديوان بشار: ٤/ ٥٥.

وتَخالُ ما جَمَعَتْ عليه ... ثِيابُها ذَهَباً وعِطْرا[١]

وكأنَّ تَحْتَ لِسانِها ... هارُوتَ يَنْفُثُ فيهِ سِحْرا[٢]

وقال أيضاً:

وبِكْرٍ كَنُوَّارِ الرِّياض حَدِيثُها ... تَرُوقُ بِوَجْهٍ واضِحٍ وقَوامِ[٣]

وهكذا ترى أكْبَرَ الشُّعَراءِ ـ تَخْييلاً لِما يُبْصَرُ ـ مَنْ كُفَّ بَصَرُهُ. مِثْلُ هومِرُوس اليُونانِي ومِلْطُنْ[٤] الانْجِلِيسِي.

ثُمَّ لا يَخفَى عليك، أنَّ هذا جُهْدٌ لِأداءِ ما لا يُمْكِنُ تَعْبِيرُهُ، ـ كما هو ـ لِمَنْ حُرِمَ الحِسَّ الَّذي يُخْبِرُهُ عن حَقِيقَةِ الشَّيءِ.

وأمّا إذا كان الكَلامُ بين الَّذينَ رُزِقُوا ذلك الحِسَّ، فهذهِ التَّرجَمَةُ تُنَبِّهُ فيهِمْ ذَوْقاً نائِماً، كما تَقُولُ لِرَجُلٍ: هذا لَفْظٌ ثَقِيلٌ، وهذا خَفيفٌ، انْتَبَهَ فيهِ الذَّوْقُ، إنْ لم يَكُنْ في غايَةِ البَلادَةِ.

ولولا هذه التَّرْجَمَةُ، لم يَتَرَقَّ اللَّفْظُ:

ـ من المَحْسُوسِ إلى المُدْرَكِ، كالظُّلْمِ، والعَدْلِ، والانْبِساطِ، والكَشْفِ.

---

(١) ماجمعت عليه ثيابها هو جسدها، أي: تحسبه أيها السامع ذَهَباً في البريق واللون، وهم يحبون اللون المائل إلى الصفرة، قال امرؤ القيس:

كَبِكْرِ المُقَانَاةِ البَيَاضَ بِصُفْرَةٍ

وهذا كقول ابن طباطبا:

لا تَعْجَبُوا مِنْ بِلَى غِلالَتِهِ ... قَدْ زَرَّ أَزْرَارَه على القَمَرِ

(٢) ديوان بشار: ٤/ ٥٦.

(٣) والنُّوَّار، بضم النون وتشديد الواو: الزهر. انظر: ديوان بشار: ٤/ ٢٠٣.

(٤) جون مِلتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤م) من مشاهير شعراء الإنكليز، فقد نظره فأملى على زوجته وابنتيه ملحمته الخالدة «الفردوس المفقود». انظر: المنجد في الأعلام واللغة، ص٥٤٥.

- ومن الصِّغَرِ إلى العِظَمِ، كالخَلْقِ، والفَلْقِ، والدَّلِيْلِ، والفَصْلِ.

- ولم يُمْكِنْ جَمْعُ الصُّورِ، كالذَّوْقِ، والمَسِّ، في قولِهِ تعالى:

﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨].

فَجَمع التشبيهَين.

وكقولِهِ تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

فَجَمَعَ تَشْبِيهَيْ الحُلوِ واللِّباسِ.

- ومن أجَلِّ مَنافِعِ هذه التَّرْجَمَةِ، أنَّ اللِّسانَ يُمْكِنُ بِهِ التَّعْبِيرُ عمّا وراءَهُ، فإنَّ قَوْلَكَ:

إنَّ الله سَمِيعٌ وبَصِيرٌ، وظاهِرٌ وباطِنٌ، ورؤُوفٌ ومُنْتَقِمٌ، ليس إلَّا تَعْبِيرَ معانٍ، فوق هذه الألفاظِ. وقد نَبَّهَنا اللهُ تعالى على ذلك فقال:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

أيْ: مثلاً: إنَّ اللهَ تعالى يَعْلَمُ، لا غيرُهُ، أنَّهُ كيف يَسْمَعُ، وكيف يُبصِرُ، أو كيف يَرْحَمُ، أو كيف يُعاقِبُ. فإنَّ هذه الصِّفاتِ فينا: انفعالٌ ثُمَّ فِعْلٌ، ثُمَّ هي زائِدَةٌ مُسْتَعارَةٌ، فتَنْقُصُ وتَزُولُ. وتَبْقَى بَعْضُها مع زَوالِ بَعْضِهِ، فلا تَلازُمَ بينَها.

وأمّا صِفاتُ الله فليستْ كذلك.

ـ فالآنَ نَرْجِعُ ـ من مَسْألَةِ التَّرْجَمَةِ قَبْلَ اسْتِقْصائِها؛ لِأَنَّها من عِلْمٍ آخرَ ـ، إلى ما يَعْنِينا. وهو أنَّ لِلأصْواتِ، من جِهَةِ جَرْسِها، دَلالةً على مَعْنَىً لِمُناسَبَةٍ بينهُما.

ولكن ليس كُلُّ لَفظٍ يَدُلُّ على مَعْناهُ بِهذا الطَّرِيقِ، فإنَّ الاشْتِقاقَ، والمَجازَ، تَقاذَفُ بِالألفاظِ من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ، وليس كُلُّ مَحَلٍّ مِمّا يَنْبَغِي فيه زِيادَةُ التَّصْوِيرِ، كما شَرَحْناهُ في بابِ قَواعِدِ التَّصْوِيرِ.

فأمّا إذا كان المَحَلُّ مُناسِباً، فيُعْطِيكَ الصَّوْتُ ـ لاسيَّما في لُغَةٍ وسِيْعَةٍ مِثْلِ لُغَةِ العَرَبِ ـ تَصْوِيراً لِمعناكَ من جِهَةِ دَلالَتِهِ على الفَخامَةِ، أو المَهانَةِ، وعلى الشِّدَةِ، أو اللِّينِ، وعلى الحِدَّةِ، أو الغِلْظَةِ. بل على صِفاتٍ أخصّ من هَذِهِ العامَّةِ.

ـ فالبَلِيغُ إذا أرادَ زِيادَةَ التَّصْوِيرِ:

ـ التَمَسَ مِن المُرادِفاتِ، أنْسَبَها بِالمَعْنى.

ـ فإنْ لم يَجِدْ بَدَّلَ الأُسْلُوبَ، فإنَّ الألفاظَ مُنْقادَةٌ لِلأساليبِ، وإلَّا لم يُمْكِنِ النَّظْمُ، أو السَّجْعُ، أو التَّرْصِيعُ، أو التّارِيخُ.

والماهِرُ بِفُنونِ الأُسْلُوبِ، يأتِيكَ بِكَلامٍ تَظُنُّ أنَّهُ لهو الظّاهِرُ المُتَبادَرُ، وما كان لِصاحِبِ الكلامِ مَحِيْصٌ عنهُ، ولَكِنَّهُ سَحَرَتْكَ صَنْعَتُهُ.

والعَجَبُ كُلُّ العَجَبِ، كيف غَلَبَ الوهْمُ، على صاحِبِ «دَلائِلِ الإعجازِ»، فزَعَمَ أنَّ المُتَكَلِّمَ لا يَعْنِيهِ إلَّا المعنى، ولا هَمَّ له في الألفاظِ مِن جِهَةِ جَواهِرِها. وخالَفَ جُمهُورَ العُلَماءِ.

فإنَّ تَصَرُّفَ البَلِيغِ، في أنْحاءِ الكلامِ، حتَّى يَصْطَفِي ما شاءَ من الألفاظِ المُناسِبَةِ مَعْنَىً وصَوْتاً، أَمْرٌ مَعْلُومٌ لا يَخْفَى إلَّا على مَنْ أضَلَّهُ الوهْمُ، وتَسَلَّطَ عليه

الوَلُوعُ بالمُبْتَدَعِ، فلا تَضِيقُ السُّبُلُ على البَلِيغِ عن الإِتْيانِ بِما يَشْتَهِي مِن اللَّفْظِ.

ـ وكما أنَّ لِلصَّوْتِ مُناسَبَةً بِمَعْنًى خاصٍّ.

ـ كذلك له مُناسَبَةٌ بِالمَقْصِدِ، فبَعْضُ الأغْراضِ يَسْتَدْعِي كَلاماً سَهْلاً، وبَعْضُها كَلاماً فَخِيماً جَزْلاً.

مثلاً: في الغَزَلِ، والآدابِ، لا يَلِيقُ مِن الأصْواتِ مافيه الشِّدَّةُ، والفَخامَةُ.

ـ وهكذا لِلصَّوْتِ مُناسَبَةٌ بِالمُتَكَلِّمِ، فإنَّ كَلامَ المُلُوكِ والحُكّامِ، يَنْبَغِي أنْ يَكُونَ أفْخَمَ من كَلامِ العامَّةِ.

ـ وهكذا يُراعَى جانِبُ المُخاطَبِ.

فهذه أرْبَعَةُ وُجُوهٍ لاخْتِيارِ الألفاظِ على صِفَةِ مُناسِبَةٍ من الصَّوْتِ.

وهذا أمْرٌ يَتَعَلَّقُ بِالأوزانِ والنَّغَمِ، كما هو المَعلومُ عند أصْحابِ هذا الفَنِّ، ولا نَـرَى الحاجَةَ إلى تَفصِيلِها، ولكِنّا لا نَطْوِي هذا البَحْثَ، قَبْلَ الإِيْرادِ بِبَعْضِ الأمْثِلَةِ لِمُناسَبَةِ الصَّوْتِ بِمَعْناهُ حَسْبَ الوُجُوهِ الأرْبَعَة.

فَصْلٌ في الوضاحة من جِهَةِ اخْتَيارِ المعاني:

ـ قد عَلِمْتَ في الفَصْلِ السّابِقِ، أنَّ مِلاكَ الوضاحة، تَعْيِينُ المعانِي وتَصْوِيْرُها.

وقد ذَكَرْنا ما كان يُمْكِنُ، من ضَمِّ بَعْضِ الألفاظِ مع بَعْضٍ، أو مِن اتِّخاذِ بَعْضِ البَدَلِ لها.

وكذلك ذَكَرْنا ما تَـيَسَّرَ لِلُغَةِ العَرَبِ، من طُرُقِ تَوْضِيحِ المعانِي، بِدَلالاتِ كَلِماتِها المُفْرَدَةِ، فهذا كُلُّ ما ذَكَرْنا كان من جِهَةِ النَّحْوِ، والاشْتِقاقِ، والصَّوْتِ.

والآنَ نُرِيدُ أنَّ نَذْكُرَ ما يُعْطِي الكَلامَ وضاحَةَ الصُّورَةِ، مِن اخْتِيارِ المَعانِي المُناسِبَةِ لِلشَّيْءِ، ونُمَثِّلُهُ من كَلامِ العَرَبِ.

ـ فاعلمْ أنَّ العَرَبَ، كما أنَّهُمْ اختاروا للمعاني من الألفاظِ، ما يَكُونُ أحْسَنَ تَصْويراً لها، فكذلك إنَّهُم اختارُوا لها مِن المعاني، ما يَكُونُ أرْفَقَ لِتَوضِيحِها ورَفْعِ إبْهامِها، فإذا ذَكَرُوا شَيئاً، لم يُهْمِلُوهُ غُفْلاً، مُتوهَّماً. بل ذَكَرُوا معهُ جارَهُ وخَلِيطَهُ، فلا ترى معانِيَهُم كَهَباءٍ هافياً[1] في هَواءٍ، أوغُثاءً طافياً على ماءٍ، فكما أنَّهُمْ يُصَوِّرُونَ الصِّفاتِ قائِمَةً بِجَواهِرِها، لكي يُطابَقَ الحاكِي بِالمَحْكي، فكذلك يُزَوِّجُونَ أفْرادَ المعاني، بِقُرَنائِها لِيُطابَقَ التَّصْوِيرُ بِالمُصَوَّرِ.

ـ فلذلك تَراهُم إذا وقَفُوا على مَنْزِلٍ قَفْرٍ لِلأحِبَّةِ، يَبْكُونَ لِذِكْراهُم، صَوَّرُوهُ لك بَما حَوْلَهُ، ورُبَّما وجَّهُوكَ إليه، كأنَّكَ تَراهُ، فسَمَّوا دِياراً أُخَرَ على جَوانِبِهِ. فإذا قَرأتَ أشْعارَهُمْ، ظَنَنْتَ نَفْسَكَ معهُمْ، حَتَّى إنْ شِئْتَ جَمَعْتَ من أشْعارِهِمْ، جُغْرافيةً تُخْبِرُ عن خَواصِّ كُلِّ بُقْعَةٍ من بِلادِ العَرَبِ.

ـ ولذلك تَراهُم في التَّشْبِيبِ، يُسَمُّونَ الحَبِيبَ، بل يَلْتَذُّونَ بِذِكْرِهِ، كما ترى النَّابِغَةَ وغيرَهُ، وفي المَدْحِ والرِّثاءِ كذلك يُسَمُّونَ، بل يُكْثِرُونَ بِذِكْرِ اسْمِ المَرْثِيِّ.

ـ وفي ذِكْرِ حُرُوبِهِم، يَذْكُرُونَ أسْماءَ مَواضِعِ القِتالِ، ومَمَرَّ جُيُوشِهِم، ويُصَوِّرُونَ هَيْئَةَ الأرْضِ والبِلادِ، كما أنَّهُم في مَراثِيهِم يَذْكُرُونَ مَصارِعَ الأبْطالِ ومَواقِعَ الأجْداثِ.

ـ وكذلك في مُنافَرَتِهِم، يَذْكُرُونَ نَسَبَهُم، وأسْماءَ رِجالِ عَشائِرِهِم، وأسْماءَ مَنْ غَلَبُوا عليهم، ويُلْمِعُونَ إلى وقائِعِهِم المَشْهُورَةِ، كما تَرى في قَصِيدَةِ عَمْرِو

---

(١) الهَباءُ: الشيء المُنْبَثُّ الذي تراه في البيت من ضوء الشمس. والهَباءُ أيضاً: دُقاقُ التراب. ويقال له إذا ارتفع: هَبا يَهْبو هَبْواً، وأهْبَيْتُهُ أنا. والهَبْوَةُ: الغَبَرَةُ. الصحاح للجوهري، مادة: (هبا). والهَفْوُ: الذَّهابُ في الهَواءِ. انظر: تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزَّبيدي، مادة: (هفي).

ابْنِ كُلْثُومٍ(١)، وحارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ(٢)، ومُهلْهِلٍ(٣) وغيرِهِمْ.

(١) عمرو بن كلثوم (... ـ نحو ٤٠ ق هـ = ... ـ نحو ٥٨٤م) عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب، من بني تغلب، أبو الأسود: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى. ولد في شمالي جزيرة العرب في بلاد ربيعة. وتجول فيها وفي الشام والعراق ونجد. وكان من أعز الناس نفساً، وهو من الفتاك الشجعان. ساد قومه (تغلب) وهو فتى، وعمِّر طويلاً. وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند. أشهر شعره معلقته التي مطلعها:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا

يقال: إنها كانت في نحو ألف بيت، وإنما بقي منها ما حفظه الرواة، وفيها من الفخر والحماسة العجب. مات في الجزيرة الفراتية. وكان يقال: فتكات الجاهلية ثلاث: فتكة البراض بعروة، وفتكة الحارث بن ظالم بخالد بن جعفر، وفتكة عمرو بن كلثوم بعمرو بن هند الملك، فتك به وقتله في دار ملكه بين الحيرة والفرات، وهتك سرادقه، وانتهب رحله وخزائنه وانصرف. انظر: طبقات فحول الشعراء: ١/ ١٥١، الشعر والشعراء: ١/ ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، الأعلام: ٥ / ٨٤.

(٢) الحارث بن حلزة (... ـ نحو ٥٠ ق هـ = ... ـ نحو ٥٧٠م) بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي: شاعر جاهلي، من أهل بادية العراق. وهو أحد أصحاب المعلقات. كان أبرص فخوراً، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك، بالحيرة، ومطلعها:

آذنتنا ببينها أسماء

جمع بها كثيراً من أخبار العرب ووقائعهم. وفي الأمثال: «أفخر من الحارث بن حلزة» إشارةً إلى إكثاره من الفخر في معلقته هذه.

له ديوان شعر مطبوع. انظر: المؤتلف والمختلف: ص١١٢، والشعر والشعراء: ١/ ١٨٧، ١٩٣، ٢٢٧، ٢٥٥، ورجال المعلقات العشر: ص٤٨-٤٩، والأعلام: ٢/ ١٥٤.

(٣) المهلهل (... ـ نحو ١٠٠ ق هـ = ... ـ نحو ٥٢٥م) عدي بن ربيعة بن مرة بن هبيرة، من بني بجشم، من تغلب، أبو ليلى، المهلهل: شاعر، من أبطال العرب في الجاهلية. من أهل نجد. وهو خال امرئ القيس الشاعر. قيل: لقب مهلهلاً؛ لأنه أول من هلهل نسج الشعر، أي: رققه. وكان من أصبح الناس وجهاً، ومن أفصحهم لساناً. عكف في صباه على اللهو والتشبيب بالنساء، فسماه أخوه كليب (زير النساء) أي: جليسهن. ولما قتل جساسُ بن مرة كليباً ثار المهلهل، فانقطع عن الشراب واللهو، وآلى أن يثأر لأخيه، فكانت وقائع بكر =

ـ ومن هذا الأصلِ، يَتفرَّعُ أنَّهُمْ رُبَّما لا يَقْنَعُونَ بتَشْبيهِ الشيءِ بالشيءِ، حتَّى يُصَوِّرُوا المُشَبَّهَ بالتَّفصِيلِ، كما تَجِدُهُ في كَلامِ هُومِرُوسْ، فهذا تَصويرُ المشبّه يَنْفُثُ في التَّشْبيهِ سِحْراً، لَوْلاهُ لكان جامِداً عاطِلاً.

مثلاً: «زَهْراءُ كالنَّجْمِ» ليس مِثْلَ ما قال شَيْخُنا الفَيْضُ:

زَهْـراءُ نَـيِّـرَةٌ كالنَّجْـمِ فـي الأُفُـقِ ....

فَبِضَمِّ كَلِمَتَيْ «نَـيِّـرَةٌ»، و«في الأُفُقِ» صَوَّرَ الشَّيْءَ، وبِزِيادَةِ قولِهِ: «نَـيِّـرَةٌ» مَكَّنَ في نَفْسِكَ صُوْرَةَ النورِ، وبِزِيادَةِ قولِهِ: «في الأُفُقِ» مَثَّلَهُ بين يَدَيْكَ كأنَّكَ تَراهُ.

ـ وهكذا دَأْبُهُم في كُلِّ أمْرٍ يأتُونَ بِذِكْرِهِ، من الصَّيْدِ، والسِّباقِ، والحَرْبِ، والشَّجاعَةِ، والسَّيْرِ، والنُّعاسِ، والجُودِ، والضِّيافةِ، والغَزَلِ، والسُّكْرِ، والمَدْحِ، والنِّياحَةِ.

فلا يَذْكُرُونَ شيئاً، إلَّا وهُم يَنْشُرُونَ بين يَدَيْكَ صَفَحاتٍ مُصَوَّرَةً. بل يَخْتَلِسُونَكَ عنكَ، ويُوقِفُونَكَ بإزاءِ الشيءِ، فكأنَّهُم اسْتَوْدَعوا أشْعارَهُم جُغْرافِيَّتَهُم، وتارِيْخَهُم، وحِكَمَهُم، وشَمائِلَهُم، حتَّى إنَّ كُلَّ مَنْ يَقْرأُ أشْعارَهُم ـ غيرَ غافِلٍ ـ يَعرِفُهُم كأنَّهُ أقامَ فيهم وعاشَرَهُم، ولِذلك قالوا قَدِيماً: «الشِّعْرُ دِيْوانُ العَرَبِ»[1].

ـ وفيما قُلْنا، ليس إلَّا إشارَةٌ إلى جُمْلَةِ الأمْرِ.

= وتغلب، التي دامت أربعين سنة، وكانت للمهلهل فيها العجائب والأخبار الكثيرة. أما شعره فعالي الطبقة. انظر: طبقات فحول الشعراء: ١/ ٣٩، ٤٠، وخزانة الأدب للحموي: ٢/ ٧٧، ١٦٥، ١٦٨، ١٧١، ١٧٢، والأعلام: ٤/ ٢٢٠.

(١) أخرج الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: ٤/ ٣٤٦، حديث رقم ١٦١٤، عن ابن عباس، قال: إذا سألتموني عن عربية القرآن، فالتمسوه بالشعر، فإن الشعر ديوان العرب. وأخرج الطبري في تهذيب الآثار: ٢/ ٤٣٠، حديث٥٤٧، عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال: الشعر ديوان العرب، هو أول علم العرب، فعليكم بشعر الجاهلية، شعر أهل الحجاز.

فأمّا طُرُقُهُم إلى تَصْوِيرِ المَعاني الخاصَّةِ، فلا أدْرِي كيف أكْشِفُ عنها، دُوْنَ أنْ نُورِدَ نُبْذَةً من الأمْثِلَةِ، من غيرِ إطالَةِ الكلامِ فيها، فَصَمِّمْ إلى الأمْثِلَةِ الآتِيَةِ تأمُّلَكَ، وألْمِمْ بها، بل خَيِّمْ عليها، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لك، فإني لا أُحِبُّ الإسْهابَ، ونُحْسِنُ الظَّنَّ بِعَقْلِكَ.

فإنَّ هذا حَدِيْثُ تَصْوِيرِ الشيءِ، ذُو أفانِينَ، لا نستَطِيعُ استِقصاءَها. فَلْيَكْفِنا منه قَدْرٌ صالِحٌ يُبَيِّنُ لك ما نُرِيدُ، ويُصَوِّرُ لك ما أشَرْنا إليه.

فإذا انْكَشَفَ لك سَبِيْلُهُم، رأيْتَ أنَّ أشْعارَهُم قد تَضَلَّعَتْ منه، حَتَّى تَجِدَ جُمْهُورَ مَحاسِنَها منه، لا من التَّشبيهِ، كما زَعَمُوا. بل التَّشْبِيهُ فَرْعٌ منه، فالأمْثِلَةُ الآتِيَةُ قِسْمانِ:

ـ الأوَّلُ: ما ليس فيه تَشْبِيهُ شيءٍ بِشيءٍ.

ـ والقِسْمُ الثّانِي: أشْعارٌ فيها التّشبيهُ الصّادِقُ، المُصَوِّرُ لِلأصْلِ حَقَّ التَّصْوِيرِ، لا ما اسْتَحْسَنوهُ من التَّشْبِيهاتِ الغالِيَةِ، لكي تَعْلَمَ أنَّ حُسْنَ الكلامِ في الصِّدْقِ، وكمالَ التَّصْويرِ في المُطابَقَةِ بِالمُصَوَّرِ.

ـ قال امْرُؤُ الْقَيْسِ يَصِفُ حالَتَهُ وأصْحابَهُ بعد الصَّيْدِ:

فقلت لِفِتْيانٍ كِرامٍ ألا انْزِلُوا ... فَعالوا علينا فَضلَ ثَوبٍ مُطَنَّبِ[1]

وأوتادُهُ ماذِيَّةٌ وعِمادُهُ ... رُدَيْنِيَّةٌ فيها أسِنَّةُ قَعْضَبِ[2]

---

(١) قوله: «فعالوا علينا»، أي: ردوا علينا ورفعوا فضل الثوب، أي: أظلونا به، وستروا من حرّ الشمس. والمطنَّب: المشدود بالأطناب، وهي حبال الخِباء.

(٢) يقول: لما فرغنا من الصيد أقمنا من برودنا وأسلحتنا بيتاً نستظل به، فوصف أنهم عمدوا إلى أرماحهم فنصبوها وجعلوا عليها ثوباً، وربطوا أسفل الثوب بدروعهم فأقاموها مقام أوتاد الخباء. والماذيَّة: الدرع الصافية اللينة. والردينيّة: رماح نسبت إلى رُدَيْنَة، امرأة كانت =

وأطْنابُـهُ أشْـطانُ خُـوصٍ نَجائِبِ وصَهْوَتُهُ مِنْ أتْحمِيٍّ مُشَـرْعَبِ[١]

فَـلَمّـا دَخَلْنـاهُ أضَفْنـا ظُـهُورَنـا إلى كُـلِّ حارِيٍّ جَدِيْدٍ مُشَـطَّبِ[٢]

نَـمُـشُّ بِـأعْـرافِ الجِيـادِ أكُـفَّنـا إذا نَحْنُ قُمْنا عن شِواءٍ مُضَهَّبِ[٣]

لم يأخُذْ من الأُمُورِ، إلّا كُلَّ ما صَوَّرَ لك الحالَ، وليس فيه غُلُوٌّ ولا تَفرِيطٌ. فهذه الألفاظُ اليَسِيرَةُ، أخْبـرَتْكَ عن كُلِّ ما اخْتُصَّ بِهِم، فإنْ زادَ على ذلك، كان سَمِيجاً، وإنْ تَـرَكَ منه شيئاً كان التَّصوِيرُ ناقِصاً ـ وقال امْرُؤُ الْقَيسِ يَصِفُ رامِياً:

رُبَّ رامٍ مِـنْ بَنِـى ثُـعَـلٍ مُـتْـلِـجٍ كَـفَّـيْـهِ مـن قُـتَـرِهْ[٤]

= تبيع الرماح. وقَعْضَب: اسم رجل كان يعمل الأسنَّة من بني قُشَير، ويقال: هو زوج رُدَيْنَة.

(١) قوله: «وأطنابه أشطان خُوص»، أي: أطناب هذا البيت حبال إبلِهم. والخُوص: الغائرة العيون، وهي مما توصف به، وقيل: إنما ذلك من الجَهْد وشدّة السَّيْر. وصهوته: أعلاه. والأتحميّ: ضَرْب من بُرود اليمن. والمُشَرْعَب: المصنَّف.

(٢) يقول: لما دخلنا هذا البيت أمَلْنا ظهورَنا وأسندناها إلى كلّ رحل حاريّ، أي: منسوب إلى الحِيرة، والرِّحال تُنْسَب إليها. وقيل: أراد بذلك الاحتباء بحمائل السيوف الحِيريَّة. والمشطَّب: الذي فيه خطوط وطرائق كمدارج النَّمْل. وشُطَب السيف: طرائقه، وهذا يقوّي قول من جعل الحاريّ السيف، ومن جعله الرحل فيقويه قول النابغة: مشدودة برحال الحِيرة الجُدُد.

(٣) قوله: «نَمُشُّ بأعراف الجياد أكفَّنا»: نمسح، ومنه سُمِّي المندِيل مَشُوشا. والمضهَّبُ: الذي لم يُدرك نُضْجه، يصف أنهم شووا من صيدهم ولم يَبْلُغوا به النضج؛ لما كانوا فيه من العَجَلة. وقيل: إن ذلك مستحبّ عندهم في لحم الصيد. انظر: ديوان امرئ القيس ص٥٣، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار المعارف، ط٢، ص٥٢-٥٣.

(٤) في الأصل: «رام ن» وهو خطأ مطبعي. بنو ثُعَل: قبيلة من طيء ينسب الرمْيُ إليهم؛ منهم عمرو ـ وهو رجل صائد من أرمى العرب ـ صاحب القُتَر. وقوله: «مُتْلج كفَّيه» أي: يدخل كفيه في القُتَر ـ وهي بيوت الصائد التي يكمن فيها؛ لئلا يَفطِن له الصيد فيَنْفِرَ منه.

عــارِضٍ زَوْراءَ مِـنْ نَـشَـــمٍ   غَـيْـرِ بـانـاةٍ على وتَــرِهْ[١]
قَــدْ أتَـتْــهُ الـوحْـشُ وارِدَةً   فَـتَنَحَّى النَّزْعُ فـي يَسَـرِهْ[٢]
فَـرَمَـاهـا فـــي فَـرائِـصِـهـا   بِـإزاءِ الحَـوْضِ أو عُـقُــرِهْ[٣]

---

(١) قوله: «عارض زوراء»، يعني هذا الرامي عَرض هذه الزوراء ـ وهي القوس المائلة الجوانب ـ لِيَرمِيَ بها؛ وإنما يرمي عن القوس العربية بالعرض. وقوله: «غير باناة» أراد غير باينة، ثم قلبه فصار: «غير بانية»، ثم قلب كسرة النون فتحة فانقلبت الياء ألفاً؛ وهذا لغة من يقول للبادية: باداة، وهي لغة فاشية في طيئ؛ وإنما جعل القوس غير بائنة عن الوتر؛ لأن الوتر يلصق بكبد القوس، فإذا وقع الوترعلى كبد القوس كان أشد على الرامي، وأبعدَ لذهاب سهمه منه إذا كانت القوس بائنة عن الوتر؛ وذلك أهون على الرامي، وأقل لذهاب سهمه. وقوله: «على وتره»، أراد: «عن وتره»، والهاء في وتره راجعة على الرامي. وقال أبو الخطاب: يقال: «رجْل باناة»، وهو الذي يَحْنِي صُلْبَهُ إذا رمى فيذهب سهمه على وجه الأرض، وذلك عيب فيقول: هذا الرامي غير باناة؛ أي: غير منحنٍ على الوترعند الرمي. وأنشد أبو حاتم عن ابن الكلبي:

وما كنت باناةً على القوس أخضعا

فنفى عن نفسه أن ينحنيَ على قوسه ويخضع. وقوله أيضاً:

وماكنت باناةً على القوس نأناً
ـ أي: ضعيف ـ ولكنّ رأسي مقمَحٌ حين أنزعُ

يقول: رفعت رأسي ولا أحني صلبي، فعلى هذا التفسير يكون: «غير باناة» من صفة الرامي؛ فيجوز فيها الخفض على النعت، والنصب على الحال من الضمير في «عارض». وعلى التفسير الأول تكون منصوبة نعتاً للزوراء.

(٢) قوله: «فتنحّى النزع»، تحرّف حِيالَ وجهِه، والنزع: مد اليد في الرمي. وقوله: «في يسره» يريد قبالة وجهه وجبهته، يقال: طعنه يَسْراً ويَسَراً، إذا طعنه قُبالَةَ وجهه.

(٣) قوله: «فرماها في فرائصها»، وصفه بالحذق في الرمي، فهو يصيب المقاتل. والفرائص: جمع فريصة؛ وهي بضعة في مَرْجِع الكَتِف تتصل بالفؤاد؛ وهي مقتل. والإزاء: مُهراق الدلْو ومَصَبُّها من الحوض. وعُقُر الحوض: مقام الشاربة، وهي موضع أخفاف الإبل عند =

بِرَهِيْشٍ مِنْ كِنانَتِهِ كَتَلَظِّي الجَمْرِ في شَرَرِهْ[١]

راشَهُ مِنْ رِيشِ ناهِضَةٍ ثُمَّ أمْهاهُ على حَجَرِهْ[٢]

فَهُوَ لا تَنْمِي رَمِيَّتُهُ مالَهُ لا عُدَّ مِنْ نَفَرِهْ[٣]

مُطْعَمٌ لِلصَّيْدِ ليس لَهُ غَيْرَها كَسْبٌ على كِبَرِهْ[٤]

= الورود؛ وإنما يصف أن هذا الراميَ أرصدَ للوحش عند الماء؛ حتى إذا وردت واطمأنت، رماها وأصاب مَقاتلها؛ لأن اعتماد الرامي أكثر مايكون على يساره.

(١) الرَّهيش: السهم الخفيف. والكنانة مثل الجعبة للسهام. قوله: «كتلظِّي الجمر» من حدتها وبريقها كما يتوهج الجمر. وقوله: «في شرره» من تتميم وصف الجمر لشدة التحرق والالتهام.

(٢) قوله: «راشه من ريش ناهضة»، أي: جعل للسهم ريشاً من ريش فرخٍ من فراخ النسور أو العقبان حين نهض؛ وإنما خص ريش الفرخ لأن ذلك أرقُّ له وأخفُّ من أن يكون ريش طائر، وأدخل الهاء في «ناهضة» للمبالغة؛ كما قيل: نسابة وعلَّامة؛ ومعنى «أمهاه»: أرقَّهُ وحدَّدَهُ.

(٣) قوله: «فهو لاتَنْمَى رميَّتُهُ»، أي: لاتَنْهَضُ بالسهم وتغيب عنه؛ بل تسْقُط مكانها؛ لإصابته مقتلها، يقال: نمتِ الرَّمية، وأنماها الرّامي، إذا مضت بالسهم فغابت عنه؛ ويقال: رمى الصيد فأصماه، إذا قتله مكانه؛ ومنه الحديث: «كُلْ ما أصْمَيْتَ، وَدَعْ ما أنْمَيْتَ». وقوله: «لا عُدَّ مِنْ نَفَرِه»، دعاء عليه على وجه التعجب منه؛ كقول القائل للمُجيدِ المحسن: أخزاه الله، وقاتله الله! وأنشد الفرزدقُ بيتاً من الشعر جيّداً فقال: هذا البيت مُخْزٍ، يريد أنه إذا أنشِد قيل لصاحبه: أخزاه الله، ما أشْعره! فيقول: إذا عُدَّ نَفَره فلا وجِدَ فيهم! دَعا عليه بالفقود.

(٤) قوله: «مطعم للصيد»، أي: لا يكاد سهمه يخطئ، يقال: صائد مطعم إذا كان ممدوحاً في الصيد مرزوقاً. وقوله: «ليس له غيرها كسب» أي: ليست له حرفة يكتسب بها غير الرماية والصيد، على أنه كبير مسن، وهذا الرامي مذكور في المعمرين، ويحكى أنه أدرك النبي ﷺ. انظر: كتاب المعمرين ص٧٧، وفيه: «وروي أنه أدرك عثمان رضِيَ الله عنه». ديوان امرئ القيس: ص١٢٣-١٢٦.

ـ في عَجزِ البَيْتِ الخامِسِ تَشْبِيهٌ حَسَنٌ. ولكِنَّ المُرادَ هاهُنا غيرُ ذلك العَجُز.

انْظُر كيف يُعطِيك خَصائِصَ الحِكايَةِ، وكُلِّ أمْرٍ يَجْعَلُ البَيانَ عَياناً.

ـ قال امْرُؤُ القَيْسِ يَصِفُ حالَةَ السُّكْرِ:

ونَشْرَبُ حَتَّى نَحْسِبَ الخَيْلَ حَوْلَنا   نِقاداً وحَتَّى نَحْسِبَ الجَوْنَ أشْقَرا[1]

ـ لم يَخْتَرْ من تَبَدُّلِ الأشْياءِ على حَواسِّهِ بعد السُّكْرِ، إلَّا ما كان يَقَعُ له ولِقَوْمِهِ. وفي حُسْنِ بَيانِهِ وتَصْوِيرِ حالِهِ.

ـ قال امْرُؤُ القَيْسِ يَصِفُ سَكْرَةَ المَوْتِ:

كأنَّ الفَتَى لَم يَغْنَ في النَّاسِ ساعَةً   إذا اخْتَلَفَ اللَّحْيانِ عند الجَرِيضِ[2]

ـ فهذا اخْتِلافُ «اللحيان» أقْرَبُ شيء لِتَصْوِيرِ المَوْتِ، كأنَّكَ ترى المَيِّتَ تَفيضُ نَفْسُهُ.

ـ قال الحاتِمُ[3] الطّائِي يُصَوِّرُ سَخاءَهُ وحُكْمَهُ على أموالِهِ:

---

(١) قوله: «ونشرب حتى نحسب الخيل»، أي: نشرب حتى يُذْهِبَ السُّكْرُ عُقُولَنا، ويحيِّر أبصارَنا، حتى لا نفرق بين المتضادَّين؛ من صغير وكبير، وجَوْن وأشقر؛ والنِّقاد: غنم صغار. والجوْن: الفرس الأسود. انظر: ديوان امرئ القيس، ص٧١.

(٢) قوله: «كأن الفتى لم يغن في الناس»، أي: كأنه إذا حضرته الوفاة، وجَرِض بريقه، واختلف لَحْياه عندالموت، لم يُقِم في الناس، ولا عاش بينهم؛ لأنه يصير إلى الانقطاع والعدم، فكأنه ماكان. انظر: ديوان امرئ القيس، ص٧٧.

(٣) حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني (... ـ ٤٦ ق هـ = ... ـ ٥٧٨م)، أبو عدي: فارس، شاعر، جواد، جاهلي. يضرب المثل بجوده، كان من أهل نجد، وزار الشام، فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية، ومات في عوارض (جبل في بلاد طيئ). قال ياقوت: وقبر حاتم عليه. شعره كثير، ضاع معظمه، وبقي منه «ديوان» صغير ـ ط. وأخباره =

فَـقِدْمـاً عَصَيْـتُ العـاذِلاتِ وسُـلِّطَتْ على مُصْطَفَى مالـي أنامِلي العَشْـرُ[١]

ـ انظُرْ كيف صَوَّرَ كمالَ التَّصَرُّفِ، والحُكْمَ على شيءٍ، بِتَصْويرِ القَبْضِ بأنامِلِهِ العَشْرِ.

ـ قال الحاتِمُ يُصَوِّرُ قِلَّةَ غَناءِ المالِ عن صاحِبِهِ الَّذي لا بُدَّ تارِكُهُ:

أمـاوِيّ! مـا يُـغْـنِـي الثَّـراءُ عـن الفَتَى إذا حَشْـرَجَتْ نَفْسٌ وضـاقَ بِها الصَّدْرُ

إذا أنـــا دَلَّانِـي الَّـذيـنَ أُحِـبُّـهُـم لِـمَلْحُـودَةٍ زَلْـجٍ جَـوانِـبُـهـا غُـبْـرُ

وراحُـوا عِجـالاً يَـنْـفُـضُـونَ أكُفَّهُـمْ يَـقُولُـونَ قَـدْ دَمَّـى أنـامِـلَنـا الحَفْـرُ

تَـرَيْ أنَّ مـا أهْلَكْـتُ لـم يَـكُ ضَرَّنِـي وأنَّ يَـدِي مِمّا بَخِلْـتُ بِــهِ صِـفْـرُ[٢]

ـ فهاهُنا صَوَّرَ حالَ المَوْتِ والخِذْلانِ، كأنَّكَ ترى الَّذي يُدْفَنُ ويُخْذَلُ.

وفي هذه الأشْعارِ حَرَكاتٌ مُحاكِيَةٌ.

ـ قال قَيْسُ بْنُ الخَطِيم الجاهِلِي[٣] يَصِفُ طَعْنَةً واسِعَةً:

= كثيرة متفرقة في كتب الأدب والتاريخ. وأرخوا وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبي ﷺ. انظر: نهاية الأدب في معرفة أنساب العرب، ص٣٢٦، وخزانة الأدب للبغدادي: ١/ ٣٢١، ٣/ ٧٣، ٤/ ٢١٨، ٧/ ٣٧٥، ٣٧٩، ٩/ ٤٠٠، والأعلام: ٢/ ١٥١.

(١) هذا البيت جاء ختاماً لقصيدة تقع في ثمانية عشر بيتاً، بدأها ببيت وحيد في الهجران، ثم انبرى يخاطب زوجه ماوية، ويبين لها منزلة المال عنده، وغايته، وبعض أخلاقه الأخرى. انظر: ديوان حاتم الطائي، ص٢١٧، تحقيق د. عادل سليمان، مكتبة الخانجي، ط٢، القاهرة، ١٩٩٠.

(٢) انظر: ديوان شعر حاتم الطائي، بتحقيق الدكتور عادل سليمان، ص١٩٩-٢٠١.

(٣) قيس بن الخطيم (...ـ نحو ٢ ق هـ = ...ـ نحو ٦٢٠م) قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي، أبو يزيد: شاعر الأوس، وأحد صناديدها في الجاهلية. أول ما اشتهر به تتبعه قاتلي أبيه وجده حتى قتلهما، وقال في ذلك شعراً. وله في وقعة (بعاث) التي كانت بين الأوس =

طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ القَيْسِ طَعْنَةَ ثائِرٍ لَها نَفَذٌ لَوْلا الشُّعاعُ أضاءَها[١]

مَلَكْتُ بِها كَفِّي فأَنْهَرْتُ فَتْقَها يَرَى قائِمٌ مِنْ دُونِها ما وراءَها[٢]

فقد صَوَّرَ لك سَعَةَ الجِراحَةِ، وما شَبَّهَ شَيئاً بِشيءٍ، وانظُرْ إلى إصابَتِهِ التَّخَيُّلَ، فلم يَتْرُكْ من التَّصْويرِ ظاهِراً وباطِناً، أظْهَرَ باعِثَ الطَّعْنَةِ، وحالَةَ الكَفِّ، وحَرَكَتَها، ثُمَّ صَوَّرَ النَّفَذَ، وجَلَّى شَكَّ مُرْتابٍ، بِأنْ اسْتَدْرَكَ قولَهُ ـ لها نَفَذٌ ـ بِأنَّ المُتَطايِرَ من الدَّمِ وهُدّابِ اللَّحْمِ سَدَّ النَّفَذَ.

ـ ولا تَظُنَّ قَوْلَهُ: «ثائِرٌ» يُظْهِرُ التشبيهَ، فإنَّهُ أرادَ بِثائِرٍ نَفْسَهُ، فهو بَيانُ حالَتِهِ، فإنَّهُ يَقُولُ بعد هذه الأشْعارِ:

ثأَرْتُ عَدِيّاً والخَطِيْمَ فَلم أُضِعْ وِلايَةَ أشْياخٍ جُعِلْتُ إزاءَها[٣]

= والخزرج، قبل الهجرة، أشعار كثيرة. أدرك الإسلام وتريث في قبوله، فقتل قبل أن يدخل فيه. شعره جيد، وفي الأدباء من يفضله على شعر حسان. له «ديوان» ـ ط. انظر: طبقات فحول الشعراء: ١/ ٢١٥، ٢٢٣، ٢٢٨، والمؤتلف والمختلف، ص١٤١، وخزانة الأدب للبغدادي: ٧/ ٣٤، والأعلام: ٥ / ٢٠٥.

(١) صور لنا الشاعر في هذين البيتين الطعنة بوضوح، وكأننا نراها، ولم يترك من التصوير شيئاً، صور حالة الكف عند الطعنة وحركتها، كما صور نفاذ الطعنة، وأنها أحدثت فجوة في البدن بحيث يرى الواقف أمامها ماوراءها، وكأنه لم يطعنه، وإنما فتح فيه باباً! قوله: «لها نفذ»: أي نفذت. «الشعاع»: حمرة الدم، ويروى: «لولا الشَّعاع» بفتح الشين، وهو انتشار الدم. يقول: لولا الدم أضاءت حتى ستبين.

(٢) ملكت: أي شددت. أنهرت: أجريت الدم. قال الأصمعي: هذا من الإفراط، وحكى الكسائي: ينهرن الأنهار، أي: يحفرونها. وجاء في «ديوانه»:

يرى قائماً من خلفها ما وراءها

انظر: ديوان قيس بن الخطيم، ص٢٢، بتحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، وأحمد مطلوب، طبع مطبعة العاني بغداد، ط١، ١٩٦٢م.

(٣) يقال: ثأرت فلاناً، وثأرت بفلان، إذا طلبت قاتله، والثائر: الطالب، والمثؤور به: الميت، =

ـ فإنْ تَجِدْ في الشِّعْرِ حُسْناً، فهو ليس إلَّا من جِهَةِ الصِّدْقِ، وقِيامِهِ على حَدِّ الحَقِيْقَةِ.

ـ قال امْرُؤُ القَيْسِ يَذْكُرُ حُزْنَهُ حين أتَى دِيارَ الأحِبَّةِ وقد أقْفَرَتْ عنهُمْ:

غَشِيْتُ دِيارَ الحَيِّ بِالبَكَراتِ فَعارِمَةٍ فَبُرْقَةِ العِيَراتِ[١]

فَغَوْلٍ فَحِلِّيتٍ فأكنافِ فمَنْعِجٍ إلى عاقِلٍ والحب ذو الأمَراتِ[٢]

ظَلِلْتُ رِدائِي فوق رأسِي قاعِداً أعُدُّ الحَصَى ما تَنْقَضِي عَبَراتِي[٣]

ـ فانظر كيف صَوَّرَ لك الأمْكِنَةَ، وهذا أمْرٌ شائِعٌ فيهم. ثُمَّ انظرْ كيف صَوَّرَ لك حالَتَهُ في الحُزْنِ، ومَحاسِنُ التَّصْويرِ لا تَحْتاجُ الشَّرْحَ، وما عَلِمْتُ أحَداً جاءَ بِتَصْويرِ الباكِي، يَكُونُ مِثْلَهُ، وقد ذَهَبُوا فيه كُلَّ مَذْهَبٍ.

ـ قال امْرُؤُ القَيْسِ يَصِفُ مَرَضَهُ، ويَذْكُرُ أوانَ الصِّحَةِ والشَّبابِ:

فإمّا تَرَيْنِي لا أُغَمِّضُ ساعَةً مِنَ اللَّيْلِ إلَّا أنْ أُكِبَّ فأنْعَسا[٤]

= والثأر: المطلوب، والثؤرة المصدر. وجعلت إزاءها: أي جعلت القيم بها، يقال: هو إزاء مالٍ، أي: يقوم عليه. انظر: دبوان قيس بن الخطيم، ص٢١.

(١) البكرات: جُبيلات بطريق مكة، كأنها شبِّهت بالبكرات من الإبل. والبُرقة: أرض فيها حجارة ورمل. والعِيرات هنا: مواضع الأعيار. وعارمة: موضع. ويروى: «عاذمة» بالذال.

(٢) وغَوْل وحلِّيت ونفء ومنعج كلها مواضع. وعاقل: جبل. والأمَرات: الأعلام، واحدها أمَرَة، وهي الجبيل الصغير؛ وهي مثل الصُّوى، وصف أن الديار التي غشيها مستقرة بين هذه المواضع.

(٣) قوله: «ظللت ردائي فوق رأسي»، أي: لما غشيت الديار فوجدتها مقفرة متغيرة قعدت متذكراً باكياً ماتنقضي دموعي. وقوله: «أعد الحصى»؛ يصف أنه كان يعبث بالحصى، ويقلبه بين يديه؛ وهو من فعل المحزون المتحير. انظر: ديوان امرئ القيس: ص٧٨.

(٤) وقَوله: «فإما تريني لا أغمض ساعة» يصف أن فيه منها داء يمنعه النوم، فلا ينام منه شيئاً إلَّا أن يُكِبَّ فينعسَ. والإكباب: ملازمة الشيء مع انعطاف عليه وانحناء.

فَيـا رُبَّ مَكْـرُوبٍ كَـرَرْتُ وراءَهُ   وطاعَنْتُ عَنْهُ الخَيْلَ حَتَّى تَنَفَّسا[١]

ويـا رُبَّ يَـوْمٍ قَـدْ أرُوْحُ مُـرَجَّـلاً   حَبِيْباً إلى بيض الكَواعِبِ أمْلَسا[٢]

ومـا خِفْتُ تَـبْرِيحَ الحَياةِ كما أرى   تَـضِيـقُ ذِراعِي أنْ أقُومَ فألبَسـا[٣]

ـ تأمَّلْ كيف صَوَّرَ حالَتِي المَرَضِ ونِعْمَةَ الشَّبابِ، وذَكَرَ من الحالَـتَيْنِ أمْرَيْنِ، وجَمع فيها كُلَّ ما يُخْبِرُ عن كَثِيْرٍ وراءَها لم يُذْكَرْ، ثُمَّ ليس في الشِّعْرِ إلَّا بَيانَ الحالَةِ من غيرِ غُلُوٍّ.

ـ قال الحاتِمُ يُصَوِّرُ الشِّتاءَ، ولَهُم فيه مَذاهِبُ شَتَّى من تَصْويرِ شِدَّةِ الرِّيْحِ، وشِدَّةِ القَرِّ، وتَساقُطِ أوراقِ الشَّجَرِ، وشُحِّ النّاسِ وشَقائِهِمْ:

وإنِّـي لَيَغْشَـى أبْعَدُ الحَـيِّ جَفْنَتِي   إذا ورَقُ الطَّلْحِ الطِّوالِ تَحَسَّـرا[٤]

---

(١) وقوله: «كررت وراءه»، أي: عطفت عليه، ورجعت من ورائه، وقاتلت عليه أصحاب الخيل وطاعنتهم، وهو هارب منهزم. وقوله: «حتى تنفسا»، أي: حتى استراح وتفرّج، ووجد متنفَّساً ومتَّسعاً.

(٢) المرجَّل: المسرَّح الجمة المدهونُها. والكواعب: جمع كاعب، وهي الجارية التي قد كعب ثديها، أي: نهد وارتفع للخروج. وقوله: «أملسا» من الملاسة، يعني أنه شابٌّ ناعم، وقيل: هو الخميص البطن، وقيل: النقي من العيوب.

(٣) التبريح: إفراط المشقة. يقول: لم أخف أن تبرِّح الحياةُ بي هذا التبريح. ثم بين ذلك فقال: تضيق ذراعي أن أقوم فألبس ثيابي، أي: أضعف وأعجز عن تناول ذلك؛ لشدة مابي من المرض، يقال: ضاق ذرْع فلان بكذا، وضاقت ذِراعه، إذا لم يطقه. انظر ديوان امرئ القيس: ص١٠٥-١٠٧.

(٤) الطلح: شجرة طويلة لها ظل. يستظل بها الناس والإبل وورقها قليل، ولها أغصان عظام تنادي السماء من طولها. وتحسر: سقط، يعني يطعم الناس وقت الجدب. انظر: ديوان حاتم بن عبد الله الطائي، صنعة يحيى بن مُدرك الطائي، ورواية هشام بن محمد الكلبي، دراسة وتحقيق الدكتور عادل سليمان جمال، ص٢٥٦.

فقوله: «إذا ورَقُ الطَّلْحِ الطَّوالِ تَحَسَّرا» صَوَّرَ لك الشِّتاءَ كأنَّكَ تَراهُ عِياناً.

ـ قال زُهَيْرُ بْنُ أبي سُلْمَى يُصَوِّرُ ثَغْراً مَخُوْفاً في وصْفِ هَرِم:

وإنْ سُدَّتْ بِهِ لَهَواتِ ثَغْرٍ يُشارُ إليه جانِبُهُ سَقِيمُ[1]

مَخُوفٌ بأْسُهُ يَكْلاكَ مِنْه عَتِيقٌ لا أَلَفُّ ولا سَؤومُ[2]

ـ فقوله: «يُشارُ إليه» زادَ على صِفَةِ «جانِبه سَقيم»، بِما صَوَّرَ لك النّاسَ، يُشِيْرُونَ إليه بِأَيْدِيهِمْ، فَجَعَلَ القَوْلَ فِعْلاً مُحاكِياً.

ـ وقال يَفْتَخِرُ بِمَقام مَنِيعٍ لَقَوْمِهِ:

ألا أبلغْ لديكَ بَني تَمِيمٍ وقَدْ يأْتِيكَ بالخَبَرِ الظَّنونُ[3]

بِأَنَّ بُيُوتَنا بِمَحلِّ حَجْرٍ بِكُلِّ قَرارَةٍ مِنها تَكونُ[4]

---

(١) واللَّهوات: جمع لهاة، ويقال: لهوات ولهيات، وقطوات وقطيات ـ وهي الطائر المعروف ـ. الواحدة لهاة: مدخل الطعام في الحلق، استعارها لمدخل الثغر. قال الأعلم: والثغر: كل موضع يتقى منه العدو، وإنما يريد أفواه الثُّغور. وقوله: «يشار إليه» من صفة الثغر، أي: يهتم به ويذكر. وقوله: «جانبه سقيم»: أي: جانب الثغر مخوف يخشى القوم أن يؤتوا منه، فجعله سقيماً لذلك، وسداد الثغر: تحصينه، ومنع العدو منه.

(٢) ورد في بعض المصادر: «قوي» بدلًا من «عتيق». بأسه: الهاء للثغر. ويكلأك: يحفظك منه، ترك الهمزة. لا ألفُّ: لاضعيف الرأي ثقيلٌ، ومنه يقال للمرأة: لفاءُ الفخذين، أي: عظيمتهما، ومنه: اللَّفَف في اللسان. وسؤوم: ملول. انظر: شرح ديوان زهير، لثعلب، ص ٢١٠.

(٣) الظنون: الذي لايوثق بما عنده، ولايكاد يصدق في خبر، وربما صدق فأتى بالخبر، ومعنى هذا أنه يقول: نحن ببلدة، ولا أدري أيبلغهم اليقين مما أقول أم لا، فعسى أن يبلغهم قولي كما يصدق الظنون أحياناً. ويقال: بئر ظنون، أي: قليلة الماء.

(٤) وحَجْرٌ: في شق الحجاز. والقرارة: مستقر الماء في الوادي، وقرارة الروض: وسطه حيث يستقر فيه الماء. منها نكون: أي: هي دارُنا فنحل منها حيث شئنا.

إلى قَلَهَى تَكُون الدّارُ مِنّا إلى أكْنافِ دُوْمَةَ فالحَجُونُ(١)

بِأودِيَةٍ أسافِلُهُنَّ رَوْضٌ وأعْلاها إذا خِفْنا حُصُونُ(٢)

نَحُلُّ بِسَهْلِها فإذا فَزِعْنا جَرَى مِنْهُنَّ بالآصالِ عُونُ(٣)

وكلّ طُوالَةٍ وأقَبَّ نَهْدٍ مَراكِلُها مِنَ التَّعْداءِ جُونُ(٤)

تُضَمَّرُ بالأصائِلِ يَوْمٍ تُسَنُّ على سَنابِكِها القُرُونُ(٥)

ـ وقال زُهَيْرٌ يَصِفُ الحِمارَ، حين ألقَى ويَرَهُ في آخِرِ الصَّيْفِ، فزادَ في التَّشبيهِ

---

(١) قلهى: موضع، يقول: إلى ذلك الموضع منازلنا، والحجون: موضع بمكة. وأكنافها: نواحيها. ودومة: موضع، التَّوَّزِيُّ: دُومَةُ بلدٌ. يقول: نحن ننزل بهذه المواضع، ونتسع بها، ونحل منها حيث شئنا، وإنما يفخر على بني تميم، ويريهم قومة قومه وتمكنهم.

(٢) الروض من النبت، والحدائق من النخل والشجر يقول: أسافل بلادنا روض مخصبة، وأعاليها منيعة حصينة، فما أنتم وغزونا.

(٣) نحل هذين الأرضين حتى إذا خفنا جرى منهن (من الخيل) عُون، وهي الحمير، واستعاره هاهنا فجعلها خيلاً، وواحد العون عانة، ويروى: «بالأصلاء» وهو موضع في أرض بني سُلَيم. والآصال: الواحد أصيل وهو العشي. وقال الأصمعي: عُونٌ أي: ليست بأفتاءٍ، وقال: فَزَعْنا في هذا الموضع: أغَثْنا مستغيثاً، يقول: إذا أغثنا ركبنا خيلاً، ومن زعم أن العون هنا جمع العانة فقد أبطل، وأراد أنهم شجعان، فإذا استغيث بهم ركبوا الخيل وأغاثوا.

(٤) الأقب: الضامر البطن. والنهد: الضخم. والتعداء: العدو. والمراكل: حيث يركله الفارس برجله. وجون: سود من العرق، ومما يضربه برجله، وصف المراكل بالجون لأن شعرها طيرته أعقاب الفرسان، فظهر ماتحته أسود، ويقال: إنما سوادها من العرق.

(٥) يعني أنه يدربها على مطاردة الصيد فهي تعدو، ويسن: يصب. ويقال: سال عليه قرنٌ من عرقٍ، أي دفعة، ويقال خذ من فرسك قرناً واحداً: عرِّقه مرة، والقرون جمعٌ. والسنابك: الواحد سنبك، وهو مقدم الحافر، وماحوله الحوامي. قال الأصمعي: «سنَّ عليه الماء، وسنَّ عليه الدرع، وأنشد: أناخ فسنَّ عليه الشليلا. وقال أبو عمرو: سنَّ وشنَّ بمعنىً واحد. انظر: شرح ديوان زهير: ص١٨٤-١٨٧.

كَلِمَةٌ لا حاجَةَ إليها إلّا لِلتَّصْويرِ، كأَنَّهُ يُمَثِّلُ المُشَبَّهَ بِهِ بين يَدَيْكَ:

فآضَ كأَنَّهُ رَجُلٌ سَلِيبٌ «على عَلْياءَ» ليس لَهُ رِداءُ[1]

ومِثْلُهُ قولُ امْرِئِ القَيْسِ:

لها مَتْنَتانِ خَظاتا كما «أَكَبَّ على ساعِدَيْهِ» النَّمِرْ[2]

فَصَوَّرَ جانِبَي المَتْنِ بِساعِدَي النَّمِرِ، ولكن بِقولِهِ: «أَكَبَّ على ساعِدَيْهِ» أَكْمَلَ التَّصْوِيرَ.

ـ قال النّابِغَةُ يَصِفُ بَخِيْلاً:

قَذاها أَنَّ صاحِبَها بَخِيْلٌ يُحاسِبُ نَفْسَهُ بِكَمِ اشْتَراها[3]

ما أَقْرَبَ هذا تَصْوِيراً لِلبَخِيلِ، فإِنَّهُ لا يَزالُ يَتَحَسَّرُ على ما أَنْفَقَ في اشْتِراءِ شيءٍ، فلا يَزالُ يُحاسِبُ نَفْسَهُ، ويَذْكُرُ مِقْدارَ المالِ المُنْسَلِّ من يَدَيْهِ.

---

(١) آض: رجع وصار. أبو عمرو: «فظلّ كأنه رجل». سليب: عريانٌ. واقف على شرف من انضمامه، وإنما جعله على شرف لأن ذلك أظهر لخلقه، وأكمل لطوله. وسليب: مسلوبٌ العريان. وعلياء: موضع عال. والمعنى أنه صار كأنه رجل عريان يقف في موضع عال دون رداء. انظر: شرح ديوان زهير: ص٧٠-٧١.

(٢) يقال: مَتْن ومَتْنَة، ودار ودارة، ومنزل ومنزلة، وشيخ وشيخة، وغلام وغلامة، وعجوز وعجوزة. وقالوا: أراد «متنتان خظاتان»، فألقى النون، ودلَّ على ذلك قول أبي دُواد:

ومتنان خظاتان كزحلوف من الهضب

ـ الزحلوف: المكان الزلق في الرمل. والهضب: الجبل المنبسط ـ.

وقوله: «خظاتان» يعني مكتنزتين قليلاً، وذهب إلى الصلابة في وصفه لا إلى كثرة اللحم.

وقوله: «أكب على ساعديه النمر»، أراد كساعدي النمر البارك في غلظهما.

(٣) البيت منسوب للنابغة، انظر: ديوان النابغة الذبياني، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٢٢٧، وانظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١٩/ ٢٢٤)، وبدائع البدائه لابن ظافر (ص: ٩)، وشرح شواهد المغني للسيوطي (١/ ٨٠).

- يَصِفُ النّابغَةُ الذّبْيانِيُ قانِصاً وأخَذْتُهُ من تَصْوِيرِ الصّيْدِ وهو طَوِيْلٌ عَرِيْضٌ:

أهْـوى لَـهُ قانِـصٌ يَسْـعَى بِأكْلُبِـهِ عارِي الأشـاجعِ مِنْ قُنّاصِ أنْمارِ[١]

مُحالِـفُ الصّيْـدِ تَبّـاعٌ لَـهُ لَحِـمٌ مـا إنْ عليـه ثِيـابٌ غَيْرُ أطْمـارِ[٢]

يَسْـعَى بِغُضْفٍ بَراها فَهِـي طاوِيَةٌ طُـولُ ارْتِحالٍ بِهـا مِنْهُ وتَسْـيارِ[٣]

حَتّـى إذا الثّـوْرُ بَعْـدَ النّفْـرِ أمْكَنَـهُ أشْـلَى وأرْسَـلَ غُضفا ضارِي[٤]

فصَوّرَ لك ظاهِرَ أُمُورِ الصّيْدِ وباطِنَهُ، مِمّا تَراهُ عَياناً ومِمّا تَفْهَمُهُ.

- قال عَمْرُو بْنُ قَمِيئَةَ[٥] يَصِفُ ضَعْفَهُ:

---

(١) في هذه الأبيات التصويرية يصور النابغة الذبياني قانصاً، وقد ذهب للصيد، ويصور الثور وقد كر على الكلاب المدربة، وبقر بطونها بقرنه، وقتل منها عشرة، ثم مضى في سرعة. والجمال في هذه الصورة، هو تصويره الحي لهيئة القانص، ورسم ملامحه التي برزت ظاهرة، وكأننا نراه شاخصاً أمامنا، وتصويره للكلاب المدربة على الصيد، وتصويره للثور وقد قضى عليها ثم ولى.
أهوى له: انقض عليه. الأشاجع: أصول الأصابع التي تتصل بصب ظاهر اليد، وأنمار قبيلة مشهورة بالصيد.

(٢) قوله: «لحم»: كثير اللحم. «الأطمار»: الواحد طمر، وهو الثوب الخلق البالي.

(٣) قوله: «الغضف»: الواحد أغضف: اللين الناعم، من الغضف في الأذن: أي الاسترخاء، وأراد بالغضف كلاب الصيد. طاوية: جائعة. براها: أضراها.

(٤) النفر: العدو. أشلى: دعا كلابه للصيد. الضاري: المعتاد على الصيد. انظر: ديوان النابغة الذبياني، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٢٠٣.

(٥) عمرو بن قميئة (نحو ١٨٠-٨٥ ق هـ = نحو ٤٤٨-٥٤٠م) بن ذريح بن سعد بن مالك الثعلبي البكري الوائلي النزاري: شاعر جاهلي مقدم. نشأ يتيماً، وأقام في الحيرة مدة، وصحب حُجْرا (أبا امرئ القيس الشاعر)، وخرج مع امرئ القيس في توجهه إلى قيصر، فمات في الطريق، فكان يقال له: «الضائع»، وكان واسع الخيال في شعره. وفيه يقول امرؤ القيس: =

على راحتَيْنِ مَرَّةً وعلى العصا أنوءُ ثلاثاً بَعْدَهُنَّ قِيامِي[(١)]

فَصْلٌ في تَصْوِيرِ الشيءِ بِالتشبيهِ والاسْتِعارَةِ والتَّمْثِيلِ والمَجازِ:

بعد ما تَبَيَّنَ لك من الأمْثِلَةِ السّابِقَةِ، أنَّ التَّصْوِيرَ غيرُ مَحْصُورٍ في التَّشبِيهِ، وله طُرُقٌ كَثِيْرَةٌ، فلا بأسَ أنْ نَذْكُرَ الآنَ بَعْضَ الأمْثِلَةِ لِلتَّشبِيهِ الحَسَنِ، والغَرَضُ من ذلك أنْ يَتَّضِحَ لك أنَّ حُسْنَ التَّشبِيهِ، في الصِّدْقِ والمُطابَقَةِ، وأنَّ نَظَرَنا إلى التَّشبِيهِ ليس إلا من جِهَةِ البَلاغِ، وأنَّ مَيْلَ الطَّبْعِ إلى التَّشبِيهِ ليس إلَّا من هذه الجِهَةِ، وجَعَلَهُ الله تعالى في فِطْرَةِ الطَّبائِعِ.

فإذا نَظَرْنا إلى[(٢)] التَّشبِيهِ، وصِنوَيهِ الاستِعارَةِ والمَجازِ، من جِهَةِ البَلاَغِ، اختلف بَحْثُنا عَمّا يَكُونُ لِمَنْ يَنْظُرُ إليه، من جِهَةِ اللَّذَّةِ، كما يَخْتَلِفُ نَظَرُ الطَّبِيبِ إلى الطَّعام من نَظَرِ الطَّبّاخِ، فلا نَنْظُرُ إليه من حيثُ النُّدْرَةُ، وإنْ كانتْ النُّدْرَةُ مِمّا تُسْتَلَذُّ، مِثْلُ: تَشْبِيْهِ المُشْرِكِ في التَّوْراةِ بِالفاجِرَةِ، وتَشبِيهِ المُصْطَفى كآدَمَ وداودَ وعِيْسَى بِبِكْرِ الأَبْناءِ، والعَبْدِ الطّائِعِ البّارِ بِالابْنِ، ورَحْمَةِ الرَّبِّ بِتَحْنانِ الأُمِّ،

= يكى صاحبي لما رأى الدر دونه ـ إلخ.

له ديوان شعر مطبوع. انظر: طبقات فحول الشعراء: ١/ ١٥٩، ١٦٠، والمؤتلف والمختلف، ص٢٢٠، والشعر والشعراء: ١/ ٣٦٤، والأعلام: ٥ / ٨٣.

(١) أنوء ثلاثاً: أي أنهض ثلاث مرات بانحناء ثم أستقيم.

انظر: ديوان عمرو بن قميئة، ص٤٥، بتحقيق حسن كامل الصيرفي، طبع المنظمة العربية للثقافة والعلوم، ط٢/ ١٩٩٧م.

(٢) تَذْكِرَةٌ: (التَّشْبِيهُ) اعْلَمْ أنَّ لِلتَّشْبِيْهِ أُمُوراً مُشْتَرَكَةً، بَيْنَ جَمِيْعِ الألْسِنَةِ، وأمُوراً غَيْرَ مُشْتَرَكَةٍ، وذَلِكَ أُسْلُوْبُ أدائِهِ، فنَذْكُرُ مِنْهُ ما كانَ لِلْعَرَبِ: فَمِنْها تَفْصِيْلُ الْمُشَبَّهِ بِهِ، لِيَتَجَلَّى وَيَمْكُثَ في الخَيالِ، وَيُصَوَّرَ في أكْمَلِ صورته، وَهذا كَثِيْرٌ في كَلامِهِم، وَمِنْها جَمْعُ التَّشْبِيْهاتِ الْكَثِيْرَةِ، كَما تَرى في قَصِيْدَةِ زُهَيْر، حَيْثُ شَبَّهَ الْحَرْبَ بِأُمُورٍ عَدِيدَةٍ، وَمِنْها تَصْرِيحٌ بِالتَّشْبِيهِ، وَمِنْها كِنايَةٌ بِهِ عَلَى طَرِيْقِ الاِسْتِعارَةِ، وَمِنْها التَّمْثِيْلُ، وَهُوَ تَشْبِيهٌ مُرَكَّبٌ فَيُشَبَّهُ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ مِنْ حَيْثُ الْمَجْمُوعِ.

والرَّبِّ الوَدُودِ بالأَبِّ (وقال المَسِيحُ عليه السَّلامُ: اللَّفْظُ يَهْلِكُ والمعنى يَحْيا).

فلو بَحَثَ أَهْلُ العِلمِ عن أُصُولِ التَّأدِيَةِ، وجِهاتِ الصِّدْقِ في التشبيهِ، لكان للنّاسِ نُورٌ عن هذه الصِّناعَةِ، ولم يَضِلُّوا.

فاعلَمْ أنَّ المِثالَ، والتَّشبيهَ، والاسْتِعارَةَ، والمَجازَ، تأتِي بِما يُفْصِحُ عن صِفَةٍ، من غيرِ جَعْلِ الشيءِ شَيئاً آخرَ، فلا بُدَّ من مُغايَـرَةٍ بين المُشَبَّهِ والمُشبَّهِ بِهِ. وإلَّا جعلُوها شيئاً واحِداً، ولذلك يَجِبُ التَّمْييزُ في مِثْلِ قولكَ: السُّكَّرُ كالمِلْحِ لَوْناً، ولذلك ترى عِيْسَى مَنَعَ عن إشاعَةِ دِينِهِ بين الوَثَنِيِّينَ؛ لأنَّ المُغايَرَةَ بين الخالِـقِ والمَخْلُوقِ، لم تَكُنْ واضِحَةً عندهُم، فـتَراهُم ضَلُّوا بِبَعْضِ كَلِماتِ التَّوْراةِ وتَشْبِيْهاتِهِ، ولم تَضِلَّ اليَهُودُ كَضَلالَتِهِم، فلا يُضِلَّنَّكَ ما قال صاحِبُ «أَسْرارِ البَلاغَةِ»، إنَّ المُغايَرَةَ بين المُشَبَّهِ والمُشَبَّهِ بِهِ لازِمَةٌ، لِأَجْلِ الحُسْنِ، فإنَّهُ لم يَدْرِ كُنْهَهُ، فلو كان نَظَـرُهُ من جِهَةِ التَّأدِيَةِ لَظَهَرَ عليه الوجْهُ الصَّحِيْحُ.

وأمّا حَدِيثُ اللَّذَّةِ، فكما بَيَّنْتُ في أمْرِ النُّطْقِ، أنَّ الطَّبْعَ مُشْـتاقٌ إلى العِلْمِ والإعْلَامِ بِإبْرازِ ما اسْتَكَنَّ فيهِ، وإعْمالِ القُوى المُسْتَودَعَةِ فيهِ، والتّشبيهُ أوَّلُ قُوى العَقْلِ، لأنَّهُ يَنْـتَزِعُ من أفْرادِ المَحْسُوساتِ صِفاتٍ عامَّةً، منها تُلْمَعُ لَمَحاتُ التَّشبِيهِ، ثُمَّ قُوى التَّخَيُّلِ تَفْعَلُ فيه، ولذلك ترى الصِّبْيانَ، والنِّساءَ أولَعَهُم بالتَّشبِيهِ والمَجازِ؛ لِغَلَبَةِ التَّخَيُّلِ فيهم، ثُمَّ النُّطْقُ - أيْ: الإعْلامُ - يَسْتَخْدِمُهُ:

- لِتَصْويرِ المُبْهَمِ إيضاحاً.

- ولِلإثباتِ تَمْثِيلاً.

- ولِحُسْنِ الأداءِ إيجازاً.

- ولِتَحسِينِ الشيءِ أو تَقبِيحِهِ مَدْحاً أو ذَمّاً.

والآنَ نوردُ عليك بالأمْثِلَةِ، للتَّشبيهِ الصّادِقِ المُصَوِّرِ. ثُمَّ نُتْبِعُهُ بِما ضَلَّ فيه المُتأخِّرُونَ، لكي نُحَذِّرَكَ عنهُ.

قال زُهَيْرُ بْنُ أبي سُلْمَى:

تُطالِعُنا خَيالاتٌ لِسَلْمَى ... كما يَتَطَلَّعُ الدَّيْنَ الغَرِيْمُ[1]

عَبِيْدُ بْنُ الأبْرَص شَبَّهَ طَيِّبَ الكَلامَ بِالغَيْثِ:

القائِلُ القَوْلَ الَّذي مِثْلُهُ ... يَمْرَعُ مِنْهُ البَلَدُ الماحِلُ[2]

النّابِغَةُ الذُّبْيانِي يُشَبِّهُ الرُّكّابَ بِالسَّفينِ:

كأنَّ الظُّعْنَ حِينَ طَفَوْنَ ظُهْراً ... سَفينُ البحرِ يممنا القَرَاحا[3]

وهذا التَّشبيهُ شائِعٌ عندهُمْ.

يَصِفُ النّابغَةُ الذُّبْيانِيُّ ثَوْراً في بَياضِ لَوْنِهِ وسُرْعَةِ فِرارِهِ:

انْقَضَّ كالكَوْكَبِ الدّرّيّ مُنصَلِتاً ... يَهْوِي ويَخْلِطُ تَقريباً بِإِحْضارِ[4]

عَنْتَرَةُ العَبْسِيُّ[5] يَصِفُ الحَرْبَ، وفيه التَّشبيهُ والتَّصوِيرُ من غيرِ التَّشبيهِ:

---

(١) خيالات: جمع خيال. والغريم: الطالب، والغريم: المطلوب. ويتطلع: يأتي، كما تقول: هو يتطلع ضيعته، أي: يأتيها ويتعهدها. انظر: شرح ديوان زهير، ص٢٠٩.

(٢) ديوان عبيد: ص١٠٠.

(٣) طفون: ارتفعن في الآل. والآل: السراب الذي يرى كأنه ماء.. انظر: ديوان النابغة بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٢١٣.

(٤) الدري: اللامع المتلألئ. منصلتاً: ماضياً في سرعة. التقريب والإحضار: ضربان من السير. انظر: ديوان النابغة، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص٢٠٤.

(٥) عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية العبسي (... ـ نحو ٢٢ ق هـ = ... ـ نحو ٦٠٠م): أشهر فرسان العرب في الجاهلية، ومن شعراء الطبقة الأولى. من أهل نجد. أمه حبشية =

إِذا مـا مَشَـوْا فـي السّـابِغاتِ حَسِـبْتَهُمْ ... سُـيولاً وقَدْ جاشَـتْ بِهِـنَّ الأباطِـحُ[١]

فـأُشْــرِعَ رايــاتٌ وتَـحْــتَ ظِـلالِـها ... مِنَ القَـوْمِ أبْناءُ الحُـرُوبِ المَراجِـحُ[٢]

ودُرْنـا كمـا دارَتْ علـى قُطْبِهـا الرَّحى ... ودارَتْ علـى هامِ الرِّجـالِ الصَّفائِحُ[٣]

بِـهـاجِــرَةٍ حَـتَّــى تَـغَـيَّــبَ نـورُهـا ... وأقْبَـلَ لَيْـلٌ يَقْبِـضُ الطَّرْفَ سـائِـحُ[٤]

تَـداعَــى بَـنــو عَـبْـسٍ بِكُــلِّ مُهَنَّــدٍ ... حُسـامٍ يُزِيْلُ الهـامَ والصَّـفُّ جانِـحُ[٥]

= اسمها زبيبة، سرى إليه السواد منها. وكان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفساً، يوصف بالحلم على شدة بطشه، وفي شعره رقة وعذوبة. وكان مغرماً بابنة عمه (عبلة) فقلَّ أن تخلو له قصيدة من ذكرها. اجتمع في شبابه بامرئ القيس الشاعر، وشهد حرب داحس والغبراء، وعاش طويلاً، وقتله الأسد الرهيص، أو جبار ابن عمرو الطائي. ينسب إليه ديوان شعر مطبوع أكثر ما فيه مصنوع. و«قصة عنترة» ـ ط خيالية يعدها الإفرنج من بدائع آداب العرب، وقد ترجموها إلى الألمانية والفرنسية، ولم يعرف واضعها. وللمستشرق الألماني توربكي Thorbecke كتاب عن «عنترة» طبع في هيدلبرج سنة ١٨٦٨م، ولمحمد فريد أبي حديد «أبو الفوارس عنتر بن شداد» ـ ط ولفؤاد البستاني «عنتر بن شداد» ـ ط. انظر: المؤتلف والمختلف، ص١٩٧، ونهاية الأرب، ص٧٥، ٣٤٥، ٣٨٦، والشعر والشعراء: ١/ ٢٤٣، ٢/ ٩١٠، ورجال المعلقات العشر، ص٤٣، والأعلام: ٥ / ٩١.

(١) السابغات: الدروع الكاملة. يقول: دروعهم ضافية سابغة، فإذا مشوا فيها اضطربت، وسال بعضها على بعض، فكأنها سيول جاشت بهن الأباطح، أي: تمايلت واضطربت.

(٢) وقوله: «فأشرع رايات» أي: قوبل بعضها ببعض. وأبناء الحروب: أهلها والمتقاتلون فيها، سموا لذلك بذلك لأن الحرب تجمعهم، وكأنها أم لهم، ولذلك يقال للحرب الشديدة المهلكة عقيم، يريد أن أبناءها قتلوا فكأنها لم تلد.

(٣) قطب الرحى ماتدور عليه، أي: طحناهم كما تطحن الرحى إذا دارت على قطبها، والصفائح ما عرض من السيوف.

(٤) وقوله: «بهاجرة»، أي: قاتلناهم نصف النهار إلى أن أقبل الليل وتغيب نور النهار. وقوله: «يقبض الطرف سائح»، أي: يذهب نور الطرف بظلمته. والسائح هنا المنبسط الظلمة المنتشر.

(٥) وقوله: «تداعى بنو عبس»، أي: دعا بعضهم بعضاً إلى القتال. والحسام: السيف القاطع، =

وكُـــلُّ رُدَيْـــنِـــيٍّ كـــأنَّ سِـــنـــانَـــهُ شِـهابٌ بَدا في ظُلْمَـةِ اللَّيْـلِ واضِحُ[(١)]

تَـرَكْـنـا ضِـــراراً بـيـن عـانٍ مُـكَـبَّـلٍ وبيـن قَـتِـيْـلٍ غـابَ عَنْـهُ النَّوْائِــحُ[(٢)]

وعَـمْــرواً وحَـيّـانــاً تَـرَكْـنـا بِـقَـفْـرَةٍ تَـعُودُهُـمـا فيهـا الظبـاء الـكَـوالِــحُ[(٣)]

يُـجَـرِّرْنَ هـامــاً فـلـقـتـهـا رمـاحـنـا تَـزَيَّـلَ مِنُهـنَّ اللِّحَـى والمَسـائِـحُ[(٤)]

ـ وهو أَبْدَعَ في تَشْبِيْهِ السَّيْفِ، ولم يَبْعُدْ عن الظّاهِرِ:

وسَـيْـفي كالعَقِيقَـةِ وهـو كِمْعي سِـــلاحِي لا أفَـلَّ ولا فُـطارا[(٥)]

= وقوله: «يزيل الهام»، أي: يزيلها عن سكناتها ومستقرها. والهام: الرؤوس. والجانح: المائل، أي: قد مال بعضهم على بعض للقتال.

(١) والرديني: رمح ينسب إلى ردينة، وهي امرأة كانت تبيع السهام، أو قبيلة. وشبه السنان بالشهاب في توقده ولمعانه. والواضح: المضيء البين.

(٢) قوله: «تركنا ضراراً» يعني: ضرار بن عمرو الضبي. والعاني: الأسير. يقول: تركنا ضراراً وقومه بين أسير قد شد وثاقاً، وبين قتيل غابت عنه نوائحه لموته في الحرب، وبعده عن الأهل. انظر: ديوان عنترة، ص٣٠٠-٣٠٣، بتحقيق محمد سعيد مولوي، طبع المكتب الإسلامي.

(٣) وعمرو وحيان من بني ضبة. والقفر والقفرة سواء، والكوالح التي كشرت عن أنيابها، أي: تركناهما قتيلين، فالضباع تعودهما لتأكل من لحومهما. وفي الديوان: فيها الضباع الكوالح.

(٤) المسائح: ذوائب مقدم الرأس، وهي الغدائر، واحدتها مسيحة وغديرة. يقول: تجر الضباع هامهم فتزيل لحاها وذوائبها. انظر ديوان عنترة، ص٣٠٠-٣٠٣، بتحقيق محمد سعيد مولوي، طبع المكتب الإسلامي.

(٥) وقوله: «وسيفي كالعقيقة» يقول: هو صافٍ براق كالقطعة من البرق، وهي العقيقة، ويقال: العقيقة: السحابة تنشق عن البرق، والكمع الضجيع، يقول هو ملازم لي، فإن كنت مضطجعاً كان مضاجعي. وقوله: «لا أفل» أراد: سلاحي لا أفل فيه ولا فطار، والأفل: الذي فيه فلول، والفطار: المتشقق، يقول: هو حديد السلاح تامها.

وكالـوَرَقِ الخِفـافِ وذاتُ غَـرْبٍ تَـرَى فيها عَـنِ الشِّـرْعِ ازْوِرارا[١]

قال ذُوُ الرُّمَّةِ[٢] يَصِفُ قُـتُودَهُ فوق النَّاقَةِ:

كأنَّ قُتُـودِي فَوْقَهـا عُـشُّ طائِـرٍ على لِينَةٍ سَـوْقاءَ تَهْفُـو جُنوبُها[٣]

---

(١) قوله: «وكالورق الخفاف» يعني: سهاماً جعل نصالها بمنزلة الورق في خفتها، وأراد: من سلاحي سهام مثل الورق الخفاف، وقوله: «وذات غرب» يعني قوساً، وغربها حدها، والشرع: الأوتار، واحدتها شرعة، ويجوز الشرع بإسكان الراء. والازورار: الميلان، يقول: هي محنية، ففيها ميل عن وترها، وكلما مالت عنه وبعدت كان أمضى لسهمها وأنفذ. انظر: ديوان عنترة، ص٢٣٤-٢٣٦.

(٢) ذو الرمة (٧٧-١١٧هـ = ٦٩٦-٧٣٥م) غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، من مضر، أبو الحارث: شاعر، من فحول الطبقة الثانية في عصره. قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة. وكان شديد القصر، دميماً، يضرب لونه إلى السواد. أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين. وكان مقيماً بالبادية، يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيراً. وامتاز بإجادة التشبيه. قال جرير: لو خرس ذو الرمة بعد قصيدته:

ما بال عينك منها الماء ينسكب

لكان أشعر الناس. وقال الأصمعي: لو أدركت ذا الرمة لأشرت عليه أن يدع كثيراً من شعره، فكان ذلك خيراً له. وعشق (مية المنقرية) واشتهر بها. له «ديوان شعر» ـ ط في مجلد ضخم. توفي بأصبهان، وقيل: بالبادية. انظر: نهاية الأرب، ص٣٥٦، والشعر والشعراء: ١/ ١٩، ورجال المعلقات العشر، ص١٤، والأعلام: ٥/ ١٢٤.

(٣) في الأصل «لبنة سوفاء»، القتود: عيدان الرَّحل. أراد كأن قُـتُودي على نخلة سوقاء، أي: أن النخلة طويلة يصغُر الرحل عليها، وليس هذا بخير ـ أي: ليس هذا الإفراط في طول الناقة مما يستجاد في صفات النوق ـ شبه القتود بعش الطائر. و«لينة»: نخلة، وجمعها لِينٌ، «سوقاء»: طويلة الساق. «تهفو»: تضطرب، «جنوب» النخلة أي: جوانبها. تهفو: تميل مرة كذا ومرة كذا. يقول: من علو هذه الناقة وارتفاعها، كأن رحلها عش طائر فوق نخلة طويلة. انظر: ديوان ذي الرمة: ٢/ ٦٩٩، بتحقيق الدكتور عبد القدوس أبو صالح، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق، مطبعة طربين، ١٩٧٢م.

قال أعْرابِيٌّ قَتَلَ أخُوهُ ابناً له خَطأً:

أقُولُ للنَّفْسِ تأْساءً وتَعْزِيَةً   إحْدَى يَدَيَّ أصابَتْنِي ولم تُرِدِ[(١)]

كِلاهُما خَلَفٌ مِنْ فَقْدِ صاحِبِهِ   هذا أخِي حِيْنَ أدْعُوهُ وذا ولَدِي[(٢)]

قالتْ فاطِمَةُ بِنْتُ الأحْجَمِ بْنِ دِنْدِنَةَ[(٣)]، وأُمُّها خالِدَةُ بِنْتُ هاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَناف:

كأنَّ عَيْنِيَ لَمّا أنْ ذَكَرْتُهُمُ   غُصنٌ بَراحٌ مِنَ الطَّرْفاءِ مَمْطُورُ[(٤)]

---

(١) قال أعرابيٌّ قتل أخوه ابناً له فقدِّم إليه ليقتاد منه، فألقى السيف وهو يقول هذه الأبيات. التأْساء: تفعل من الأسوة. ويقال: إِسْوَةٌ وأُسْوَةٌ، فيضمُّ أوله ويكسر، وانتصابه على أنه مصدر في موضع الحال. أي: أقول قولاً متأسياً بغيري، ومسلياً لنفسي: جَنَى عليَّ أخي الذي محلُّه مني محلُّ إحدى يديَّ، سهواً لا إرادةً لمَساءَتي، وخطأً لا عمداً. وقوله: «إحدى يديَّ» في موضع المبتدأ، و«أصابتني» خبرُه، وقوله: «ولم تُرِدْ» في موضع الحال، والجملة في موضع النصب على أنه مفعول لقوله أقول.

(٢) يقول: كلُّ واحد من الأخ الواتر والابن المفقود يصلح لأن يُرضى به عوضاً من فقدان الآخر، فإن اقتدت من الأخ متتصفاً للابن فقدتهما جميعاً، فاستبقائي أخي هو على كلِّ حالٍ أقربُ وأعْوَد ـ أي: أكثر عائدة؛ والعائدة: الفائدة ـ.
انظر: شرح ديوان الحماسة: ١/ ٢٠٧، لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط٢، طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٧م.

(٣) فاطمة بنت الأحجم بن دندنة الخزاعية، شاعرة من شواعر العرب في الجاهلية رثت زوجها وإخوتها في أواخر القرن السادس للميلاد. انظر: أعلام النساء لعمر رضا كحالة: ٤ / ٢٦.

(٤) وهذا تصوير جميل لكثرة تقاطر الدمع، والدمع قلما يجري، ولذلك صورته لنا كأنه قطرات مطر تنزل على غصن. والذي رأى الماء النازل عن غصن الشجرة في ساعة مطر شديد، يتخيل صورتها شاخصة أمامه، والدمع يتقاطر من عينيها، ويدرك حالتها على أحسن وجه، بسبب جمال التصوير. انظر: معجم الأديبات الشواعر لأبي العزم جمال الدين محمد الحسن =

لم أقِفْ على تَشْبِيهٍ أحْسَنَ من هذا، في كَثْرَةِ تَـقاطُرِ الدَّمْعِ، والدَّمْعُ قَلَّما يَجْرِي.

ولذلك شَبَّهَتْهُ بِاللآلِئِ[١] المُتَناثِرَةِ، وقَطَراتِ السَّحابِ، ألا ترى امْرأ القَيْسِ كيف جَمع أسْماءَ المَطَرِ:

فـدَمْعُهُما[٢] سَـكْبٌ وسَحٌّ ودِيْمَةٌ ورَشٌّ وتَـوكـافٌ وتَـنْـهَـمِـلانِ

ولم يَذْهَبْ مَذْهَبَ المُتَشـاعِرِينَ من العَجَمِ، الَّذينَ شَبَّـهُوهُ كَثِيراً بِالنَّهْرِ الجارِي، ونِعِمّا صَنَعَتْ خَنْساءُ[٣]، حيث شَبَّهتْ الدَّمْعَ بِالفَيْضِ، نَـبَّهَتْ على أنَّ هذا

= بك السمان الحموي الحسيني، ص٣٩٨، بتحقيق أحمد يوسف الدقاق، طبع دار الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩٦.

(١) في الأصل: بالأل.

(٢) في الأصل: فدمعهما سح إلخ. قوله: «فدمعهما سكب» شبَّـه توالي دموعه بضروب الأمطار.

والسَّح: الصبّ الشديد، والسكب نحوه. والديمة: مطر دائم في ليل. والتوكاف: القليل من المطر.

وتنهملان تسيلان. انظر: ديوان امرئ القيس: ص٨٨.

(٣) الخنساء (... ـ ٢٤هـ = ... ـ ٦٤٥م) تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، الرياحية السـلمية، من بني سـليم، من قيس عيلان، من مضر: أشهر شواعر العرب، وأشعرهن على الإطلاق. من أهل نجد، عاشت أكثر عمرها في العهد الجاهلي، وأدركت الإسلام فأسلمت، ووفدت على رسـول الله ﷺ مع قومها بني سليم، فكان رسول الله يستنشدها ويعجبه شعرها، فكانت تنشد وهو يقول: هيه يا خنساء! أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها (صخر ومعاوية) وكانا قد قتلا في الجاهلية. لها «ديوان شعر» ـ ط، فيه ما بقي محفوظاً من شعرها. وكان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية (سنة ١٦هـ) فجعلت تحرضهم على الثبات حتى قتلوا جميعاً، فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم! انظر: الأعلام: ٢ / ٨٦.

الحالَ إذا كان على الخَدَّيْنِ. فقالتْ:

.... فَيْضٌ يَسِيْلُ على الخَدَّيْنِ مِدرارُ[١]

قالتْ أُمُّ صُرَيح[٢] تَرْثِي قَوْمَها:

ولمّـا اكْفَهَرَّتْ مِنْ عليهم سَـحابَةٌ إذا بَـرَقَتْ بِالمَـوْتِ أمْطَرَتِ الدَّما

المَوْتُ السَّيْفُ كما قالتْ خِرْنِقُ أُخْتُ طَرَفَةَ:

ذاكَ وقِـدْمـاً يُـعْـجِـلُ البـازِل الـ ـكَوماءَ بِالمَوتِ كَشِبْهِ الحَصِيرْ[٣]

قالتْ صَفيةُ بِنْتُ عَمْرو تَرْثِي أخاها، وفيها رِواياتٌ أُخَرُ[٤]:

---

(١) والبيت بتمامه:

كـأنَّ عَيـنـي لِذِكْراهُ إذا خَـطَـرَت فَيْـضٌ يَسِيْلُ عَلَى الخَدَّيـنِ مِـدرارُ.

انظر: ديوان الخنساء، شرح ثعلب أحمد بن يحيى بن سيار الشيباني النحوي، بتحقيق الدكتور أنور أبو سويلم، ص٣٧٨.

(٢) أم صريع (صريح) الكندية (٦٧-١٣ ق. هـ/ ٥٥٧-٦٠٩م): شاعرة مجيدة، مولدها بحضرموت، وهي مشهورة بالشعر وجودته، وكان أبناؤها قد وقعوا قتلى في وقعة يوم جيشان.

انظر: تراجم شعراء الموسوعة الشعرية: ١ /٩١٦، معجم الأديبات الشواعر، ص٥٨.

(٣) البازل: الجمل والناقة يذكر ويؤنث. والكوماء: الناقة العظيمة السنام الطويلة. الحصير: سقيفة تصنع من بردي وأسل ثم تفرش. ولعله يشبه الناقة بها في الضخامة. انظر: ديوان الخرنق، ص٥٠.

(٤) صفية بنت عمرو الباهلية كانت شاعرة قومها في الجاهلية، محبوبة عندهم، ذات مقام رفيع. وكان لها أخ من السراة المغاوير، وكانت تحبه ويحبها محبة شديدة ولا يرغبان الافتراق عن بعضهما إلا للضرورة، وكان مرة غزا في قومه حياً من أحياء العرب، فدارت عليهم الدائرة، وقتل أخو صفية، ولما بلغها الخبر شقت عليه الجيوب ولطمت الخدود ونشرت الشعور، ورثته بمراث كثيرة. انظر: الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، ص٤٧٤.

كُنّا كَغُصنَيْنِ في جُرْثُومَةٍ بسقا ... حِيْناً على خير ماتنمى لها الشَّجَرُ

حَتّى إذا قِيْلَ قَدْ طالَتْ فُرُوعُهُما ... وطابَ غرسهما واستوثق الثَّمَرُ(١)

أخْنَى على واحِدٍ رَيْبُ الزَّمانِ وما ... يُبْقِي الزَّمانُ على شَيءٍ ولا يَذَرُ(٢)

كُنّا كأنْجُمِ لَيْلٍ بينها قَمَرٌ ... يَجْلُو الدُّجَى فَهَوى مِنْ بَيْنِنا القَمَرُ(٣)

قال امْرُؤُ الْقَيْسِ يَصِفُ صَوْتَ جَرْيِ الفَرَسِ حين حَمِيَ في العَدْوِ:

إذا ما جَرَى شأْوَيْنِ وابْتَلَّ عِطْفُهُ ... تَقُولُ هَزِيْزُ الرِّيحِ مَرَّتْ بأَثْأَبِ(٤)

---

(١) قوله: «سمقا» أي طالا في كمال. والجرثومة: الأصل، فيقول: كنا كفَنَنَيْنِ خرجا من أصل واحد فنميا وطالا، واستكملا زماناً، وبقيا يزدادان على أحسن ماتزداد له الأشجار، حتى إذا فرعا، وآتت أغصانهما وبرعا، وكثر ورقهما، واستطيب ظلهما، وصارا ينتظر ثمرهما، وقف الأمر بهما دون الغاية المرجوة فيهما، ودعي أحدهما مقدما على الآخر للمحتوم لهما. والفرع من كل شيء: ماتفرع منه في أعلاه. الفيء من الظل: مافاء من جانب إلى جانب. ومعنى استُنظِر: انتُظِر. ورواه بعضهم: «واستنضِر الثمر»، أي: وجد ناضراً غضاً. والأول أحسن.

(٢) قوله: «أخنى» جواب «إذا» من قوله: «حتى إذا قيل قد طالت فروعهما»، وقوله: «ومايبقي الزمان» اعتراض حصل بين ما قبله وما بعده من القصة، مؤكد له. فيقول: لما بلغ الأمر بنا ذلك المبلغ أناخ حدثان الدهر على أحدهما فأتلفه وأفسده، والزمان هذا دأبه، لا يسلم عليه شيء، بل يرتجع كما يعطي، ويسلب كما يهب.

(٣) ثم قال: «كنا كأنجم ليل بينهما قمر»، وهذا تشبيه ثانٍ، كأنها في الأول ـ وهو كنا كغصنين ـ شبهت نفسها وصاحبها بغصنين، وفي الثاني شبهت العشيرة كلها والمتوفى فيها، بنجوم ليل أحدقت بقمر استضاء ظلامُ الليل بنوره، فسقط ذلك القمر من وسطها، فعاد الليل كما كان. وهذا الكلام فيه تفضيل للمتوفى على ذويه كلهم، فإنهم كانوا يستكشفون ظلمة حوادث الدهر من جهته ومكانه، فلما فارقهم عاد الشرُّ جَذَعا، والضِّياءُ حِندِسا. انظر: شرح ديوان الحماسة: ٢/ ٩٤٨-٩٤٩.

(٤) يقول: إذا جرى هذا الفرس طَلَقَيْن، وابتلَّ جانبه من العرق، سمعت له خَفقًا كَخَفقِ الريحِ =

قال الحاتِمُ الطّائِيُّ وفيه تَشْبِيهٌ ذُوْ جِهَتَين:

وغَمْرَةِ مَوْتٍ ليس فيها هَوادَةٌ ... يَكُونُ صُدُورَ المَشرِفي جُسُورُها[١]

فَشَبَّهَ حَدَّ السَّيْفِ بِالجِسْرِ صُوْرَةً ومَعْنًى.

قال النّابِغَةُ يَصِفُ الثَّوْرَ يحْفُرُ كُناسَهُ في يَوْمِ الرِّيْحِ، ويَحْمِي وجْهَهُ عن الرَّمْلِ المُتَطايِرِ، وشَبَّهَهُ بِالحَدّادِ:

مُولِّيَ الرِّيْحِ رَوْقَيْهِ وجَبْهَتَهُ ... كالهِبْرِقِيِّ تَنَحّى يَنْفُخُ الفَحَما[٢]

ويَصِفُ شَجَرَ الأَسْتَنِ وجاءَ بِتَشْبِيهِ صَوَّرَ الشيءَ بِتَمامِهِ:

تَحِيدُ مِن أَسْتَنٍ سُودٍ أَسافِلُهُ ... مَشْيَ الإِماءِ الغَوادِي تَحْمِلُ الحُزَما[٣]

= إذا مرَّت بأثأب ـ وهو شجر يشبه الأثل، يشتد صوت الريح فيه ـ وهزيز الريح: صوتها. انظر: ديوان امرئ القيس: ص٤٩.

(١) غمرة الموت: كناية عن الحرب، والهوادة: اللين والتهاون، والمشرفي: السيف. ديوان حاتم الطائي، تحقيق الدكتور عادل سليمان، ص٢٣٣.

(٢) روقيه: قرنيه، والهبرقي: الحداد؛ وإنما شبه الثور به لأنه مكث يبحث الرمل، ويكب عليه، فيجتهد وينفخ من التعب، كما يكب الحداد. ومعنى «تنحّى»: تحرَّف، وقيل: معناه اعتمد. وحكي عن الأصمعي في قوله: «مُولي الريح روْقَيه»، قال: يستقبل الريح إذا حفر، حتى إذا فرغ ودخل في كِناسه كانت الريح من خلفه، فهو يستقبلها إذا حفر، ليستدبرها إذا دخل. وقال غيره: كل وحشي إذا ربض فهو يستقبل الريح. وشبهه بالهبرقي النافخ للفحم في شدة نَفَسه؛ لما لقيه من سوء مبيته وشدة جهده، وإنما وصفه بهذا ليكون أنشط له، وأذكى لفؤاده. انظر: ديوان النابغة الذبياني، ص٦٦، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٣) وقوله: «تَحِيدُ عن أَسْتَنٍ»، أي: تعدل هذه الناقة أو هذه النَّحُوص ـ وهي الأتان التي لا لبن لها، ولا حمل بها ـ وتنفر من هذا الشجر. والأَسْتَن: شجر سود، واحدتها أستنة. انظر: ديوان النابغة، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٦٥، والشعر والشعراء لابن قتيبة، =

اعْتَـرَضَ الأَصْمَعِيُّ[١] على قولِهِ:

«الإماءِ الغَوادِي» وقال: إِنَّما تُوْصَفُ الإِماءُ بِالرَّواحِ في هذا المَوْضِعِ لا بِالغُدُوِّ، وأَنْشَدَ:

يـظَـلُّ بـهـا رُبْـدُ النَّعـامِ كأَنَّهـا إِمـاءٌ تُزَجَّى بِالعَشِـيِّ حَواطِبُ[٢]

وأَخْطأَ الأَصْمَعِيُّ، فإِنَّ النّابِغَةَ سَمّاهُنَّ «الغَوادِي» لِبُكُورِهِنَّ لِلاحْتِطابِ، كما هي العادَةُ ـ لا لِرُجُوعِهِنَّ ـ لِتَصْوِيرِ عِظَمِ الحُزْمَةِ.

عَنْتَرَةُ أَجادَ في تَشْبِيهِ مَنْ عَلِقَتْ بِهِ الأَسِنَّةُ:

غـادَرْنَ نَـضْـلَـةَ فـي مَـعْـرِكٍ يَـجُـرُّ الأَسِـنَّـةَ كالمُحْتَطِبْ[٣]

= بتحقيق أحمد شاكر: ١/ ١٦٨، والصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ص٨٤.

(١) الأصمعي (١٢٢-٢١٦هـ = ٧٤٠-٨٣١م) عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي: راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. نسبته إلى جده أصمع، ومولده ووفاته في البصرة، كان كثير التطواف في البوادي، يقتبس علومها، ويتلقَّى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة. أخباره كثيرة جداً. وكان الرشيد يسميه «شيطان الشعر». قال الأخفش: ما رأينا أحدًا أعلم بالشعر من الأصمعي. وقال أبو الطيب اللغوي: كان أتقن القوم للغة، وأعلمهم بالشعر، وأحضرهم حفظاً. وكان الأصمعي يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة. وتصانيفه كثيرة. انظر: الأعلام: ٤ / ١٦٢.

(٢) البيت للأخنس التغلبي، وهو شاعر قديم، قبل الإسلام بدهر. وتُـزَجَّى: تساق. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق أحمد شاكر: ١/ ١٦٩.

(٣) يقول: غادرت الخيل نضلة الأسدي، والرماح فيه يجرها كما يجر المحتطب الحطب. والمعرك موضع القتال. والأسنة الرماح.

وهو يَصِفُ اللِّواءَ:

كَتائِبُ تُزْجَى فوقَ كُلِّ كَتِيبَةٍ لِواءٌ كَظِلِّ الطَّائِرِ المُتَقَلِّبِ[1]

وهو يُشَبِّهُ ويُصَوِّرُ:

فَمالَتْ بِي الأَهْواءُ حَتَّى كأَنَّما بِزَنْدَيْنِ في جوفي مِنَ الوجْدِ قادِحُ[2]

وهو يَجْمَعُ تَشْبِيهَيْنِ، ويُشِيرُ إلى ذِلَّةِ أعْدائِهِ:

حَلَفْنا لَهُم والخَيْلُ تَرْدِي بِنا مَعاً نُزايِلُكُم حَتَّى تَهِرُّوا العَوالِيا[3]

عَوالِيَ زُرْقاً مِن رِماحِ رُدَيْنَةٍ هَرِيرَ الكِلابِ يَتَّقِينَ الأفاعِيا[4]

فإنْ تأمَّلْتَ في هذه التَّشْبِيهاتِ، رأيْتَ أنَّها ما جاءَ بها الشَّاعِرُ، إلَّا لِغَرَضٍ

---

(١) وقوله: «كتائب تزجى» هو مردود على قوله:

كأنَّ السَّرايا بينَ قَوٍّ وقارةٍ عصائبُ طيرٍ يَنْتَحِينَ لِمَشْرَبِ

السّرايا جمع سريّة، وهي الكتيبة تخرج نحو بلاد العدو، فشبه السّرايا كأنها عصائب طير، وشبه لواء ملك الكتيبة وظله بالأرض بظل الطائر الذي يطير، فيقلب جناحيه ويصرفهما، ومعنى تزجى: تساق. انظر: ديوان عنترة، ص٢٧٨-٢٧٩.

(٢) وقوله: «فمالت بي الأهواء»، أي: مال بي الشوق والهوى عن الصبر إلى الوجد والطرب. والقادح الذي يقدح النار. شبه ماينطوي عليه من حرارة الوجد بالنار، وأراد بالزندين الزند والزندة (يقال للأعلى: زناد، وللأسفل: زندة). انظر: ديوان عنترة، ص٢٩٨.

(٣) قوله: «والخيل تردي بنا معاً». الرديان ضرب من المسير، ومعنى تهروا: تكرهوا.

(٤) والعوالي جمع عالية الرمح، وهي دون السنان بذراع، وقيل أيضاً: هي الرماح نفسها. والزرق: المصقولة الصافية. وردينة امرأة تنسب إليها الرماح، ويقال: هي جزيرة بالبحرين ترفأ إليها السفن. قوله: «هرير الكلاب»، أراد حتى تهروا العواليا هرير الكلاب، وهريرها صوتها، وإنما تصوت إذا كرهت شيئاً. وقوله: «يتقين الأفاعيا» ضرب هذا مثلاً، أي نحن لهم كالأفاعي يتقوننا، فيهرون كما تهر الكلاب خوفاً من الأفاعي. انظر: ديوان عنترة، ص٢٢٤-٢٢٥.

تَصوِيرِ الشيءِ، أو لِأَجْلِ التَّرْجَمَةِ من حاسَّةٍ إلى حاسَّةٍ، وكُلُّ ما هو أَشَدُّ تَصْوِيراً وأطْبَقُ تَرْجَمَةً، فذلك أحْسَنُها.

قولُهُ: «بِزَنْدَيْنِ في جَوفي من الوجْدِ قادِحُ».

ليس إلَّا لِيُصَوِّرَ لك الشَّرارَ. وكذلك قولُ عَبِيْدِ بْنِ الأَبْرَص:

بَـرِمَـتْ بَـنـو أَسَـدٍ كـمـا   بَرِمَـتْ بِبَيْضَتِهـا الحَمامَهْ[1]

جَـعَلْـتَ لَـهـا عُـودَيْـنِ مِـنْ   نَشَـمٍ وآخَـرَ مِـنْ ثُمامَـهْ[2]

فهل ترى كيف أحْسَنَ هذا التَّصْوِيْـرَ.

وقال نُصيب[3] :

---

(١) يصور الشاعر حالة بني أسد بعد ما غضب عليهم ملك كندة حجر بن الحارث، ويستعطفه عليهم، ويشير في هذه الصورة إلى المثل المضروب بخرق الحمامة، فهي لا تحكم عشها، لأنه ربما تبنيه على غصن معرض للرياح، فبيضها أضيع شيء. وهكذا بنو أسد بعد غضب الملك عليهم ضاعوا كما ضاع بيض الحمامة. ويصور ضيعتهم وحيرتهم على هذه الصورة التي أحسن فيها التصوير.

انظر: ديوان عبيد بن الأبرص، ص١٢٦، تحقيق الدكتور حسين نصار، ط١، ١٩٥٧م.

(٢) النشم: شجر جبلي تتخذ منه القسي. الثمامة: واحدة الثمام، وهو نبت ضعيف لايطول، ويروى: «وعوداً من ثمامه».

(٣) نصيب بن رباح، أبو محجن، مولى عبد العزيز بن مروان (.. ـ ١٠٨هـ = .. ـ ٧٢٦م): شاعر فحل، مقدم في النسيب والمدائح. كان عبداً أسود لراشد بن عبد العزى من كنانة، من سكان البادية. وأنشد أبياتاً بين يدي عبد العزيز بن مروان، فاشتراه وأعتقه. وكان يتغزل بأم بكر (زينب بنت صفوان) وهي كنانية، وفي بعض الروايات: «زنجية» ومن شعره فيها قصيدة مطلعها:

بِزَيْنَبَ أَلْمِـمْ قَبْـلَ أَنْ يَرْحَـلَ الرَّكْـبُ   وَقُـلْ إِنْ تَـمَـلِّيـنَـا فَمَـا مَلَّـكَ القَلْـبُ =

كأنَّ القَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ[1] يُغْدَى ... بِلَيْلَى العامِرِيَّةِ أو يُراحُ

قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فَباتَتْ ... تُجاذِبُهُ وقَدْ عَلِقَ الجَناحُ

لَها فَرْخانِ قَدْ تُرِكا بِوَكْرٍ ... فَعُشُّهُما تُصَفِّقُهُ الرِّياحُ

إذا سَمِعا هُبوبَ الرِّيحِ نَصّا ... وقَدْ أودَى بِهِ القَدَرُ المُتاحُ

فلا في اللَّيْلِ نالَتْ ما تُرَجِّي ... ولا في الصُّبْحِ كانَ لَها بَراحُ

وقَرَنْتُ بين المُصَوَّراتِ المَحْضِ، وبين التَّشْبِيْهاتِ؛ لِترى المُناسَبَةَ بينهُما، وقُرْبَ أمْرِهِما.

= له شهرة ذائعة، وأخبار مع عبد العزيز بن مروان وسليمان بن عبد الملك والفرزدق وغيرهم. وكان يعد مع جرير وكثير عزة. وسئل عنه جرير، فقال: أشعر أهل جلدته. وتنسك في أواخر عمره. وكان له بنات، من لونه، امتنع عن تزويجهن للموالي، ولم يتزوجهن العرب، فقيل له: ما حال بناتك؟ فقال: صببت عليهن من جلدي (بكسر الجيم) فكسدن علي! قال الثعالبي: وصرن مثلا للبنت يضن بها أبوها فلا يرضى من يخطبها ولا يرغب فيها من يرضاه لها. انظر: الأعلام: ٨/ ٣٠-٣١.

(١) إن السامع لهذه المقطوعة الموسيقية الحزينة، يتأثر لحال الثلاثة: القطاة التي باتت بين نارين، الشرك الذي وقعت فيه، والتفكير في فرخيها وقد باتا وحيدين لأول مرة! والفرخان اللذان أحسا بفقد أمهما، وعشهما تصفقه الرياح، وقلب المحب الذي تفتق حزناً على فراق محبوبته. ومن الصور الجميلة المتحركة في هذه المقطوعة، صورة القطاة وهي تجاذب الشرك، وقد تركها الشاعر تجاذبه طول الليل، بينما جناحها عالق فيه. ومنها عش الفرخين على كف الرياح، تذهب به يمنة ويسرة، وهما داخله مشتتا الخواطر بين فقدان الأم، ومصير العش. فإذا سمعا صوت الريح نصبا أعناقهما، وفتحا أفواههما ظناً منهما أن أمهما جاءتهما بالطعام. وقد تركنا الشاعر نتملى المشهد بمناظره الثلاثة الحزينة، ونحن نشفق على مصير القطاة، والعش، والفراخ. انظر: شعر نصيب بن رباح، جمع وتقديم الدكتور داود سلوم، ص٧٤، طبع بغداد، ١٩٦٧م.

وبعد ذلك من التَّشْبِيهاتِ ما لايُـرَى، كالتَّشبيهِ بادِيَ بَدْءٍ، ولَكِنَّهُ ليس إلَّا التشبيه، وإذا التَّفَنُّنُ يَذْهَبُ بِالمَلالِ، فينْبَغِي أنْ تَعْلَمَ أنْحاءَ التَّصْوِيْرِ فيه؛ لكيلا تَذْهَبَ مَذْهَباً واحِداً.

فَمنه قولُ المُهلهِلِ يَرْثِي أخاهُ:

وَلَسْـتُ بِخالِـعٍ دِرْعِـي وسَـيْفِي إلـى أنْ يَـخْـلَـعَ اللَّيْـلَ النَّهـارُ[1]

-فَشَبَّهَ اللَّيْلَ بِاللِّباسِ على النَّهارِ.

-وشَبَّهَ الدِّرْعَ بِاللَّيْلِ.

-وشَبَّهَ لُزُوْمَ السِّلاحِ بِجِسْمِهِ، بِلُزُوْمِ اللَّيْلِ بِالنَّهارِ.

-وشَبَّهَ جِسْمَهُ بِالنَّهارِ لِبَياضِهِ.

والأُسْلُوبُ ليس بِأُسْلُوبِ التَّشبِيهِ الظّاهِرِ، بل هو مِمّا سَمَّوْهُ المَجازَ[2]. ومن

---

(١) خلع: نزع، وتبرأ من، وخلع امرأته طلقها. ديوان مهلهل بن ربيعة، ص٣٤، تقديم طلال حرب، طبع دار صادر، بيروت.

(٢) تَذْكِرَةٌ: تَشْبِيْهٌ لِتَصْوِيرِ أَمْرٍ مُرَكَّبٍ مَخْلُوطٍ، أَحْسَنَ فيهِ الْعَرَبُ وأجادُوا، وَلَهُم قَصَبُ السَّبْقِ؛ لِما أَنَّهُم تَجَنَّبُوا الْباطِلَ ـ الَّذي أَوْقَعَ الْعَجَمَ فيهِ وُلُوعُهُم بِالتَّكَلُّفِ والتَّصَنُّعِ الْبادِي قُبْحُهُ وَشَناعَتُهُ ـ.

فَمِنْهُ تَشْبِيْهُهُمْ الْعَسْكَرَيْنِ عند اللقاء: فَقال عَبْدُ الشّارِقِ الْجُهَني:

فَـجـاؤُوا عـارِضـا بَـرِداً وَجِئْنا كَمِثْـلِ السَّـيْلِ تَرْكَـبُ وازِعَيْـنـا

فَـنـادَوْا: يالَـبُـهْـثَـةَ إِذْ رأوْنـا فَـقُـلْـنا: أحْسِـنِي مَلأً جُـهَـيْنا

أحْسِني ضَرْباً.

سَـمِـعْنا نَبْأَةً عَـنْ ظَهْـرِ غَيْـبٍ فَـجُـلْـنا جَـوْلَـةً ثُـمَّ ارْعَـوَيْـنا

فـلـمّـا أنْ تَـواقَـفْـنا قَـلـيـلاً أَنَـخْـنا لِلْكَـلاكِـلِ فارْتَـمَـيْـنا

فَلَمّـا لَـمْ نَـدَعْ قَوْسـا وسـهماً مَـشَـيْنا نَحْوَهُـمْ وَمَشَـوا إِلَيْـنـا

=

ذلك ما مَرَّ من قَوْلِ عَبِيْدِ بْنِ الأَبْرَص:

القـائِـلُ القَـوْلَ الَّـذي مِثْلُـهُ   يَـمْـرَعُ مِـنْـهُ البَـلَـدُ الماحِـلُ

فَشَبَّهَ القَوْلَ بِالغَيْثِ بَـرَكَةً، بِطَرِيْقِ الكِنايَةِ، وهذا تَشْبِيْهٌ عامٌّ في التَّوْراةِ، وجاءَ في القرآنِ تَشْبِيْهاً واسْتِدْلالاً.

دَلالَةُ التَّشْبِيه:

قيل: إنَّ التشبيهَ جُلُّ مَحاسِنِ الشِّعْرِ.

قُلْنا: لَمّا كان الكَلامُ للتَّعْلِيمِ، ولِلتَّحْرِيضِ، وللحَقِّ والباطِلِ، فَبِهِما انْقَسَمَ التَّشبيهُ إلى هذه الأقْسامِ.

فَمِنَ التَّعليمِ ما هو حَقٌّ وما هو باطِلٌ. ومن التَّحْرِيـضِ ما هو على الخَيْرِ، وما هو على الشَّرِّ، فنحن نَحْكُمُ على التَّشبِيهِ أوَّلاً من هذه الوجُوْهِ، ثُمَّ يُحْكَمُ على التَّشبِيهِ من إنجاحِ مَقْصِدِ المُتَكَلِّمِ، سَواءٌ كان حَسَناً أو قَبِيْحاً، والنّاسُ يَسْتَجِيْدُونَ التشبيهَ من هذه الجِهَةِ مَحْضاً، وهو لا يَصِحُّ إلَّا عند الغافِلِيْنَ، المُغْتَـرِّينَ بِالظّاهِرِ من الحَياةِ الدُّنَيا.

اعلمْ:

ـ أنَّ الباعِثَ الأوَّلَ على التَّشبِيهِ، هو حِرْصُ النّاطِقِ على إِظْهارِ ضَمِيْرِهِ، واسْتِعْمالِ قُوَّةِ النُّطْقِ بِقُوَّةٍ، حَتَّى يَجْعَلَ السّـامِعَ كأنَّهُ قد رأىَ وجَرَّبَ فَتأَثَّرَ بِهِ،

= تَـلأْلُـؤَ مُـزْنَـةٍ بَـرَقَـتْ لأُخْـرَى   إذا حَـجَـلُـوا بِـأَسْـيـافٍ رَدَيْنا

قال معقل بن خويلد:

فَـجـاؤُوا عـارِضـا بَـردا وَجِئْنا   كَهَيـجِ الرِّيـحِ تَقْـذِفُ بِالْغَمـامِ

انظر: كتاب الحماسة البصرية: ١/ ١٨٠-١٨١، تحقيق الدكتور عادل سليمان، ط١، ١٩٩٩م، طبع مكتبة الخانجي.

فالنّاطِقُ إنّما يُؤَدّي المعنى بأثَرِهِ بما يَزيدُهُ وضاحَةً وأثراً.

ـ والباعِثُ الثّاني: أنَّ النّاطِقَ لايَنْطِقُ لِمَحْضِ الإظْهارِ، ولكنْ لِيُؤَثِّرَ [في] السامع ويُحَرِّكَهُ، ويَجْلِبَ رَغْبَتَهُ أو نُفْرَتَهُ إلى مَحْضِ السَّمْعِ؛ لِيُعَجِّبَهُ بنَفْسِهِ، [ويُعَجِّبَ] النّاسَ بِنُطْقِهِ بالتَّصويرِ العَجيبِ الحَسَنِ النّادِرِ، ويَتَوسَّلُ بذلك إلى أُمُورٍ أُخَرَ، من جَلْبِ الصِّيتِ، أو مَنافِعَ أُخَر.

ـ والباعِثُ الثّالِثُ: أنّهُ يَتَوسَّلَ بالتَّشبيهِ إلى تَقْريْرٍ أو تَحْرِيْضٍ مِن جِهَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَينِ:

ـ الأُوْلَى: أنَّ المَثَلَ أشْبَهُ بِأنْ يَكُوْنَ كَمَثَلِهِ في أُمُورٍ أُخَرَ.

ـ والثّانِيَةُ: أنَّ الأمْرَ العَقلِيَّ، أو الدَّعوى المَجْهُولَةَ، إذا صُوِّرَت مَحْسُوْسَةً، أسْرَعَ الذِّهْنُ إلى التّأثُّرِ بها؛ لِفِطْرَتِهِ بالتّأثُّرِ لِلمَحْسُوسِ، وتَعَوُّدِهِ بذلك، كما ترى النّاسَ يَقْرَؤونَ القِصَصَ المَكْذُوْبَةَ، ويَضْحَكُوْنَ، ويَبْكُونَ، ويَفْرَحُونَ، ويَحْزَنونَ بها، مع عِلْمِهِم بِكَذِبِها.

فالتّشبيهُ إيضاحٌ، وإعجابٌ، وتَقريرٌ، وتأثِيرٌ.

وهذه الأُمُورُ تَدخُلُ في فَوائِدِهِ، ودَلالَتِهِ، وإشارَتِهِ.

المَذْهَبُ الباطِلُ في التَّشْبِيْه:

ـ اعلمْ أنَّ المُولَّدِينَ زَعَمُوا أنَّ النُّدْرَةَ والبُعْدَ في التَّشبيهِ من مَحاسِنِهِ، وقد أسْهَبَ الجُرْجانِيُّ ـ رحمه الله ـ في إثباتِ ذلك، وجَمَعَ التَّشبيهاتِ الرَّدِيئَةِ. وإنّا نوردُ عليك منها، لكي تُعْمِلَ فيها ذَوْقَكَ، وتَـبَيَّنَ سَخافَتَها(١).

---

(١) انظر: أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، بتحقيق محمود شاكر ص١٥٨-١٥٩، نشر دار المدني جدة، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

بابٌ في بَيانِ أُصُولٍ عامَّةٍ لِلْبَلاغَةِ:

مِمّا يَتَعَلَّقُ بالكلام، والمُتَكَلِّم، والسّامِع، والمعنى، إنَّما أَخَّرْتُ المعنى لكونه هو الغَرَض، ولم أُرِد اسْتِقْصاءَها، ولكِنِّي أورَدْتُ ماكان جَدِيْراً بِالذِّكْرِ.

فما يَتَعَلَّقُ بالكلام: فأُصُولُها:

ـ مُطابَقَةُ الكلام بِالمعنى.

ـ والوُضُوحُ.

ـ ونَفْيُ الفُضُولِ، وحُسْنُ التَّرتِيبِ.

ـ والمُقابَلَةُ، والتّشبيهُ ـ والتَّمثِيلُ من الوُضُوحِ ـ وتَنقِيحُ اللَّفْظِ من المُطابَقَةِ ـ.

ومِمّا يَتَعَلَّقُ بِالسّامِعِ فأُصُولُها:

ـ الاسْتِمالَةُ ـ بِذِكْرِ مَدْحِهِمْ، وإلقاءُ المَدْحِ بعد اللَّوْمِ والزَّجْرِ أوقَعُ ـ.

ـ وجَلْبُ التِفاتِهِم ـ بِذِكْرِ مايُنَشِّطُهُم من العَجِيْبِ أو المَدْحِ أو بِالسُّؤالِ ـ

١ ـ الاعْتِدالُ:

ـ قد عَلِمْتَ أنَّ زِيادَةَ الاعْتِناءِ بِتَفصِيلِ شيءٍ، يَجْلِبُ النَّفْسَ، ويَصْرِفُها عن عَمُودِ الكلامِ شَيئاً قَلِيلاً.

فهذا يَهْدِيكَ إلى أنَّ لها مَواقِعَ: فيها تُحْمَدُ، وأُخْرَى فيها تُذَمُّ.

فإنَّك رُبَّما لاتَجِدُ حاجَةً في زِيادَةِ التَّفصِيلِ:

ـ لِما لاتُحِبُّ الرَّيْثَ في الكلامِ عن جَرَيانِهِ على رِسْلِهِ، وإلى نَحْوِ عَمُودِهِ.

ـ أو لأنَّ الشَّيْءَ يَقْتَضِي الاحْتِرامَ.

ـ أو الاحْتِجابَ.

فلا يَرْفَعُ عَنْهُ الأسْتارَ.

فهذانِ مانِعانِ عن التَّفْصِيلِ، ومعهُما مَوانِعُ أُخَرُ.

ونَبْسُطُ لهُما القَولَ في بابِ الإيجازِ، وبابِ الكِنايَةِ ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالى ـ.

ـ ثُمَّ إنَّ العِنايَةَ بِتَفصِيلِ شيءٍ، تُجْتَنَبُ من جِهَةِ الكَثْرَةِ، فإنَّ الإكْثارَ، وإنْ كان من اللَّذِيْذِ، يُمَلُّ إذا تَتابَعَ، وهذا أصْلٌ عامٌّ لِكُلِّ حُسْنٍ، فقد جَعَلَ الله لِكُلِّ شيءٍ قَدْراً.

٢ ـ مُطابَقَةُ الكلامِ بِالمعنى:

لِيَكُن التَّعْبِيْرُ مُطابِقاً بِالمعنى: لِيْناً، وخُشُونَةً، وحَلاوةً، ومَرارَةً ـ حَسْبَما أرَدْتَ مِن المَدْحِ والذَّمِّ ـ كما قال حاتِمٌ الطّائِيّ:

فـإذا مـا مَـرَرْتَ فـي مُـسْـبَـطِرٍّ فاجْمَحِ الخَيْـلَ مِثْلَ جَمْحِ كِعابِ[1]

ومنه ما قال امْرُؤُ القَيْسِ:

.... وشَـحْمٍ كَهُدّابِ الدِّمَقْسِ المُفتَّلِ[2]

---

(١) ديوان شعر حاتم الطائي، بتحقيق الدكتور عادل سليمان، ص١٨٦، وفيه: «زعم الأصمعي أن أجْمَحَ: أرْسَلَ، وقال: أجمَحَ الخيلَ، إذا أرسلها أو دفعها، وقال: جَمَحَ الكعِابَ: ضَرَبَ بها.

ومُسْبَطِر: طريقٌ ممتد، وقد اسْبَطَـرَّ الشيءُ إذا استقام».

(٢) وأوله:

يَـظَـلُّ العـذارَى يرْتَمِيـن بِـلَحْمِهـا

قوله: يرتمين بلحمها: أي: يتهادينه بينهن، وقيل: معناه: تدَّعي كلُّ واحدة منهن أن عقر الناقة كان من أجل صاحبتها. والدِّمَقْس: الحرير الأبيض؛ شبه الشحم به لبياضه ولينه ونعومته. انظر: ديوان امرئ القيس، ص١١.

أو كما قال:

.... كَمَشْيِ العَذارَى في المُلاءِ المُهَدَّبِ[1]

وهذا اخْتيارُ المُناسِبِ يَكُونُ من عِدَّةِ جِهاتٍ:

- مِن الصَّوْتِ.

- مِن اللَّوازِمِ.

- مِن التَّشبيهِ.

أمّا مِن التَّشبيهِ فقد عَلِمْتَ.

أمّا مِن الصَّوْتِ فكما قال لَبِيْد[2] :

---

(١) وأوله:

فينـا نِعـاجٌ يَـرْتَعِيـنَ خمَيلـةً

النعاج: إناث بقر الوحش. والخميلة: رملة فيها شجر قد صار لها كالخمل. والمُلاء: الملاحف البِيض، شبَّه النعاج في بياضهن وسكون مشيتهن بالعذارى الماشيات في الملاحف البيض. والمهدَّب: ذو الهدب، شبه شعر أذنابهنَّ به. انظر: ديوان امرئ القيس، ص٥٠.

(٢) لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري (... ـ ٤١هـ = ... ـ ٦٦١م): أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. من أهل عالية نجد. أدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ، ويعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم، وترك الشعر، فلم يقل في الإسلام إلا بيتًاواحدًا، قيل: هو:

مـا عـاتَـبَ المَـرْءَ الـكَريمَ كنَـفسِـه والمَـرْءُ يُصْلِحُـهُ الجَلِيـسُ الصالِحُ

وسكن الكوفة، وعاش عمراً طويلاً. وهو أحد أصحاب المعلقات. وكان كريماً، نذر أن لا تهب الصبا إلا نحر وأطعم. جمع بعض شعره في «ديوان» صغير ـ ط. انظر: الأعلام: ٥ / ٢٤٠.

غُلْبٌ تَشَذَّرُ بِالذُّحُولِ كأَنَّها جِنُّ البَدِيِّ رَواسِياً أَقْدامُها[١]

المُرادُ مِن البَيْتِ: الصَّدْرُ: في أَمْرِ الصَّوْتِ. والعَجُزُ: في أَمْرِ التَّشبِيهِ.

فاجْتَمعتْ خُشُونَةُ المعنى، والصَّوْتِ، والتَّشبِيهِ.

وفي القرآنِ:

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

ولم أرَ قَوْماً راعَوا[٢] مُطابَقَةَ الصَّوْتِ بالمعنى كما أرَى العَرَبَ؛ فإنَّهُم بُرآءُ مِن التَّكلُّفِ، مُولَعُونَ بِالصِّدْقِ، مُتَجَنِّبُونَ مِن السَّفاسِفِ.

وقد مَرَّ بَسْطُ القولِ في بابِ دَلالَةِ الصَّوْتِ والنَّغْمَةِ.

ومِن المُطابَقَةِ أبْوابُ المعاني.

٣ ـ سَذاجَةُ الكلامِ:

لا يَنْبَغِي أنْ تُشَدِّدَ في تَصْويرِ أُمُورٍ جَلِيَّةٍ، أو غَيرِ مُهِمَّةٍ.

مثلاً: تُحاوِلُ أنْ تُصَوِّرَ كَلامَكَ: «اِذْهَبُوا»، أو «كُلُوا»، أو «اِشْرَبُوا».

---

(١) يروى: «غلب تشاذر». غلب: يقولون: تلك الوفود كأنها فحول غلب، وهم الغلاظ الأعناق. تشذر: تتهدد وتتوعد، كتشذر الناقة بيدها، وفي التبريزي: التشذر: رفع اليد ووضعها. وتشذرت الناقة: إذا شالت بذنبها. وفي ابن الأنباري: تشذر الناقة عقدها ذنبها. بالذحول: الذحول أي: الثارات والأحقاد. التشاذر: النظر بمآخير الأعين. البدي: واد لبني عامر معروف بالجن. رواسياً: ثوابتاً. وقد تقرأ «غلبٍ» مجرورة على اعتبار أنها: وجماعة غلب. انظر: ديوان لبيد: ص١٧٧، وجمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي: ١/ ٣٧٧، تحقيق الدكتور محمد علي الهاشمي.

(٢) في الأصل: «راعى».

فإنَّ التَّصويرَ في أمْثالِ هَؤُلاءِ من بابِ لُغَةِ الخُرْسِ، حَتَّى أنْ يَصِيرَ الأمْرُ حَرِيَاً بالاهْتِمامِ، ويَخرُجَ مِن دَرَجَةِ البَسِيْطِ العامِّ، كما ترى في الأمْثِلَةِ الآتِيَـةِ:

مَـشَـيْنا مِـشْـيَـةَ اللَّـيْثِ غَدا واللَّـيْـثُ غَضْبانُ[1]

٤ ـ التَّرْتِيْبُ:

ثُمَّ مِن الأمُورِ المُهِمَّةِ: حُسْنُ التَّرتِيبِ وصِحَّتُهُ، فإنَّكَ تَعْلَمُ أنَّ حُسْنَ الشيءِ جُلُّ أمْرِهِ تَرْتِيْبُ الأجْزاءِ.

فإنْ قَدَّمْتَ ما حَقُّهُ التَّأخِيرُ، أو فَعَلْتَ بِالعَكسِ، مَسَخْتَ الشَّيءَ، والحَكِيمُ لا يَضَعُ لَفْظاً، أو مَعنىً، أو مثلاً، إلَّا وقد عَلِمَ المَوقِعَ الصّالِحَ لهُ، وبِذلك تَتَفاوتُ دَرَجاتُ الكلامِ.

وكما أنَّ في التَّرتِيبِ سِرَّ الحُسْنِ وسِحْرَهُ، وكما أنَّهُ لا يَصْلُحُ أمْرٌ إلَّا بِهِ، فكذلك فيها دَلالاتٌ جَمَّةٌ.

فكم مِن المعاني الدَّقِيقَةِ، والحِكَمِ الغامِضَةِ مُسْتَوْدَعٌ فيه.

والواجِبُ على المُتأمِّلِ في القُرآنِ، أنْ يَتَدبَّرَهُ كَلِمَةً كَلِمَةً، ويُؤْمِنَ بأن تَحْتَها

---

(١) البيت للفِند الزِّمَّاني، والفند لقب له، وهو القطعة العظيمة من الجبل؛ لعظم شخصه، واسمه شهل بن شيبان بن ربيعة بن زِمَّان بن مالك بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، شاعر جاهلي قديم، أحد فرسان ربيعة المشهورين المعدودين، وشهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المئة، فأبلى بلاءً حسناً، وكان يقال: عديد الألف.

انظر: الأمالي لأبي علي القالي، وشعر الفند الزماني، للدكتور حاتم صالح الضامن، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السابع والثلاثون، الجزء الرابع، ص٢٨٨-٣١٣، والأمالي لأبي علي القالي: ١/ ٢٦٠، وخزانة الأدب، للقادري: ٣/ ٣٩٩، بتحقيق محمد نبيل طريفي، وإميل بديع اليعقوب.

حِكَماً، وفي نَظْمِها سِرّاً، وإذَنْ يُوشِكُ أنْ يَتَجَلَّى عليه بَعْضُ المَكْنونِ حَسْبَ اسْتِعْدادِهِ.

وتَزْدادُ أهَمِّيَّةُ التَّرتِيبِ عِندَنا، إذا رأَيْنا غَفْلَةَ النّاسِ حَتَّى المُجْتَهِدِينَ عنهما. ولا تَسْتَبعِدْ الغَفْلَةَ عن هذهِ الطّائفَةِ، فإنَّهُم ذَهَبُوا مَذْهَبَ تَدْقِيقِ النَّظَرِ، فوقَعوا في تَحلِيلِ المُرَكَّبِ، واعتادوا تَضييقَ البَصَرِ.

ولِما أنَّ سِرَّ التَّرتِيبِ، لا يَظْهَرُ إلَّا إذا وسَّعْتَ نَظَرَكَ، ورأيْتَ الشَّيءَ مع أطْرافِهِ وما حَوالِيهِ، ثُمَّ قابَلْتَ بَعْضَها بِبَعْضٍ، فكانَ المُحَلِّلُونَ أبْعَدَ النّاسِ عنْ إدْراكِ دَلالاتِ التَّرتِيبِ.

وهذهِ غَلَبَةُ عادَةِ التَّحلِيلِ، على عادَةِ التَّركِيبِ داءٌ دَهْياءُ، قَهَرَتْ العُقُولَ كالكابُوسِ، وجَعَلَتْ مُرُوجَ العُلُومِ كالحَصِيدِ اليَبَسِ، وكثُرت المُتُونُ والحَواشِي. ـ وقُدْوتُهُم أرِسْطُو ـ.

وأعْظَمُ المَصائِبِ أنَّها صارتْ سَدّاً، دُوْنَ معانِي القُرآنِ، فلم يَقْنَعِ الشَّرُّ بِإماتَةِ العُلُومِ، ولكن بَسَطَ يَدَهُ إلى الدِّينِ، ـ وهَل هُما إلَّا تَوأمانِ؟ ـ.

وهذه دَلالاتُ التَّرتِيبِ بابٌ عَظِيمٌ، كلما ازْدَدْتَ فيه مَهارَةً، زادكَ عِلْماً وحِكْمَةً.

ثُمَّ لِـزِيادَةِ أهَمِّيَّةِ هذا الأصْلِ جِهَةٌ أُخْرَى ـ وهي أنَّهُ يَجْري في استِعمالِ سائِرِ الأُصُولِ ـ، فما من صَنْعَةٍ إلَّا والتَّرتِيبُ رُوحُها.

وبَسْطُ القولِ على التَّرتِيبِ في بابِ النِّظامِ.

وبَعْضُ الأمْثِلَةِ يَكْفِيكَ هاهُنا:

ذَكَرَ صاحِبُ «أسْرارِ البَلاغَةِ» أنَّ قَوْلَ المُرَقِّشِ[١] :

---

(١) المرقش الأكبر (...ـ نحو ٧٥ ق هـ = ...ـ نحو ٥٥٠م) عوف أو عمرو بن سعد بن =

النَّشْرُ مِسْكٌ والوُجُوهُ دَنا نِيرٌ وأطْرافُ الأكُفِّ عَنَمْ[(١)]

ليس فيه تَرتِيبٌ.

ونوجِّهُكَ إلى تَرتِيبِ هذه الصِّفاتِ، لِتَعْلَمَ كيف غَفَلَ عنهُ مِثْلُ الجُرْجانِيّ، فتَعْلَمَ دِقَّةَ هذا المَسْلَكِ، ورِفْعَةَ مَحَلِّهِ، ولا تَسْتَبعِدَ خَفاءَ نِظامِ القرآنِ، عن جُمْهُورِ المُفَسِّرِينَ.

فاعلمْ أنَّ الشّاعِرَ ذَكَرَ النَّشْرَ أوّلاً، لأنَّكَ تَجِدُهُ عن ظَهْرِ الغَيْبِ.

ثُمَّ ذَكَرَ حُسْنَ الوُجُوهِ لِما تَجِدُهُ عند المُشاهَدَةِ.

ثُمَّ إذا اقتَرَبتَ ولَمَسْتَ الأكُفَّ، وجَدْتَ نُعُومَتَها.

فلو لم يَكُنْ هَمُّهُمْ مَقْصُوراً على التشبيهِ وأنواعِهِ، لم يَخْفَ عليهم وجْهُ التَّرتِيبِ.

= مالك بن ضبيعة من بني بكر بن وائل: شاعر جاهلي، من المتيمين الشجعان. عشق ابنة عم له اسمها: أسماء، وقال فيها شعراً كثيراً. وكان يحسن الكتابة. وشعره من الطبقة الأولى، ضاع أكثره. ولد باليمن، ونشأ بالعراق. واتصل مدة بالحارث أبي شمر الغساني ونادمه ومدحه. واتخذه الحارث كاتباً له. وتزوجت عشيقته أسماء برجل من بني مراد، فمرض المرقش زمناً، ثم قصدها فمات في حيها. وفي المؤرخين من يسميه عمرو بن سعد وربيعة ابن سعد. وهو عم المرقش الأصغر، وهذا عم طرفة بن العبد.

انظر: الأعلام: ٥ / ٩٥.

(١) والعنم: نبات أغصانه غضة دقاق شبه الأصابع. أي: أن الاستقبال كان بالأصابع التي تشبه العنم.

انظر: الحيوان للجاحظ: ٦/ ١١٩، والأغاني: ٦/ ١٢٦، وأمالي المرتضى: ٤/ ١٦٥، ومعاهد التنصيص: ١/ ١٦٢.

وهكذا نَـقَلَ الجُرْجانِيّ كَلاماً مِـن الجاحِظِ[1] (ص٤٢ دلائل الإعجاز) واسْتَحْسَنَهُ.

ولكن قال: ليس فيه تَرتيبٌ.

وإنِّي لا أدْري كيف يَذْهَلُ عاقِلٌ عن التَّرتِيبِ ـ لاسيَّما مِثْلُ الجاحِظِ ـ. وأيُّ شيءٍ يَمْنَعُهُ أنْ يُراعِيَ التَّرتِيبَ في معانِيهِ؟ ولم يَمْنَعْهُ سَجْعٌ، ولا وزْنٌ شِعْرِيٌّ.

وأُرِيدُ أنْ أشْرَحَ كَلامَ الجاحِظِ، لِيَكُونَ لك أُنْمُوذَجاً ومِثالاً ـ فتَفَكَّرْ وتَدَبَّرْ في نِظامِ كَلامِ اللهِ العَلِيِّ ـ.

قال الجاحِظُ: «جَنَّـبَكَ اللهُ الشُّبْهَةَ، وعَصَمَكَ من الحَيْرَةِ، وجَعَلَ بينكَ وبين المَعْرِفَةِ نَسَباً، وبين الصِّدْقِ سَبَباً. وحَبَّبَ إلَيْكَ التَّـثَبُّتَ، وزَيَّنَ في عَيْنِكَ الإنْصافَ، وأذاقَكَ حَلاوةَ التَّقْوى، وأشْعَرَ قَلْبَكَ عِزَّ الحَقِّ، وأودَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ اليَقِيْنِ، وطَرَدَ عنكَ ذُلَّ اليأْسِ، وعَرَّفَكَ ما في الباطِلِ من الذِّلَّةِ، وما في الجَهْلِ مِن القِلَّةِ»[2].

فإنْ مَرَرْتَ على سَطْحِ هذا الكلامِ، لم تَـرَ فيه نَظْماً، ولكنْ هذهِ الفَقَراتُ لها غَوْرٌ، وهُناكَ يَظْهَرُ حُسْنُ تَرتيبِهِ:

فاعلَمْ أنَّ الشُّبْهَةَ أوَّلُ البَلِيَّةِ، فتُغادِرُ المَرْءَ مُتَحِيِّراً، لا يَدْرِي أيَّ الأمْرَيْنِ يُرَجِّحُ.

فإنْ كان له سَبَبٌ إلى المَعْرِفَةِ مالَ إليها، فَهُدِيَ إلى الصِّدْقِ.

وحِيْنَـئِذٍ يَحْتاجُ إلى التَّـثَبُّتِ عليه، ثُمَّ التَّـثَبُّتُ يَعُودُ تَعَسُّفاً، إذا نَـبَذَ الإنْصافَ،

---

(١) انظر: كتاب أسرار البلاغة، للجرجاني، بتحقيق الأستاذ محمود شاكر، ص١٠، طبع دار المدني بجدة، ط١، ١٤١٢، ودلائل الإعجاز، للجرجاني، بتحقيق الأستاذ محمود شاكر، ص٩٧، ومقدمة كتاب الحيوان للجاحظ: ١/ ٣.

(٢) انظر: كتاب الحيوان، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون: ١/ ٣.

فيَجْمُدُ على ما عَرَفَ، ولا يَصْعَدُ إلى ما هو أرْفَعُ منهُ.

فإنْ زُيِّنَ في عَيْنِهِ الإنْصافُ، تاقَ إليهِ، وهاهُنا كَمُلَتْ له أسْبابُ العِلْمِ، فهذه سِتُّ مَنازِلَ في العِلْمِ.

ثُمَّ لابُدَّ مِن العَمَلِ بما عَلِمَ، وإلَّا فَسَدَ رأْيُهُ، فَيُوشِكُ أنْ يَرَى الباطِلَ حَقّاً، وبِهذا عَلِمْتَ شِدَّةَ حاجَتِنا إلى تَهْذِيبِ أخْلاقِنا؛ لأجْلِ إصابَةِ الرَّأْيِ.

فَمِنَ الأوَّلِ احْتاجَ المَرْءُ إلى مَدَدِ التَّقْوى، فإنَّها مَنْبَعُ فِعْلِ الخَيْرِ.

والمُتَّقِي ـ في هذه الدّارِ الفانِيَةِ ـ رُبَّما ابتُلِيَ بِالبُؤْسِ والضُّرِّ. فإذا نَبَذَ الدُّنْيا وقَنِعَ بِالتَّقْوى فَنَّدَهُ النّاسُ، واسْتَهانَهُ الجُمْهُورُ.

فإنْ صَبَرَ على الضُّرِّ، فكيف يَصْبِرُ على المَهانَةِ؟ إلَّا أنْ يَشْعُرَ بِذُلِّ الباطِلِ، وعِزِّ الحَقِّ، فيُكْرِمُ نَفْسَهُ، ويَهُونُ في عَيْنِهِ جاهُ الأشْرارِ؛ لِيَقِينِهِ الثّابِتِ بِفلاحِ المُتَّقِينَ.

فبهذا العِزِّ الَّذي أُشْرِبَ قَلْبُهُ، طُرِدَ عنهُ ذُلُّ اليأْسِ ـ ولو هَجَمَتْ الشَّدائِدُ، وبَعُدَ عنهُ الوَعْدُ الإلَهِيُّ ـ فَحِينَئِذٍ يَرَى الباطِلَ عَيْنَ الذِّلَّةِ، ويَرَى الجَهْلَ عَيْنَ الفَقْرِ.

فانظرْ كيف جَمَعَ أسْبابَ العِلْمِ والعَمَلِ، وجَعَلَ سِتَّةً لِلعِلْمِ، وسِتَّةً لِلعَمَلِ.

وكيف خَتَمَ الكَلامَ بِذِكْرِ أنَّ مِلاكَ أفعالِنا رَغْبَةُ النَّفْسِ إلى العِزِّ والغِنَى.

ولكِنَّهُ عَلِمَ أنَّ النُّفْرَةَ أقْوى مِن الرَّغْبَةِ سُلْطاناً على أفعالِنا، فَذَكَرَ الذِّلَّةَ والفَقْرَ.

فما أدَقَّ نَظَرَهُ حين بَدأ القَوْلَ بِالشُّبْهَةِ، وخَتَمَ بِالمَعْرِفَةِ الغامِضَةِ، الَّتي هِي مَصْدَرُ الإراداتِ.

والجاحِظُ ـ رحمه الله ـ وشَّى حِبَرَهُ، على مِثالٍ مِن قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ عَباسٍ[1] رضِيَ الله عنه وهو:

---

(١) السجّاد (٤٠-١١٨هـ= ٦٦٠-٧٣٦م) علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، =

«مَنْ لم يَجِدْ من نَقْصِ الجَهْلِ في عَقْلِهِ، وذُلِّ المَعْصِيَةِ في قَلْبِهِ، ولم يَسْتَبِنْ مَوْضِعَ الخَلَّةِ في لِسانِهِ، عند كَلالِ حَدِّهِ عن حَدِّ خَصْمِهِ، فليس مِمَّنْ يَفْزَعُ عن رِيبَةٍ، ولا يَرْغَبُ عن حالِ مَعْجَزَةٍ، ولا يَكْتَرِثُ لِفَصْلِ ما بين حُجَّةٍ وشُبْهَةٍ»[1].

فَذَكَرَ ثلاثَ خِصالٍ سَيِّئَةٍ، هي أُصُولُ الهَلاكِ ـ فَذَكَرَ الجَهْلَ، والمَعْصِيَةَ، وضَعْفَ القولِ؛ إشارَةً إلى فَضائِلِ العِلْمِ والعِفَّةِ والنُّطْقِ ـ كأنَّهُ دَلَّ على أُصُولِ كمالِ الإنسانِيةِ.

وصَرَّحَ [بِمَحَالِّها] الثَّلاث ـ فَذَكَرَ العَقْلَ والقَلْبَ واللِّسانَ ـ وسَمَّى:

الأَوَّلَ: نَقْصاً.

والثَّانِيَ: ذِلَّةً.

والثَّالِثَ: خَلَّـةً.

ثُمَّ جَعَلَ الأولَيْنِ مِمّا يُعْلَمُ بِالبَداهَةِ والوِجْدانِ.

والثَّالِثَ مِمّا يُعْلَمُ بِالنَّظَرِ والاسْتِبانَةِ.

ثُمَّ جَعَلَ هذه الثَّلاثَ تَحْتَ قُوَّةِ العَقْلِ، فإنَّ الوِجْدانَ والاسْتِبانَةَ مِن العَقْلِ، ولذلك ذَكَرَ الجَهْلَ أوَّلاً، فإنَّهُ مَنْبَعُ الباقِيَيْنِ[2].

= أبو محمد: جد الخلفاء العباسيين. من أعيان التابعين. كان كثير العبادة والصلاة فغلب عليه لقب «السجَّاد» وكان من أجمل الناس وأوسمهم، عظيم الهيبة، جليل القدر. قيل للوليد ابن عبد الملك: إنه يقول بأن الخلافة ستصير إلى أبنائه، فأمر به فضرب بالسياط وأهين، واعتقله هشام بن عبد الملك في البلقاء، فمات معتقلاً. انظر: الأعلام للزركلي: ٤/ ٣٠٢.

(١) انظر البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون: ١/ ٨٥.

(٢) تَذْكِرَةٌ: لِلتَّرْتِيبِ العَقْلِي أنْحاءٌ: مِنْ جِهَةِ الزَّمانِ. ومِنْ جِهَةِ المَكانِ، ومِنْ جِهَةِ الدَّرَجَةِ، ومِنْ جِهَةِ الأثَرِ والتَّدْبِيرِ في التَّأثِيرِ، ومِنْ جِهَةِ الأهَمِّيَّةِ. مَثَلاً: =

٥ ـ المُقَابَلَةُ:

الشَّيءُ يُذْكَرُ مُقابِلُهُ، فالطَّبْعُ أقْرَبُ له قَبولاً، ثُمَّ يَتَبَيَّنُ الضِّدُّ بِالضِّدِّ، ويَزْدادُ حُسْناً، ويَذْهَبُ بِالمَلالِ.

أمّا الأوَّلُ فهو أمْرٌ طَبْعِيٌّ لِلإنْسانِ، حَتَّى إنَّ بَعْضَ العُلَماءِ زَعَمَ أنَّ ـ في الأوَّلِ ـ كُلَّ لَفْظٍ كان لِلضِّدَّيْنِ.

وأمّا حُسْنُ الأشْياءِ، واسْتِبانَـةُ مَحاسِنِها مِن التَّقابُلِ، فكأنَّ مُصَوِّرَ الخَلْقِ ـ تعالى شأنُهُ ـ أظْهَرَ المَحاسِنَ بها، فأخْرَجَ الأزْهارَ الحُمْرَ، والصُّفْرَ، والبِيْضَ، من بَيْنِ أوراقٍ خُضْرٍ، وأبْرَزَ النُّجُومَ البَيْضاءَ من صَفْحَةٍ سَوْداءَ، والقَمَرَ الفِضِّيَّ، في الصَّحْنِ الزَّبَـرْجَدِيِّ.

فهكذا الأمْرُ في الكلامِ وتَصاوِيرِهِ. ولا يَخْلُو منه لِسانٌ.

فأمّا العَرَبُ:

فكما قال المُهلهِلُ:

يُهَزْهِـزُونَ مِـنَ الخَطِّـيِّ مُدْمَجَـةً   كُـمْـتـاً أنابِيبُهـا زُرْقـاً عَوالِيْهـا[1]

= ـ ذِكْرُ الصَّلاةِ قَبْلَ الزَّكاةِ، لِلأهَمِّيَةِ والدَّرَجَةِ. فإنَّ الصَّلاةَ أوَّل.

ـ وَذِكْرُ الزَّكاةِ قَبْلَ الصَّلاةِ، فلِلتَّدْبِيْرِ. فإنَّ الزَّكاةَ عَوْنٌ عَلَى الصَّلاةِ.

ـ وَكَذَلِكَ كُلُّ عَمَلٍ ظاهِرٍ عَوْنٌ عَلَى ما هُوَ أرْفَعُ مِنْهُ، وَيُناسِبُهُ، فَمَنْ أضاعَ الزَّكاةَ، فَيُوشِكُ أنْ يُضيعَ الصَّلاةَ، وَكَذَلِكَ الإيْمانُ والأمانَةُ.

وهكذا تَجِدُ الرَّشِيْدَ فَهِمَ الأمْرَ، فَقال في خُطْبَةٍ لَهُ: «حَصِّنوا إيْمانَـكُمْ بِالأمانَةِ، وَدِيْنَكُمْ بِالْوَرَعِ، وَصَلاتَـكُمْ بِالزَّكاةِ».

(١) يهزهزون: يحركون. الخطيّ من الرماح: المنسوب إلى الخط، وهو مرفأ ببلاد البحرين تنسب إليه الرماح الخطية؛ لأنها تباع به. والكمت: جمع الكميت، وهو بين الأسود =

وما أَحْسَنَ ما قال قَيْسُ بْنُ عاصِمِ المِنْقَرِيُّ[١] في مَدْحِ قَوْمِهِ:

لا يَفْطِنونَ لَعَيْبِ جارِهِمُ   وهُم لِحُسْنِ جِوارِهِم فُطُنُ[٢]

= والأحمر. أنابيبها: جمع الأنبوب، وهو قصبة الرمح. الزرق: جمع الأزرق، وهو النصل الشديد الصفاء. انظر: ديوان مهلهل، ص٩١، طبع دار صادر.

(١) قيس بن عاصم بن سنان المقريزي السعدي التميمي، (...ـ نحو ٢٠هـ = ...ـ نحو ٦٤٠م) أبو علي: أحد أمراء العرب وعقلائهم، والموصوفين بالحلم والشجاعة فيهم، كان شاعراً، اشتهر وساد في الجاهلية. وهو ممن حرَّم على نفسه الخمر فيها. ووفد على النبي ﷺ في وفد تميم (سنة ٩هـ)، فأسلم، وقال النبي ﷺ لما رآه: هذا سيد أهل الوبر! واستعمله على صدقات قومه. ثم نزل البصرة في أواخر أيامه، وروى أحاديث. وتوفي بها. وهو الذي يقول عبدة بن الطيب في رثائه:

وما كان قَيْسٌ هُلْكُه هُلْك واحِدٍ   ولكنَّه بُنْيانُ قومٍ تَهَدَّما

وكان له ٣٣ ولداً. قال لهم في مرض موته: «يا بَنيَّ، احفظوا عني ثلاثاً، فلا أحد أنصح لكم مني: إذا أنا مت فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم فيحقر الناس كباركم وتهونوا عليهم، وعليكم بحفظ المال فإنه منبهة للكريم، ويستغنى به عن اللئيم، وإياكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل». انظر: الأعلام: ٥ / ٢٠٦.

(٢) هذا البيت من عجيب ماروي في الحلم: جيء قيس بن عاصم بابن له قتيلًا، وابن أخ له كتيفاً، وقيل له: هذا قتل ابنك، فلم يقطع حديثه، ولا نقض حبوته، فلما فرغ من حديثه، التفت إلى بعض بنيه، فقال: قم إلى ابن عمك فأطلقه، وإلى أخيك فادفنه، وإلى أم القتيل فأعطها مئة ناقة، فإنها غريبة، لعلها أن تسلو عنه. ثم اتكأ على شقه الأيسر، وقال هذه الأبيات:

إنِّي امْرُؤٌ لا يَعْتَري خُلُقي   دَنَسٌ يُغَيِّرُهُ ولا أَفَنُ
مِنْ مِنْقَرٍ في بَيْتِ مَكْرُمَةٍ   والْفَرْعُ يَنْبُتُ فَوْقَهُ الْغُصُنُ
خُطَباءُ حين يقولُ قائِلُهُم   بِيْضُ الوجُوهِ مَصَاقِعٌ لُسُنُ
لا يَفْطِنُون لِعَيْبِ جارِهِم   وهم لحفظ جِوارِهِم فُطُنُ

انظر: ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، ص٥٤.

وهذا كما قال الحاتِمُ:

وإنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ ما دامَ ثاوِياً وما فِيَّ إلَّا تِلْكَ مِنْ شِيْمَةِ العَبْدِ[١]

وأحْسَنَ المُقابَلَةَ دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ[٢]:

ويَبْقَى بعد حِلْمِ القَومِ حِلْمِي ويَفْنَى قَبْلَ زادِ القَومِ زادِي[٣]

وحُسْنُ هذه المُقابَلاتِ في جَمْعِ الحَسَنَتَيْنِ، ثُمَّ في وصفِهما بِالمُقابَلَةِ، لِيَزدادَ ضَوءُهُما، ولِيَبِينَ حَدُّهُما.

فَجَمَعَ الإِغْماضَ، والفَطانَةَ، والتَّواضُعَ، والأَنَفَةَ، والعَقْلَ، والسَّخاءَ. وقال مَعْبَدُ بْنُ عَلْقَمَةَ[٤]:

---

(١) البيت في الحماسة البصرية: ٣/ ١٢٩٨، بتحقيق الدكتور عادل سليمان، والبيان والتبيين: ٣/ ٣٠٩، ولم يرد البيت في ديوان حاتم، بتحقيق الدكتور عادل سليمان.

(٢) دريد بن الصمة (... ـ ٨هـ = ... ـ ٦٣٠م) دريد بن الصمة الجشمي البكري، من هوازن: شجاع، من الأبطال، الشعراء، المعمرين في الجاهلية. كان سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم، وغزا نحو مئة غزوة لم يهزم في واحدة منها. وعاش حتى سقط حاجباه عن عينيه، وأدرك الإسلام، ولم يسلم، فقتل على دين الجاهلية يوم حنين، وكانت هوازن خرجت لقتال المسلمين فاستصحبته معها تيمناً به، وهو أعمى، فلما انهزمت جموعها أدركه ربيعة بن رفيع السلمي فقتله. له أخبار كثيرة. والصمة لقب أبيه معاوية بن الحارث. انظر: الأعلام: ٢ / ٣٩٩.

(٣) انظر: ديوان دريد بن الصمة، ص١٧٧، بتحقيق الدكتور عمر عبد الرسول، طبع دار المعارف، مصر.

(٤) معبد بن علقمة المازني (... ـ نحو ٧٠هـ = ... ـ نحو ٦٩٠م) شاعر، من الشجعان. يقال له: ابن أخضر، وأخضر زوج أمه، نسب إليه هو وأخ له اسمه: عباد. له مواقف وأشعار في حرب الخوارج. وكان عبيد الله بن زياد انتدب أخاه عباداً لقتالهم، فحاربهم وقتلوه (نحو سنة ٦٠هـ)، وأخذ معبد بثأره وقال: =

وتَـجْهَـلُ أيدِينا ويَحْلُمُ رأْيُنا ونَشْـتِمُ بِالأفعـالِ لا بِالتَّكَلُّمِ[١]

وقال تأبَّطَ شَرّا:

يـابِسُ الجَنبَيـنِ مِنْ غَيرِ بُؤسٍ ونَـدِي الكَفَّيْـنِ شَـهْمٌ مُدِلُّ[٢]

قال النَّبيُّ ﷺ في مَدحِ الأنصارِ:

«يقلُّون عند الطَّمع، ويكثرون عند الفزع»[٣].

= سـأحمي دمـاء الأخضـريين إنـه أبـى النـاس إلا أن يقولـوا ابن أخضـرا

وهو صاحب (الحماسية) التي يقول فيها:

وَتَـجْهَـلُ أَيْدِينَـا وَيَحْلُـمُ رَأْيُنَـا وَنَـشْـتِمُ بِالأفعالِ لا بِالتَّـكَلُّمِ

انظر: الأعلام: ٧ / ٢٦٤.

(١) أفعال جملة الإنسان تنسب إلى جوارحهم على المجاز والسعة، فلذلك نسب الجهل إلى الأيدي، والمعنى أن ما يُذمُّ من أفعال القلوب لا نكتسبه بوجه، بل فينا الرأي الثاقب، والوقار الغالب، والأناة والحلم، والسكينة والعلم؛ فأما اليد فإذا بطشنا بها بطشنا جبارين، أي: نحلم بجهدنا، ومقدار طاقتنا، فإذا أحرجنا فخرجنا عن العادة كانت أفعال أيدينا أفعال الجهال الذين لا رِدْعَة تردعهم، ولا رقة تضبطهم. وقوله: «ونشتم بالأفعال»، يقول: نجعل جزاء الشتم والمنقصة والثلب الفعل لا القول؛ إذ كان القول يذهب أدراج الرياح، والفعل يبقى أثره على مر الأيام. انظر: شرح ديوان الحماسة، لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي: ٢/ ٧٥٣، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٦٨م.

(٢) قوله: «يابس الجنبين من غير بؤس»، يريد أنه يؤثر بالزاد غيره على نفسه، وعادتهم التمدُّح بالهزال، وقوله: «ندي الكفين»، أراد أنه سخي، ويقال: هو يتندَّى على أصحابه، أي: يتسخّى، و«الشهم»: الذكيُّ الحديد، ومنه قيل للقنفذ: الشَّيهم. و«المدلُّ» هو الواثق بنفسه وبآلاته وعُدَّتهِ. انظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي: ٢/ ٨٣٠. وديوان تأبط شراً، ص٢٤٩، بتحقيق علي ذو الفقار شاكر، طبع دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٤م.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخه: ٤/ ٣٥، والطحاوي في شرح معاني الآثار، برقم ٤٦٥٩، وإسناده ضعيف. انظر: غريب الحديث للخطابي، برقم ٦٠٣.

ويَضمَحِلُّ قولُ أوسِ بن حُجْر[١]، في جَنْبِ هذا السَّهْلِ المُمْتَنِعِ؛ حيث قال:

وليس أخُوكَ الدّائِمُ العَهْدِ بالَّذي ... يَذُمُّكَ إنْ ولَّى ويُرضِيكَ مُقْبِلَا

ولكنّه النّائي إذا كنتَ آمناً ... وصاحِبُكَ الأدْنَى إذا الأمْرُ أعْضَلَا[٢]

والبَلاغَةُ القُصْوى، التي يَحْسُرُ دُونَها الوصْفُ، ويَضِيقُ العَقْلُ عن إحاطَتِها ـ في قولِهِ تعالى ـ:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ ـ أرادُوا الفِرارَ ـ فَلَا فَوْتَ ـ أيْ: لم يُمْكِنْهُمْ أنْ يُفْلِتُوا ـ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [سبأ: ٥١-٥٢].

فَمَنْ فَهِمَ مَعْنَى الآيَتَينِ، صُوِّرَتْ بين يَدَيْهِ جماعَةٌ، أوّلاً فَزِعُوا فأرادُوا الفِرارَ، فلم يُمْكِنْهُم الإفْلاتُ، بل أُخِذُوا على مَكانِهِمْ، فَلَمّا يَئِسُوا قالوا: آمَنّا، ـ ولاتَ حين الإيمانِ ـ فإنَّ وقْتَ الإيمانِ كان بِالغَيْبِ، في حَياتِهِم الأُولَى، وقد فاتَهُم الآنَ، وبَعُدَ عنهُمْ مَكاناً، فَيَمُدُّونَ إليه أيْدِيَهُم، كالمُتَناوِشِ لِما بَعُدَ عنهُ، فأنّى له ذاكَ؟

---

(١) أوس بن حُجْر بن مالك التميمي (٩٨ ـ نحو ٢ ق هـ = ٥٣٠ ـ نحو ٦٢٠م)، أبو شريح: شاعر تميم في الجاهلية، أو من كبار شعرائها. في نسبه اختلاف بعد أبيه حُجْر. وهو زوج أم زهير بن أبي سلمى. كان كثير الأسفار، وأكثر إقامته عند عمرو بن هند، في الحيرة. عمر طويلاً، ولم يدرك الإسلام. في شعره حكمة ورقة، وكانت تميم تقدمه على سائر شعراء العرب. وكان غزلاً مغرماً بالنساء. قال الأصمعي: أوس أشعر من زهير، إلا أن النابغة طأطأ منه. وهو صاحب الأبيات المشهورة التي أولها:

أيتها النفس أجملي جزعا

له «ديوان شعر» ـ ط. انظر: الأعلام: ٢ / ٣١.

(٢) انظر: ديوان أوس بن حُجْر، ص: ٩٢، بتحقيق الدكتور محمد يوسف نجم، طبع دار صادر، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.

٦ ـ تَمْيِيزُ المعاني وفَرْقُ دَرَجاتِها:

قد تَـبَيَّنَ لك مِمّا مَرَّ في بَيانِ حُسْنِ التَّرتِيبِ، أنَّهُ رُبَّما يَخْفَى على العُلَماءِ، فكيف بِالعامَّةِ؟

والآنَ نُـبَيِّنُ لك عِلَّةَ هذا الخَفاءِ.

فاعلمْ أنَّ كَلامَيْنِ أو كَلِمَتَيْنِ، رُبَّما يتراءيان مُتَماثِلَيْنِ في المعنى، فيَظُنُّ الظّانُّ أنَّهُما تَكْرارٌ مَحْضٌ، وتأْكِيدٌ لِأمرٍ واحِدٍ، وتَصوِيرُ شيءٍ بِصُورٍ مُختَلِفَةٍ.

فلا يَعْبأُ بِمَعرِفَةِ الفَرْقِ، فَيَبقَى في حِجابٍ عن غَوْرِ الكلامِ، ثُمَّ يُقَلِّدُ هذا الجِنسَ فيما يَصْنَعُهُ.

ولذلك تَرى الجُرْجانِيَّ، والباقِلّانِيَّ[1]، وأمثالَهُما ـ رَحِمَهُم اللهُ ـ مع سَعَةِ باعِهِم، في التَّصَرُّفِ بِأنحاءِ التَّعبِيرِ، يأْتُونَ بِفَقَراتٍ مُتَرادِفَةٍ، ظَنّاً مِنْهُم بِأنَّها من جِنْسِ: «جَنَّـبَكَ اللهُ الشُّبْهَةَ». وشَتّانَ ما بينهُما.

والعاقِلُ يَشْمَئِزُّ عن التَّـكَلُّفِ المَحْضِ، وإِظْهارِ ثَروةِ الكَلِماتِ، وفَقْرِ المَعنَى.

وإِذْ رَسَخَ هذا الظَّنُّ فيهم، عَكَفُوا على ظَواهِرِ اللَّفْظِ، واستَجادُوا التَّـنَوُّعَ، والقَوافِي، فإِنَّ التَّـكْرارَ لِأجْلِ التّأكِيْدِ، له مَواضِعُ تَخُصُّهُ.

فإِنْ تأَمَّلْتَ في هذا الأمرِ، تَـبَيَّنَ لك أنَّ البَلاغَةَ وحُسْـنَ الكلامِ، في لُبِّ المَعانِي، وهُناكَ نِظامُها.

---

(١) محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر الباقلّاني (٣٣٨-٤٠٣هـ = ٩٥٠-١٠١٣م) قاض، من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة. ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفي فيها. كان جيد الاستنباط، سريع الجواب. وجّهه عضد الدولة سفيراً عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يـدي ملكها. من كتبه «إعجاز القرآن». انظر: الأعلام للزركلي: ٦/ ١٧٦.

فَمَن التَمَسَ النِّظامَ، دَقَّ بابَ التَّدَبُّرِ في أسرارِ الكلامِ، وعَلِمَ كيف يُؤَدِّي عن نَفْسِهِ أُموراً خَفيةً، وكيف يُرَتِّبُها تَرتِيباً عَقلِيّاً ـ انظرْ أنْحاءَ التَّرتِيبِ العَقلِيِّ ـ وكيف يُهَذِّبُ كَلامَهُ عن الزَّوائِدِ.

٧ ـ تَنقِيحُ الألفاظ:

تَنقِيحُ الألفاظِ طَرَفٌ من التَّمييزِ والمُطابَقَةِ، وإنَّما جَعَلْتُهُ أصْلاً برأسِهِ، لِشِدَّةِ الاعتِناءِ بِهِ، فإنَّكَ بعدما جَعَلْتَ تَمْيِيزَ المعانِي المُتَماثِلَةِ نُصْبَ عَينَيكَ، لا بُدَّ أنْ تُصَمِّمَ فِكرَكَ إلى خَواصِّ دَلالَةِ الكَلِمَةِ، فتَضَعَها مَواضِعَها الخاصَّةَ بِها، وتُراعِيَ التَّرتِيبَ والمُطابَقَةَ ـ كما رأيتَ الجاحِظَ ـ كيف أخَذَ من الألفاظِ لِلمعانِي المُتَشابِهَةِ، ما كان ألْيَقَ بِكُلٍّ منها.

وهَاهُنا نَزِيدُ لك مِثالاً:

من أمثِلَةِ شِدَّةِ انتباهِهِم لِجَودَةِ الألفاظِ المُفرَدَةِ، أو رَداءَتِها، أنَّهُمْ كانوا يُسَمُّونَ بِذلك، كما يُسَمُّونَ بِفِعالِهِم، فَهُم سَمَّوا المُرَقِّش، لِما أنَّهُ أوَّلُ مَن استعمَلَ لَفْظَ الرَّقْشِ، لِبَقايا الرُّسُومِ، حَيْثُ قال:

الـدّارُ قَـفْـرٌ والـرُّسُـومُ كـمـا ... رَقَّـشَ فـي ظَهْـرِ الأدِيـمِ قَلم[١]

وكان الرَّقْشُ يُسْتَعْمَلُ لِألوانٍ مُخْتَلِطَةٍ، مُتَبايِنَةٍ، واضِحَةٍ ـ كما على جِلْدِ الحَيَّةِ ـ فهذه اللَّفْظَةُ أوضَحَتْ التَّصْوِيْرَ، ولم يَضِعْ حُسْنُ اختِيارِهِ في قَوْمٍ فُطْنٍ، ثُمَّ تَبِعَهُ الشُّعَراءُ فقال طَرَفَةُ:

---

(١) المرقَّش: لقب غلب عليه ببيته الذي قاله، فلقب به، وهو شاعر جاهلي. انظر: المفضليات، للضبي أبي العباس، ص٢٣٧، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف ـ القاهرة، ط٦. وخزانة الأدب للبغدادي: ٨/ ٣١٣، بتحقيق عبد السلام هارون، ط٤، مكتبة الخانجي، القاهرة.

كَسُطُورِ الرَّقِّ رَقَّشَهُ ... بِالضُّحَى مُرَقِّشٌ يَشِمُهْ[١]

فَزادَ طَرَفَةُ لَفْظَةَ: «الضُّحَى» لِتَدُلَّ على جودَةِ صُنعِهِ، فإِنَّهُ إنْ فَعَلَ في اللَّيلِ، أو حين قِلَّةِ الضَّوْءِ في النَّهارِ، لَعَلَّهُ لم يُبَيِّنْ بين الألوانِ، فلو لم يَفطَنْ طَرَفَةُ بِأَنَّ حُسْنَ لَفظِ الرَّقْشِ في الوُضُوحِ، لم يَزِدْ عليه لَفْظَةَ: «الضُّحَى».

ثُمَّ زادَ عليه لَفظَةَ: «مُرَقِّش». وكأنَّ طَرَفَةَ أرادَ أنْ يَسْبِقَ المَتبُوعَ، فإِنَّ القَلَمَ رُبَّما يَسْتَعْمِلَهُ مَنْ لا يُحسِنُ العَمَلَ.

ولكن إذا أخَذَ القَلَمَ صاحِبُهُ أجادَ الرَّقْشَ، ثُمَّ زادَ عليه لَفْظَةَ: «يَشِمُهُ» ـ يُبَيِّنُ عادَتَهُ بِالوشْمِ ـ ثُمَّ مع هذه الأُمُورِ أكْمَلَ التَّصْوِيرَ، بِاستِعمالِ الفِعلِ، كأنَّك ترى مُرَقِّشاً يَشِمُ الرَّقَّ في الضُّحَى ـ وهذا كَلامِي خارِجٌ عن البابِ ـ. ولكن جَلَبَهُ بَيْتُ طَرَفَةَ، وإِنَّما أَرَدْنا الإِشارَةَ إلى تَنَبُّهِهِم لِجَوْدَةِ الألفاظِ الخاصَّةِ، مع النَّظَرِ إلى صِحَّةِ المعنى.

وقال قُرادُ بنُ غَوية بن سُلميٍّ[٢] يَرْثِي نَفْسَهُ:

وكُنْتُ لَهُ عَمّاً لَطِيفاً ووالِداً ... رَؤُوفاً وأُمّاً مَهَّدَتْ وأنامَتِ[٣]

---

(١) الرَّق: الصحيفة. رقشه: زيّنه وحسّنه، شبه رسوم الدار بسطور الكتاب. بالضحى: أي: رقشه في وقت الضحى، وذلك أحكم لصنعة الترقيش، يشمه: ينقشه، ويزينه، ويجعله كالوشم في المعصم، يقول: ولم يبق من الدار إلا رسوم كأنها سطور كاتب، أبدع في نقشها وحليتها. انظر: ديوان طرفة: ص١٤٩.

(٢) قال المرزباني، في معجم الشعراء ص٦٤: قران الضبي. قال ثعلب: هو قران بن رؤبة. وقال غيره: هو قرانة بن غوية الضبي، وقيل: اسمه قراد بن غوية. وأثبتها عندي قرانة بن غوية بن سلمى بن ربيعة بن زبان بن عامر بن ثعلبة الضبي. وفي ديوان الحماسة: قُرادُ بنُ غَوية بن سُلميٍّ بن ربيعة بن زبّان. كان جواداً شاعراً جاهلياً.

(٣) وقوله: «وكنت له عماً لطيفاً» أي: كنت جمعت له مدة عمري، وما اطّرد في نفسي، بين =

انظُرْ كيف اختارَ ثَلاثَ صِفاتٍ، لم يَجِدْ أليَقَ منها بِمَوْصُوفِها، ثُمَّ في التَّرتِيبِ صُعُودٌ مِن العَمِّ إلى الأبِ، إلى الأُمِّ، ولا مَصْعَدَ وراءَها، ومن هذا البابِ قَصْدُ الصِّحَّةِ، وأداءُ الحَقِيقةِ، كما قال:

.... وكَشْحاً قَدْ جُنِنْتُ بِهِ جُنونا[1]

وهذا بابٌ عَظِيمٌ، وقُطْبٌ لِمَحاسِنِ نُطْقِ العَرَبِ، فإِنَّهُم لم يَسْتَحْسِنوا شَيئاً مِثْلَهُ، ولم يَقْصِدُوا مِن الكلامِ إِلَّا هذا، وإذا أصابُوا فيه اطْمأَنُّوا.

ومنه قولُ عَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ:

إِذا بَلَغَ الفِطامَ لَنا صَبِيٌّ تَخِرُّ لَهُ الجَبابِرُ ساجِدِينا[2]

وقولُ جَرِيرٍ[3]:

= حدب الآباء وشفقتهم، ولطف العمومة وتوفرهم، وتفقد الأمهات وإشبالهن ـ أي: التعطف والمعونة ـ. والمعنى: كنت أتنقل له في الأحوال بين ما يأتيه العم في وقت لطفه، أو يأتيه الوالد وقت رأفته، أو الأم وقت تربيتها ولطفها، وقد سارت هذه اللفظة ـ وهي «أمٌّ مهدت فأنامت» ـ مثلاً فيما ينشر من إحسان الغير إلى الغير. ويقال: ما امتهد فلان عندي مهْد ذلك، أي: ما وطَّد لنفسه. انظر: شرح الحماسة للمرزوقي: ٢/ ١٠٠٧-١٠٠٨.

(١) البيت لعمرو بن كلثوم، وأوله:

ومأكمةً يضيقُ الباب عنها

انظر: جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، بتحقيق محمد علي الهاشمي: ١/ ٣٩٣.

(٢) انظر ديوان عمرو بن كلثوم، ص١٠٠، صنعة الدكتور علي أبو زيد، ط١، ١٩٩١م، طبع دار سعد الدين، دمشق.

(٣) جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي، (٢٨-١١٠هـ= ٦٤٠-٧٢٨م) من تميم: أشعر أهل عصره. ولد ومات في اليمامة. وعاش عمره كله يناضل شعراء زمنه ويساجلهم ـ وكان هجاءً مراً ـ فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل. وكان عفيفاً، وهو من أغزل الناس شعراً. وقد جمعت «نقائضه مع الفرزدق» ـ ط في ثلاثة أجزاء، و«ديوان =

إذا غَـضِـبَـتْ عَلَيْكَ بَنـو تَمِيْـمٍ   وجَـدْتَ النَّـاسَ كُلَّهُـمُ غِضابـا[١]

٨ ـ الإيْجاز:

ثُمَّ أهَمُّ الأُمُورِ في تأْدِيَةِ المعانِي، أنْ تَصْطَفِي من أحْوالِ الشيءِ قَلِيْلاً يُخْبِرُ عن كَثِيرٍ لم يُذكَرْ، فإنَّ التَّخييلَ يَكُونُ جُمْلَةً، كما أنَّ إحْساسَ الأشياءِ يَكُونُ بِنَظْرَةٍ ووهْلَةٍ، فإنْ طالَ الكَلامُ خالَفَ سُنَّـةَ الطَّبعِ، وإنْ صَوَّرتَ شَيئاً بِتَفاصِيلِهِ، كان ذلك مِن التّاريخِ والأخبارِ، ويَبعُدُ عن البَلاغَةِ الَّتِي لِلكَلامِ المُحَرِّكِ، فإنْ ذَكَرْتَ بَعْضَ الأحْوالِ، الَّذي أغْنَى غَناءَ الكُلِّ، فقد أبْلَغْتَ ضَمِيْرَكَ.

وإنْ تَـرَكتَ هذا البَعضَ، وجِئتَ بِكُلِّ تَفْصِيْلٍ، فذلك هو العيّ.

وهذا القَلِيلُ الكَثِيرُ، ضالَّةُ البُلَغاءِ، يَحُومُونَ حَولَها، ولا يَجِدُونَها، فإذا هي وُجِدَتْ. قال كُلُّهُم: هِيَ هِيَ. هذه الَّتِي كنتُ أبغِي، وكانت هي تَجولُ في قَلْبِي، وكُنْتُ ألمَسُها ولا أجِدُ، فأُعجِبوا بها لا لِبُعْدِها، بل لِشِدَّةِ قُـربِها، فما كان منها أقْرَبَ كان أحْسَنَ. وهذه نُقْطَةُ الافتِراقِ بين العَرَبِ والعَجَمِ، وبين رُؤَساءِ الكلامِ في المَغرِبِ والمَشرِقِ ـ كَهُومِرُوس، وشاكْسفير[٢]، وفِرْدَوسِي، وعامَّتِهِم ـ الَّذِينَ

= شعره» ـ ط في جزأين. وأخباره مع الشعراء وغيرهم كثيرة جداً. وكان يكنى بأبي حزرة. ولجميل سلطان «جرير، قصة حياته ودراسة أشعاره» ـ ط. انظر: الأعلام: ٢ / ١١٩.

(١) انظر: ديوان جرير: ٢/ ٨٢٣، تحقيق الدكتور نعمان محمد أمين طه، طبع دار المعارف مصر.

(٢) ويليام شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦م) كبير الشعراء الإنكليز. كان ممثلًا ومؤلفاً مسرحياً. سبر في مسرحياته أغوار النفس البشرية، وحلّلها في بناء متساوق جعلها أشبه شيء بالسيمفونيات الشعرية. من أشهر آثاره الكوميدية: «كوميديا الأخطاء»، و«تاجر البندقية»، ومن أشهر آثاره التراجيدية «روميو وجولييت»، و«يوليوس قيصر»، و«هاملت»، و«عطيل»، و«مكبث»، و«الملك لير». الموسوعة العربية الميسرة: (٤/ ٢٠٦٤).

طَلَبُوا كُلَّ نادِرَةٍ بَعِيدَةٍ، مِن القافِيَةِ، والتَّشبِيهِ، والبَدِيعِ.

فكان تَعَجُّبُهُم لِتَصَنُّعِ المُتَكَلِّم، لا لِحُسْنِ الكلامِ، فاجْتَمع لَهُم مِن مَحاسِنِ الكلامِ أسْماءٌ سَمَّوها، وفازَتِ العَرَبُ بِشيءٍ واحِدٍ، لا اسْمَ له عند العَجَمِ، وهو الصِّـدْقُ والتَّأثِيرُ، وإنَّ هذا لهو الَّذي يَبلُغُ القَلْبَ.

وأمّا الأمثِلَةُ لاصطِفاءِ المعانِي فَمَذْكُورَةٌ في بابِ تَنْقِيحِ الألفاظِ.

أُصُولٌ لِلإيْجازِ والإطْنابِ:

أولَى بِنا أنْ نُسَمِّيَ:

ـ الإيْجازَ إحْكاماً.

ـ والإطْنابَ تَفْصِيلاً.

في القرآنِ:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

فالإحْكامُ يَدُلُّ على حِكْمَةِ القائِلِ، ومَعْرِفَتِهِ بالأُصُولِ وحَقائِقِ الأُمُورِ.

والتَّفْصِيلُ يَدُلُّ على سَعَةِ عِلْمِهِ بِتَفاصِيلِ الأُمُورِ.

ولِكُلِّ ذلك مَواقِعُ وأُصُولٌ:

ـ فأمّا المُحْكَمُ مِن الكلامِ، فَـيُلْقَى إلى الحُكَماءِ لِلفِكْرِ، وإلى الجُمْهُورِ لِسُهُولَةِ الأخْذِ بِهِ، وظُهُورِ دَلِيْلِهِ، فإنَّ الحِكْمَةَ أبيَنُ عند القَلْبِ السَّلِيْمِ، كأنَّها لُبابُ الأمْرِ.

والقاعِدَةُ فيه:

ـ أنْ تُذْكَرَ فيه عَوالِيَ الأُمُورِ وأُصُولَها ـ كما ترى في سُورَةِ العَصْرِ، وغيرِها مِن القِصارِ ـ.

ـ وأنْ يُخْتارَ فيه جِهَةُ ظُهُورِها، وأقْرَبُ جانِبٍ يُشِيرُ إلى فُرُوعِها، لكي يَنتَقِلَ الذِّهْنُ منها إلى عُلُومٍ جَمَّةٍ.

ـ وأمّا المُفَصَّلُ مِن الكلامِ، فيُلْقَى بعد المُحْكَمِ ـ كالفَـرْعِ بعد الأصْلِ ـ ويُراعَى فيه:

ـ أنْ يُذْكَرَ فيه ما قد انْطَوتْ عليه القُلُوبُ مِن الفِطْرَةِ ـ ولكن خَفِيَ عليه التَّفصِيلُ ـ، فإذا أُلْقِيَ عليه، عَلِمَ أنَّ هذا هو الَّذي كان في قَلْبِهِ، ولَكِنَّهُ لم يَتَبَيَّنْ عندهُ تَفصِيلُهُ، فكان الكَلامُ تذكارا له.

كما أنَّكَ رأيْتَ شَيئاً، وبَقِيَ في حافِظَتِكَ صُورَتُهُ، ولَسْتَ تَقْدِرُ أنْ تُفَصِّلَهُ، فإذا رأيْتَهُ مَرَّةً أُخْرَى، ورأيْتَ تِمْثالَهُ الصَّحيحَ، صَدَّقْتَ بِأنَّ هذا ذاكَ.

وهذا الأمْرُ يُوْجَدُ في المُحْكَمِ أيضاً، لكِنَّ أكْثَرَ المُحْكماتِ مَعْلُومَةٌ من قَبْلُ، ولكن فروعه ومايلزمه مِن النَّتائِجِ مَذْهُولٌ عنها، ولذلك سَمَّى اللهُ القُرْآنَ وكُتُبَهُ: «ذِكْراً».

وإلى هذا أشارَ طَرَفَةُ حيث قال:

وإنَّ أحْسَـنَ بَيْـتٍ أنْـتَ قائِلُـهُ بَيْـتٌ يُقـالُ إذا أنْشَـدْتَهُ صَدَقـا[1]

وهذا هو مُرادُ الحَكِيْمِ أفْلاطِن[2] : «إنَّ عُلُومَنا ذِكْرُ ما نَسِيْنا».

---

(١) انظر ديوان طرفة: ص٢١٦. ويقال: إن طرفة قال هذه الأبيات في شأن إبل أخيه، وكانت بشبكة امرئ القيس، فوثب حنانة الحاجب ليضربه، فانتزع طرفة سيفه، ثم قالها.

(٢) أفلاطون ولد في أثينا (٤٢٧-٣٤٨ق م) فيلسوف يوناني كلاسيكي، رياضياتي، كتب عدداً من الحوارات الفلسفية، ويعتبر مؤسساً لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، معلمه سقراط وتلميذه أرسطو، وضع أفلاطون الأسس الأولى للفلسفة الغربية والعلوم، كان تلميذاً لسقراط، وتأثر بأفكاره كما تأثر بإعدامه الظالم. نبوغ =

فَصْلٌ في الإِيْجازِ والإِطْنابِ:

في قَصَصِ القُرآنِ تَـرَى مَطْلَباً واحِداً، ذُكِرَ مَرَّةً بالإِيْجازِ، وأُخْرَى بالإِطْنابِ.

ثُمَّ تَجِدُ في كِلَيْهِما المُحافَظَةَ على غايَةِ القِصَّةِ، بل تَجِدُ المَقْصُودَ أوضَحَ في المُوجَزِ.

مثلاً: قولُهُ تعالى:

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ * فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٦-٢٦].

فهذا هو إِحْكامُ القولِ، يَجعَلُ أجزاءَ المعاني في غايَةِ التَّقارُبِ والإِدْماجِ، وهو أوقَعُ في القَلْبِ، وأَبيَنُ لِلعَقْلِ، وأرْسَخُ فيهما، لِجَمْعِ الأُصُولِ.

فإذا أطْنَبَ جَعَلَ لِلأُصُولِ فُـرُوْعاً، وألبَسَها وَرَقاً وزَهْراً وثَمَراً، فأشْغَلَ بواحِدٍ، واحِدٍ، منها، لِيُثْبِتَ الأوَّلَ، ثُمَّ يُؤتَى بالثّاني، والثّالِثِ، وهَلُمَّ جَرّا، ولِكِلَيهِما مَوقِعٌ مِن الفُرصَةِ، والفَراغِ، والنَّشاطِ.

٩ ـ إِدِّخارُ الألفاظِ والأساليْبِ:

الأَصْلُ التّاسِعُ في مَعْرِفَةِ المَعاني واللُّغَةِ، بِأنْ تَعْلَمَ أنْحاءَ البَيانِ، ويَكُونَ

= أفلاطون وأسلوبه ككاتب واضح في محاوراته السقراطية ـ نحو ثلاثين محاورة ـ التي تتناول مواضيع فلسفية مختلفة: المعرفة، المنطق، اللغة، الرياضيات، الميتافيزقياء، الأخلاق والسياسة. انظر: قاموس ناثان الفلسفي، تأليف جيرار دوروزوي وأندريه روسيل. مراجعة: ديمتري أفييرينوس. تعريب أكرم أنطاكي.

عندكَ ذَخِيرَةٌ وافيةٌ مِن الألفاظِ، فتَقْدِرَ على التَّصَرُّفِ بها، وذلك يَحْصلُ بِالعَمَلِ وسَعَةِ النَّظَرِ، وبَيانُ أُصُولِهِ في فَنِّ المَعاني، وذلك قَبْلَ هذا الفَنِّ ـ الَّذي نحن في ذِكْرِهِ ـ وإنَّما نَذْكُرُ هاهُنا أَلَّا تَطْلُبَ من فَنِّ اللُّغَةِ والبَيانِ كَثِيرَ الألفاظِ وتَنمِيقَها، ـ وجَوْفُها هَواءٌ ـ فإنْ حَوَّلْتَها إلى لِسانٍ آخَرَ ذَهَبَ رَوْنَقُها، ولم يَبْقَ مِن المعنى شَيءٌ.

وإنَّما الغَرَضُ أنْ لا يَضيقَ عليك الطَّرِيقُ، بعدما انبَعَثَ في صَدْرِكَ مَعْنَىً جَدِيرٌ بِالبَيانِ، وأنْ تَعْلَمَ كيف تُؤَدِّي كُلَّ ما في قَلْبِكَ، مِن الجَوانِبِ الرَّخِيمَةِ لِمَعْنَىً واحِدٍ، أو كيف تُبَيِّنُ صُوراً مُتَشابِهَةً مع تَمايُزِها، ـ كما رأيتَ في كَلامِ الجاحِظِ مَرَّ بك شَرْحُهُ ـ.

ـ وهذا الأَصْلُ يُقابِلُ جَمِيْعَ الأُصُوْلِ، فهذا الواحِدُ مادَّةُ الكلامِ، والباقِي صُوْرَتُهُ ـ كما أنَّ لِكُلِّ صِناعَةٍ مادَّةً وصُوْرَةً ـ فَذَخِيرَةُ الألفاظِ، وعِلْمُ دَلائِلِ الكَلِماتِ وأنْحائِها، كالخَشَبِ لِلنَّجّارِ، والذَّهَبِ للصّاغَةِ، ومن هاهُنا تُقَدِّمُها تَحْصِيْلاً ـ.

١٠ ـ مَنْـبَعُ الكلامِ:

مِمّا مَرَّ بك آنِفاً، بل من كُلِّ ما قَدَّمْناهُ، لا يَخْفَى عليك أنَّ الصِّناعَةَ في الألفاظِ وتَجْهِيزَها، عِيالٌ على المعنى، فلْيَكُنْ هَمُّ المَرْءِ الَّذي يُحاوِلُ تَـكْمِيلَ النُّطْقِ والبَلاغَةِ، أنْ يُكَمِّلَ عَقْلَهُ وفِكْرَهُ وتَمْيِيزَهُ.

فكم من فَصِيْحٍ، ليس إلَّا كالبُلْبُلِ والبَبَّغاءِ، يُعْجِبُكَ صَوْتُهُ، ولا شَيءَ تَحْتَهُ، وهذا داءٌ عُضالٌ، وضَلالٌ بَعِيْدٌ، وأكبرُ مِثالِهِ أكثَرُ كَلامِ الحَرِيْرِيِّ[1]، فإنْ تَرْجَمْتَهُ رأيتَ سَخافَةَ جُلِّ مَقاماتِهِ.

---

(١) الحريري (٤٤٦-٥١٦هـ = ١٠٥٤-١١٢٢م) القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري: الأديب الكبير، صاحب «المقامات الحريرية». وكان دميم الصورة، غزير العلم. مولده بالمشان (بليدة فوق البصرة) ووفاته بالبصرة. ونسبته إلى عمل الحرير أو بيعه. انظر: الأعلام للزركلي: ٥/ ١٧٧.

وإذْ جعَلَ النّاسُ هذا المَذْهَبَ نُصبَ عُيُونِهم، بَعُدوا عن أصْلِ البَلاغَةِ. حتّى اجْتَرأ بَعْضُ الحُمَقاءِ على القولِ بأنَّهُ أحْسَنُ من القرآنِ، وأين الجِيْفَةُ من ماءِ الحَياةِ؟

وأتَعَجَّبُ من الزَّمَخْشَرِيّ[١]، مع وُلُوعِهِ بِلِسانِ العَرَبِ، وتَعَصُّبِهِ لهُ، كيف قال[٢]:

أُقْسِمُ بِاللهِ وآياتِهِ ومَشْعَرِ الحَجِّ ومِيْقاتِهِ
أنَّ الحَرِيْرِيَّ حَرِيٌّ بأنْ نَكْتُبَ بِالتِّبرِ مَقاماتِهِ

وإنَّما نَقَلْنا هذا الكَلامَ، لكي تَعْلَمَ كيف عَمَّتِ البَلْوى، وانْشَعَبَت الفِتْنَةُ، فَسدَّتْ عليهم أبْوابَ فَهْمِ البَلاغَةِ، وإعجازِ القرآنِ.

حَتّى ظَنَّ الباقِلّانِيُّ ـ رحمه الله وجَزاهُ خَيراً؛ لِما اجْتَهَدَ في الذَّبِّ عن القُرآنِ ـ:

أنْ لا بَلاغَةَ في مِثْلِ آياتِ:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ

(١) الزمخشري (٤٦٧-٥٣٨هـ = ١٠٧٥-١١٤٤م) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ولد في زمخشر (من قرى خوارزم)، وسافر إلى مكة فجاور بها زمناً، فلقب بجار الله، وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم)، فتوفي فيها. أشهر كتبه: «الكشاف» في تفسير القرآن، و«أساس البلاغة»، و«المفصل»، ومن كتبه «المقامات».
انظر: الأعلام للزركلي: ٧/ ١٧٨.

(٢) ثم صنع الزمخشري المقامات المنسوبة إليه، وهي قليلة بالنسبة لمقامات الحريري. انظر: خزانة الأدب: ٦/ ٤٦٢.

ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣].

ولَعَمْرُكَ: هذه آيَةٌ عَظِيمَةٌ.

لَوْ تأمَّلْتَ نَظْمَها، ودَلالَةَ نَسَقِها، ومَنْزِلَةَ هُداها[١]...

واسِطَةُ العِقْدِ:

كُلُّ ما مَرَّ بك، من ذِكْرِ مَحاسِنِ الكلام إجْمالاً، تَجْمَعُها كَلِمَةٌ واحِدَةٌ وهي:

أنَّ جُمْهُورَ مَحاسِنِ الكلامِ، والغَرَضَ الَّذي تَنْزِعُ إليه البَلاغَةُ، ليس إلَّا الصِّدْقَ في الشُّعُورِ، والنِّيَّةِ، والنُّطْقِ.

وحانَ بِنا بعد ذلك أنْ نَشْرَحَ أساليبَ الكلامِ ـ مِن الإِطْنابِ، والإِيجازِ، والوصلِ، والفَصلِ، والتَّصريحِ، والكِنايَةِ، وغَيرِ ذلك. ـ شَرحاً بَيِّناً، ولكِنّا نُريدُ أنْ نَخْتِمَ القِسطَ الأوَّلَ، ونَبْدَأَ القِسطَ الثّاني، بِذِكْرِ بَعضِ آثارِ الصِّدقِ والكَذِبِ على الكلامِ، من حيث ذاتُهُ، دَعْ عنكَ ما لَهُما من الأثَـرِ العَظِيمِ، على أخلاقِ الأُمَّةِ، ومَنزِلَةِ الخَطِيبِ والشّاعِرِ بـين الشُّرَفاءِ، فإِنَّ هذا البَحثَ مع جَلالَةِ قَدْرِهِ، لا يَلِيْقُ بِهذا الكِتابِ الخاصِّ بِفَنِّ البَلاغَةِ.

فاعلمْ أنَّ الأُمَّةَ الَّتِي هَمُّها الصِّدقُ في الكلامِ، تَزِيدُ كُلَّ يومٍ مِن حَقائِقِ الأشْياءِ، ما يَسْهُلُ بِهِ طَرِيقُ البَيانِ لِلمُتأخِّرِ، فاللُّغَةُ تَـكْتَسِبُ بذلك وسائِلَ وأدواتٍ، بها تَتكامَلُ وتَتَـرَقَّى وضاحَةً وقُوَّةً، والأُمَّةُ الَّتِي هَمُّها الإِغراقُ والوَلُوعُ بِالمُبالَغَةِ، والغَفْلَةُ عن حَقائِقِ الأُمُورِ، تَمْلأُ اللِّسانَ بِأُمُورٍ مُبْعِدَةٍ عن[٢]...

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) بياض في الأصل.

القسم الخصوصي

(١) دَلالَةُ الوصْلِ:

١. لم أجِدْ في كَلامِ تَقريبِ البَعِيدِيْنِ، كما وجَدْتُ في القُرآنِ، يَحْذِفُ من القِصَّةِ أُمُوْراً، لا يَكادُ يَحْذِفُها أحَدٌ، ويُوصِلُ الطَّرَفَيْنِ، والغَرَضُ ليس إلَّا صَرْفَ الذِّهْنِ عن أُمُورٍ لا يَعْلَـقُ بِهِ الغَرَضُ، ولكي لا تضِيعَ قُوَّةُ الذِّهْنِ، وتَتَفَرَّقَ[1] هِمَّتُهُ، كما ترى في قولهِ تعالى:

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس: ٢٠-٢١].

(١) ـ فَغَضِبَ قَوْمُهُ وتألَّبُوا عليه فقال ـ:

﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٢].

(٢) ـ فقالوا: أتترُكُ آلِهَةً كُنّا نَعْبُدُ نحن وآباؤُنا، وتَتَّخِذُ إلَهاً واحِداً فقال ـ: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۞ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ٢٣-٢٤].

(٣) ـ ثُمَّ التَفَتَ إلى المُرسَلينَ قائِلاً ـ:

﴿ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ [يس: ٢٥].

---

(١) في الأصل يتفرق.

(٤) ـ فإذا آمَنَ اشْتَدَّ غَضَبُ قَوْمِهِ وألْقوهُ في عَذابٍ.

(٥) فأرْسَلَ اللهُ جُنْدَهُ من السَّماءِ، فَقَلَبَ العَذابَ عليهم ونَجّاهُ منهم، ثُمَّ قِيلَ له:

ـ ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

ـ فحِينَئِذٍ مُلِئَ قَلْبُهُ مِن الشُّكْرِ لله لِنَفْسِهِ، ومِن الحَسْرَةِ لِقَومِهِ.

(٦) فهَتَفَ و:

﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧].

ـ فهذا بابُ الوصْلِ بِالمَحْذُوفِ ـ.

وإِنْ تأمَّلْتَ في ذلك، عَلِمْتَ أنَّ في الحَذْفِ فائِدَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ:

الأُوْلَى: حَذْفُ ما يُسْتَكْرَهُ ذِكْرُهُ، ومن ذلك حَذْفُ أقْوالِ الكُفّارِ وأفْعالِهم، وهو (١) و(٢) و(٤).

والثّانيَةُ: حَذْفُ ما فيه الشَّغَبُ والسُّرعَةُ، فَحَذْفُهُ أبْلَغُ، وأوضَحُ دَلالَةً على ما في أصْلِ الواقِعَةِ من كَيفيةِ القولِ والفعلِ، ومِن السُّرعَةِ (٣) و(٥) و(٦).

أمّا سُرعَةُ (٣) و(٦) فالأمْرُ فيهما ظاهِرٌ،

وأمّا (٥) فأخبرَ اللهُ تعالى عن وُقُوعِهِ بِقولِهِ:

﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٩].

فهذا الأمْرُ الثّاني ـ أعْنِي الدَّلالَةَ على السُّرعَةِ، كما بيَّنْتُها في فَصْلِ التَّرتِيبِ ـ أمْرٌ يَتَعَلَّقُ بِالوصْلِ والحَذْفِ والتَّرتِيبِ، فهذه الأبْوابُ مُشْتَبِكَةٌ، وإِذْ قد بَدأنا دلالَةَ الحَذْفِ، ووصْلَ المَفْصُولَيْنِ ـ على السُّرْعَةِ ـ فنَذْكُرُ لها أمثِلَةً أُخَرَ: قال امْرُؤُ القَيْسِ:

فــكَــرَّ إلــيـــه بِـمِـبْـراتِـهِ ... كما خَـلَّ ظَـهْرَ اللِّسـانِ المُجِرّ[1]

فلو لم يَحْذِفْ وقال: فَكَرَّ إليه بِمبراته فَطَعنهُ، كما خَلَّ لم يَكُنْ صَوَّرَ السُّرْعَةَ.

دَلالَةُ الوصْلِ ـ بِالحَذْفِ، أو تَقْدِيمِ المُتأخِّرِ ـ على السُّرْعَةِ، وصِحَّةِ التَّصْوِيْرِ، وأُمُورٍ أُخَرَ:

(١) رُبَّما جَمع حالاتٍ يُخْبِرُ عن اتِّصالِها، وسُرعَةِ تَوالِيها، كما كَتَبَ قَيصَرُ مُخْبِراً عن فَتْحِهِ: «جِئْتُ. رأيْتُ. فَتَحْتُ». فهكذا قال ابنُ زيّابَةَ الحماسي[2]:

---

(١) «فكرّ»، قال أبو نصر عن الأصمعي: كر الثور على الكلب بمبراته، أي: بقرنه، وأصل المبراة: السكين التي يبرى بها، قال الطوسي: وكل ما بُرِيَ به فهو مبراة. وقال أبو نصر في قوله: «كما خلَّ ظهر اللسان المجرّ»: إنما يشق لسان الفصيل إذا استغنى عن لبن أمه، أن يغزرها ـ أي: خشية أن يغزرها ـ أي: يذهب لبنها. والمجرّ: الذي يجر الفصيل، قال عمرو ابن معد يكرب:

فلـو أنَّ قومـي أنطقتْني رماحهُم ... نـطقـتُ ولكـن الرِّمـاحَ أجـرَّتِ

أي: رماحهم لم تصنع شيئاً، فقطعت لساني عن الكلام، كما يمتنع الفصيل. وقال الطوسي: الإجرار أن تشق لسان الفصيل لكي لا يرضع، تشقه شقاً لا ينفذ، وكذلك الجدي. قال: وقال أبو عمرو الشيباني: المجرّ: الذي يجر من الرضاع. وخلَّ: أي: شدَّه بالأخلَّة، فشبه دخول قرن الثور في جوف الكلب بفعل هذا الرجل الذي يشق اللسان. ديوان امرئ القيس: ص١٦٢.

(٢) ابنُ زَيّابَـةَ (...ـ... = ...ـ...) واختلف في اسمه ولقبه، قيل: هو عمرو بن لاي، من بني تيم اللات ابن ثعلبة. وقيل: اسمه سَلَمة بْنُ ذُهْل، وزَيَّابَـةُ: اسْمُ أُمِّه. قال الجَلالُ: ووقع في حَاشِيَة الطِّيبيّ أن زَيَّابَة اسْمُ أبِي الشَّاعِر وَهُوَ وَهَمٌ وأخطأ محمد بن داود الجراح في ضبطه ابن زيابة بباءين موحدتين خفيفتين، قال: وهي فأرة صماء يشبه بها الجاهل. شاعر جاهلي، من أشراف بكر. انظر: الأعلام: ٥ / ٨٤، وتوضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، لابن ناصر الدين شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد القيسي، تحقيق نعيم عرقسوسي: ٤ / ١٧٥.

يـا لَهْـفَ زَيّابَـةَ لِلحـارِثِ الـ ـصَّـابِـحِ فـالغانِـمِ فـالآئِـبِ[1]

وهذا أَحْسَنُ من كَلامِ قَيْصَرَ، فإِنَّهُ جَمع المَجِيْئَةَ، والفَوْزَ، والرُّجُوعَ، ومِثْل هذا الأُسْلُوبِ ترى في القُرآنِ:

﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [العاديات: ١-٥].

(٢) ومن هذا البابِ ما تَرى من وصلِ إنعامِ الله تعالى بعد الاستِغْفارِ، دَلالَةً على سُرعَةِ رَحْمَةِ الله تعالى، وأنَّ الكَرَمَ لا يَحْتَمِلُ المَطْلَ. والأمثِلَةُ تُوضِّحُ ما أَرَدْتُ:

في سُورَةِ هُودٍ في استِغفارِ نوحٍ:

---

(١) يجوز أن يكون أورد هذا الكلام ساخراً متهانفاً، ومستهزئاً متهكِّماً، فوصفه بهذه الصفات وكان الأمرُ بخلافه، ويقرِّبُ هذا أن ما قبل هذه المقطوعةِ في مثل هذه الطريقة، ويجوز أن يكون ذكر ماكان منه على الحقيقة، فهو يتحسَّر لما رأى من فَلاحِه في غَزاتِهِ، وسلامتِه في مآبِه. ويقول: «ياحسرةَ أمِّي» من أجل هذا الرجل فيما ارتفع له من المراد في الغزْو، وجُمِعَ له من السلامة والوَفْرِ. والصابحُ يجوز أن يكون في معنى مُصْبِـحٍ، كما قال:

حين لاحـت للصابح الجوزاء

والغارة وقتها الغداة، فلذلك قال: للحارث المصبح عندنا، والغانم منا. والترتيب الذي يفيده الفاء جارٍ على سننه، كأنه أراد للحارث الغازي نحونا والغانم منا ـ والغنم بعد الغزو ـ فالآئبِ إلى قومِهِ ـ والأوبة بعد الاستغنام ـ ويجوز أن يكون الصابح من: صبحت القوم، إذا أتيتهم صباحاً، وفي المثل: «صَبَحْناهم فغدوا شامَةً». وهذا الوجه أوجه وأجود، واعلم أن الصفة إذا جاءت للتبين وإزالة اللبس عن الموصوف، فالوجه أن يعمد إلى أخصها بالموصوف، وأحقها بالبيان والشرح، حتى تغني عن العدول عنها إلى غيرها من الصفات، فإن اتفق بعد ذلك لبس حينئذ يزال بما يُضم إليه، وإذا جاءت للتعظيم أو التهجين، فإنه قد يُوالَى بين عِدَّةٍ منها بحروف النَّسقِ ومن دونها، تقول: جاءني زيد الظريف الكاتب الفاضل العالم. وإن أتيت بالواو العاطفة متخللةً له ساغ. انظر: شرح الحماسة: ١/ ١٤٧-١٤٨.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۞ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هود: ٤٧-٤٨].

فانظر كيف ضَمَّ السَّلامَ والبَرَكاتِ بِدُعائِهِ.

وهكذا في سُورَةِ ص:

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ۞ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٢٤-٢٥].

وبعد ذلك عِتابٌ منه تعالى، فانظر كيف أَخَّرَ العِتابَ، وضَمَّ الإِنْعامَ بالاستِغْفارِ.

وأَحْسَنُ ما يَكُونُ ما ترى في أَمْرِ سُلَيمانَ، فإِنَّهُ استَغْفَرَ واستَكان، فَصَبَّ الله عليه شآبِيْبَ الرَّحمَةِ، حَتَّى إِنَّ جُمْهُورَ المُفَسِّرِينَ زَعَمُوا أَنَّ سُلَيْمانَ عليه السَّلام سأَلَ الله تعالى ذلك ـ وما أَبْعَدَ سُؤالَ أَعْظَمِ النِّعَمِ مِن الخاشِعِ المُتَذَلِّلِ ـ ولكِنَّ شِدَّةَ التَّذَلُّلِ، تَجلُبُ أَعْظَمَ النِّعَمِ من رَبٍّ ودُوْدٍ تَوّابٍ.

وكان عليه السَّلام أُوْتِيَ الحِكْمَةَ والفَهْمَ، فَسأَلَ اللهَ تعالى أَنْ لا يُعْطِيَهُ ما يُسْلَبُ منه، لِكونِ غيرِهِ أَحَقَّ بِهِ، فَسأَلَ أَدْونَ شيءٍ يَنْبَغِي له، حَتَّى إِنَّهُ لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ من بَعْدِهِ، فَيَكُونَ أَحَقَّ بِهِ منه (نِظامُ القرآنِ).

(٣) ومِنْ هذا البابِ: ما يُرادُ فيه الاتصالُ والفَصْلُ، لِأَجْلِ التَّصْوِيرِ لِلواقِعَةِ.

ومِثالُهُ ـ في قِصَّةِ نوحٍ ـ فإِنَّ دُعاءَ نوحٍ في ابْنِهِ، ورَدَّهُ مِن الله تعالى، واسْتِغْفار نوحٍ والاسْتِجابَةَ، كُلُّ ذلك جاءَ مُتأَخِّراً بعد تَمامِ الواقِعَةِ، ولا شَكَّ أَنَّ سُؤالَ نوحٍ في ابْنِهِ كان قَبْلَ غَرَقِهِ، وقَبْلَ اسْتِواءِ الفُلْكِ على الجُودِيِّ.

فلو وضَعَ هذهِ الأُمُورَ في مَحلِّها الزَّمانِيِّ، لتَباعَدَتْ أجْزاءُ التَّصوِيرِ، ولم يَتَّضِحْ، حتَّى إنَّكَ لَوْ شِئْتَ مَثَّلْتَهُ على القِرْطاسِ، وهذهِ القِصَّةُ مَذْكُورَةٌ في التَّوْراةِ من أوَّلِها إلى آخِرِها.

ومُحالٌ أنْ يُصَوِّرَها مُصَوِّرٌ، أو يُجَلِّيَها مُحاكٍ بِالقولِ والنُّصُبِ[1].

ثُمَّ انظُرْ كيف أدْمَجَ القِصَّةَ في خَمْسِ آياتٍ، وجَعَلَ الخَمْسَ الباقِيَةَ لِدُعاءِ نوحٍ والبَـرَكَةِ.

فَجَمَعَ القِصَّةَ في آياتٍ عَشْرٍ، وجَعَلَها صُورَتَيْنِ كامِلَـتَيْنِ، إحْداهُما بَجَنْبِ الثّانِيَةِ.

فهذا هو الوجْهُ الصَّحِيحُ للتَّقْدِيمِ والتَّأخِيرِ.

ثُمَّ من أحْسَنِ البَيانِ فيه أنَّ هَلاكَ ابْنِهِ، صُوِّرَ بَغْتَةً، وفي أسْرَعِ حالَةٍ. ومع ذلك هو أبْيَنُ تَصْوِيراً، ولا أدْرِي كيف أُلْقِي في قَلْبِكَ، ما أجِدُ في قولِهِ تعالى:

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

فيَتَمَثَّلُ بين يَدَيْكَ الطُّوفانُ والسَّفينَةُ:

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ [هود: ٤٢].

ثُمَّ، وليَرِنَّ في أُذُنَيْكَ كَلامُ الوالِدِ، الَّذي يَحِنُّ إليه ويُلاطِفُهُ بِقولِهِ:

﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

ثُمَّ بِقولِهِ:

﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٢].

---

(١) قال الفَرّاءُ: كأنَّ النُّصُبَ الآلهةُ الّتي كانت تُعْبَدُ من أحجارٍ. تاج العروس للزبيدي: مادة (نصب).

ثُمَّ يَيْأَسُ، فَيَقَعُ ما يَقَعُ.

ـ ولو رأيْتَنِي حين أكْتُبُ هذه الكَلِماتِ، لوجَدْتَنِي باكِياً، أرُدُّ حَشْرَجَةَ الصَّدْرِ.

ـ وكَمِثْلِ هذه السُّرْعَةِ، ترى في قِصَّةِ إبْراهِيم عليه السَّلام

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٤].

ـ ولقد بَكَيْتُ عليها كما أبْكِي اليَوْمَ على هذهِ ـ.

وهاتانِ القِصَّتانِ نَوْعانِ مُخْتَلِفانِ من تَراجِيْدِي[١]، الَّتِي لا تَراها في العَرَبِ والفُرْسِ. وبَلَغَتْ فيها اليُونانُ والهِنْدُ الغايَةَ القُصْوى، فإنْ كُنْتَ تَعْلَمُ منها شَيْئاً، فَهِمْتَ ما أرَدْتُ بِالمِثالِ والنُّصُبِ.

وكذلك ترى في جَمِيعِ القِصَصِ، إلَّا أنَّها ـ بَعضَها ـ لِطُولِها، تَجْمَعُ تَصاوِيْرَ، وهو مِثْلُ «أبيق»[٢] الَّتِي تَراها في كَلامِ «فِرْدَوسِي، وهُومِرُوسْ، وكُتُبِ الأنْبِياءِ».

وهكذا ترى إدْماجَ القِصَّةِ في مُحاجَّةِ إبراهِيمَ عليه السَّلام، في إبْطالِ عِبادَةِ الشَّمسِ والنُّجُومِ.

حَتَّى إنَّ هذا الأمْرَ يُراعَى في الأمْثالِ الَّتِي ليستْ بِقِصَّةٍ ـ بَلَى إنَّها قِصَّةٌ لِلخَيالِ ـ كما ترى في آيَةِ النُّورِ ـ، فإنَّ الأُمُورَ الَّتِي كادَتْ تُبْعِدُ عن تَصَوّرِ النُّورِ، فَصَلَها وأخَّرَها، وخَتَمَ التَّصوِيرَ بِقولِهِ:

---

(١) التراجيديا: هي المأساة، والكارثة، والحادث المفجع. وهو عمل درامي شعري أو نثري، يتتبع مصير شخص نبيل، يندفع إلى خرق قانون إلهي، أو قاعدة أخلاقية، بسببه الكبرياء أو الغيرة أو الطموح المفرط، ينتهي به إلى الدمار بحادثة مفجعة، بل ينتهي أكثر أبطالها إلى الموت. فهي أفجع من الحزن، ولا يعبر عنها البكاء؛ لأن المشاهد المرعبة، والأحداث الأليمة تذهل المشاهد. انظر: المعجم المفصل في الأدب للتونجي: ١ / ٢٣٩.

(٢) لم أقف على معناها.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

ثُمَّ ذَكَرَ تَتِمَّةَ البَيانِ، الَّتِي تَهْدِي إلى حالاتِ القُلُوبِ.

وأمّا حَقِيقَةُ هذا المِثالِ، وغايَةُ الكمالِ في وصلِ الأمْرينِ، فَنُفَصِّلُهُ في بَحْثِ التَّخْلِيصِ ـ إنْ شاءَ اللهُ تعالى ـ.

فإنْ تأمَّلْتَ فيما مَرَّ بك، تَبيَّنَ لك أنَّ تَقْدِيمَ المُتأخِّرِ، بابٌ لِصِحَّةِ التَّصويرِ، فإنَّ الوقائعَ غيرُ مُتأخِّرَةٍ كتأخُّرِ أجزاءِ الكلامِ، ولا صُورُها مَفْصُولَةٌ كَفَصْلِ الألفاظِ، فلا بُدَّ من تَغَيُّرٍ في التَّرتِيبِ.

دَلالَةُ الفَصْلِ:

إنْ سَرَدْتَ الكَلامَ سَرْداً، ذَهَبْتَ غافِلاً عن بَعْضِ المعانِي، بل رُبَّما بَدَّلْتَ المعنى.

مثلاً: إنْ لم تَقِفْ على كَلِمَةِ «المُرسَلِينَ» في قولِهِ تعالى:

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠-٢١].

غفلت عن قُوَّةِ الدَّلِيلِ، وأكَّدْتَ على الأمْرِ، كأنَّك قُلْتَ: اتبِعُوا، اتبِعُوا، فهذا مع الغَفْلَةِ يَـرُدُّ المعنى من الأمْرَيْنِ إلى أمْرٍ واحِدٍ.

فَصْلٌ ووصْلٌ بِالخَيالِ:

ثُمَّ الفَصْلُ يَجْعَلُ الخَيالَ جِسْراً بين مَعْنَـيَيْنِ، فإنْ وصَلْتَهُما لم يَكُنْ لِلخَيالِ سَبِيْلٌ بينهُما، فكُلُّ فَصْلٍ زِيادَةٌ في المعنى ـ كأنَّ الكَلامَ وِشاحٌ، مُفَصَّلٌ بِشَذَرٍ مِن اليَواقِيْتِ بين اللَّآلِئِ ـ

فهذه زِيادَةُ الخَيالِ أحْسَنُ طُرُقِ الإيْجازِ.

وزِيادَةٌ على الإيْجازِ: أمْرٌ آخَرُ، وهو أنَّكَ لَوْ أظْهَرْتَ ما أخْفَيْتَ مِن الخَيالِ، وجَعْلَتَ بين الجُزْأيْنِ اتِّصالاً ذَهَبْتَ بِلِيْنَةِ الجُزْءِ الثّانِي، فلم يُمْكِنْ وصْلُهُ بِالثَّالِثِ، إلّا أنْ يَكُونَ بِخَطٍّ مُستَقِيمٍ مع الأوَّلَيْنِ.

ومِثالُ الوِشاحِ يُبَيِّنُ لك هذا الأمْرَ، كما أظْهَرَ الأمْرَ الأوَّلَ.

فإنْ شِئْتَ أنْ لا يَكُونَ فَصْلٌ، زِدْتَ بين كُلِّ فَصْلٍ أمْرَيْنِ، بل رُبَّما أُمُوراً:

الأمْرُ الأوَّلُ: لِبَيانِ اتصالِ الجُزْأيْنِ.

والأمْرُ الثّانِي: لِبَيانِ اتصالِ الثّالِثِ.

وجُمْلَةُ القولِ: إنَّ الكَلامَ إذا لم يَكُنْ على خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ، لابُدَّ له من واصِلاتٍ.

والفَصْلُ رُبَّما هو أحْسَنُ الواصِلاتِ ويَتَّضِحُ لك الأمْرُ بِالمِثالِ:

في سُورَةِ هُودٍ ـ في ذِكْرِ جِدالِ قَوْمِ عادٍ بِنَبِيِّهِ هُود ـ:

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

فهذه ثَلاثُ كَلِماتٍ، جِئْنَ بعد إعْلانِ اليأسِ والحَرْبِ من هُودٍ، فقوله:

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾

يَنطَوِي على أنّي لا أُبالِي بِمَكايِدِكُم، فإنَّ اللهَ الَّذي هو رَبِّي ورَبُّكُم مَوْلايَ، فإذا تَوكَّلْتُ عليه فما خَوْفي من أحَدٍ. فاتصالُ الجُزْءِ الأوَّلِ بِالثّانِي ظاهِرٌ، ثُمَّ قولُهُ تعالى:

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ مع اتصالِهِ بِالأوَّلِ، يَنْطَوِي على أنَّهُ ما من

دابَّةٍ إِلَّا سَبيلُها إلى الله تعالى، فترجعُونَ إليهِ، وعلى أَنَّهُ مَنْ يُعاجِزُهُ، قاسَى جَذَباتِ العُنْفِ والهُونِ، ومَنْ سَلكَ إلى رَبِّهِ هانَ عليهِ السُّلُوكُ، ويَسَّرَ لهُ السَّبيْلَ، فَقَرُبَ إلى الجُزْءِ الثَّالِثِ؛ لأنَّ مَنْ بِيَدِهِ نَواصِي العِبادِ قائِمٌ على الصِّراطِ المُستَقِيم، فمَنْ أَخذَ هذا الصِّراطَ وجَدَهُ سَهْلاً وفازَ.

فَظَهَرَ أنَّ الجُمْلَةَ الوُسْطَى ذاتُ جِهَتَيْنِ، والفَصْلُ يُعْطِي الخَيالَ مَجالاً للتَّأمُّلِ، في أطْرافِ القولِ وتَوْسِيْعِهِ، حَتَّى يُبْصِرَ بِجِهَتَيْ الرَّبْطِ.

هذا الَّذي سَمَّيْتُهُ جِسْراً بين الأمْرَيْنِ مَظِنَّـةُ الاختِلافِ الكَثِيرِ، فإِنَّ فَهْمَ الأمْرِ المُقَدَّرِ، يَصْعُبُ على مَنْ لا يَعْتَصِمُ بِنِظامِ القرآنِ، فإنْ غَفَلَ عن النِّظامِ، يُفْتَحُ عليه بابُ الاحْتِمالاتِ، ولذلك تَراهُم يَذْكُرُونَ وُجُوهاً كَثِيرَةً، لا يَرْجُحُ بَعْضُها بَعْضاً.

وزِيادَةً على هَذَيْنِ الأمْرَيْنِ، فيه أمْرٌ آخَرُ يَلِيقُ بِبابِ الحَذْفِ.

(٢) حَظُّ السّامِعِ:

اعلمْ أنَّ الكَلامَ تَنازُعُ الحَدِيثِ ـ وإنْ سَكَتَ السّامِعُ، ويُـرَى مُنْصِتاً ـ فإِنَّهُما يَجْرِيانِ معاً قائِداً ومَقُوداً، فإذا وقَفَ السّامِعُ، والمُتَـكَلِّمُ جارٍ على رِسْلِهِ، ذَهَبَ كَلامُهُ ضائِعاً، كأنَّهُ لم يَتَـكَلم، فإذا عَلِمْتَ ذلك، تَـبَيَّنَ لك شِدَّةُ الحاجَةِ إلى رِعايَةِ جانِبِ السّامِعِ، وهُدِيْتَ إلى حِكْمَةِ أساليبَ لم تَـكُنْ لِلكَلامِ، لولا هذا الأصْلُ الرّاسِخُ.

والآنَ نَذْكُرُ منها عُيُونَها:

فمنها:

ـ الاستِفْهامُ: لِيَنتَبِهَ السّامِعُ.

ومنها:

ـ السُّكُوتُ: لِيَستَرِيحَ.

ومنها:

ـ بَعْضُ الحَذْفِ: لِيَصِيرَ السّامِعُ مُتَكَلِّماً في نَفْسِهِ، فيُعْمِلَ عَقْلَهُ.

ومنها:

ـ مُنَبِّهاتُ الرَّغْبَةِ والنُّفْرَةِ.

ومنها:

ـ الالتِفاتُ: لِيَنْتَبِهَ بِما أحَسَّ من تَجدِيدٍ.

ومنها:

ـ التَّمثِيلُ: لِيُشاهِدَ مَحْسُوساً، فيَتَنَبِهَ من رَقْدَتِهِ.

ومنها:

ـ كُلُّ تَبَدُّلٍ مِن الحَرَكاتِ، والالتِفاتِ، ومُهيجاتِ الضَّحِكِ، والحُزْنِ.

فهذه الأُمُورُ مع فوائِدِها الأُخَرِ، أسْبابٌ لانْتِباهِ السّامِعِ و..

(٣) دَلالَةُ الحَذْفِ:

قد نَعْلَمُ أنَّ في الكَلامِ حَذْفاً جارِياً في مِثْلِ:

صَبْراً.

والأسَدَ الأسَدَ.

وفي جَوابِ السُّؤالِ. و...، ولكِنّا وجَدْنا ـ غيرَ هذهِ كُلِّها ـ حَذْفاً يُخْبِرُ عن شِدَّةِ الأمْرِ ـ كما تَجِدُ الواثِبَ يَسْكُنُ قَبلَ الوُثُوبِ ـ والرِّيحَ تَهْدأُ قَبلَ الزَّوبَعَةِ ـ.

فالحَذْفُ يُنْبِئُ عن كَلامٍ، سَكَتَ عنهُ المُتَكَلِّمُ، لِرِفْعَتِهِ، أو شِدَّتِهِ، أو سَعَتِهِ.

مِثالُهُ في سُورَةِ القَدْرِ: ﴿سَلَٰمٌ﴾.

وفي سُورَةِ الأحْقافِ: ﴿بَلَٰغٌ﴾ .

فلو ضَمَمْتَ معهُما ما يَجْعَلهُما تَماماً، صَيَّرْتَهُما أوهَنَ.

وفي سُورَةِ الأحْقافِ:

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

فلو قال: «هذه رِيحٌ». ذَهَبَ مِن الكلامِ شِدَّتُهُ.

وقال النَّابِغَةُ الذُّبْيانِيُّ يَرْثي حِصْناً[١]:

يَقُولُونَ حِصْـنٌ ثُمَّ تأْبَى نُفُوسُـهُمْ وكَيْـفَ بِحِصْنٍ والجِبالُ جُنُوحُ[٢]

ولم تَلْفِظِ الأرْضُ القُبورَ ولم تَزَلْ نُجُـومُ السَّماءِ والأدِيـمُ صَحِيْـحُ

الأدِيْمُ أرادَ بِهِ الأرْضَ.

ـ ومن الحَذْفِ ـ الَّذي يَتَّصِلُ بِالنَّحوِ، ولم يَهْتَدْ إليه النَّحْويُّونَ:

---

(١) حصن بن حذيفة بن بدر الفزاريّ، قال مُعاوية للكَلْبي حين سأله عن أخْبار العَرب، قال: أخبِرْني عن أعزّ العَرب؛ فقال: رجلٌ رأيته بباب قُبته فَقَسَّم الفيء بين الحَليفين أسد وغَطفان معاً؛ قال: ومَن هو؟ قال: حِصْن بن حُذَيفة بن بَدْر. قالوا: وأوصى حصن بن حذيفة بن بدر الفزاريّ بنيه، وكان سبب موته أن كرز بن عامر العقيليّ طعنه، وكان له بنون عشرة، فأوصاهم عند موته، واشتد به مرضه، أن يقتلوا كرز بن عامر الذي قتله. فقام عُيينة بالرياسة، وقتل كرزاً، وأدرك النبي ﷺ، وكان من المؤلَّفة قلوبهم. فقال النبي ﷺ فيما يذكرون: «هذا الأحمق في دينه، المطاع في قومه». انظر: المعمرون والوصايا، للسجستاني: ١ / ٤١، والعقد الفريد ١ / ٣٨٤.

(٢) أي يقولون: مات حصن، وكيف يموت مثل حصن والجبال على حالها لم تتصدع! يقال: جنح الظلام إذا بدا. انظر: ديوان النابغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ١٩٠.

فَمِنهُ:

ـ الحَذْفُ مِن المَعْطُوفِ بَعْضَ ما في المَعْطُوفِ عليه، وبِالعَكسِ. ومَبْناهُ ظاهِرٌ:

فإنَّكَ تَحْذِفُ مِن المَعْطُوفِ «فِعْلَهُ» مِثْلُ: ذَهَبَ زَيْدٌ وعَمْرٌو.

أو «اسْمَهُ» مِثْلُ: صَلَّى زَيْدٌ وصامَ.

فَمِنْ هذا الأَصْلِ يَتَفَرَّعُ ما نورِدُ أَمْثِلَتَهُ:

فمنها قولُه تعالى:

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

والمُرادُ: يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ (من خِيفَتِهِ).

وتُسَبِّحُ المَلائِكَةُ (بِحَمْدِهِ) من خِيفَتِهِ.

وكذلك:

﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨].

والمُرادُ: يا نوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنّا (عليك) وبَـرَكاتٍ (مِنّا) عليك[1].

---

(١) تَذْكِرَةٌ: مَواقِعُ الْحَذْفِ:

يُحْذَفُ الْفِعْلُ الَّذي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ. كَما قالَتْ الْخرنق:

وبَـعْـدَ بني ضُبَـيْعة حَوْلَ بِشْـرٍ … كمـا مَـالَ الجذوعُ مـن الحريقِ

ديوان الخرنق: ص٤٠. شبهت الخرنق من صرع من أهل بشر حوله بالجذوع التي قد مالت بالاحتراق.

ويحذف كما هذه أيضاً:

قالت الخرنق أيضاً:

لاقَـوا غَـداةَ قُـلابَ حَـتْـفَـهُـمُ … سَـوْقَ العَـتِـيـرِ يُـساقُ لِلعَـتَر

=

(٤) من حُسْنِ التَّرتِيبِ:

إِدْراجُ الدَّلِيلِ:

كَمْ رأيْنا في القرآنِ مِن إِدْراجِ الدَّلِيْلِ ـ في طَيِّ الكلام غيرَ مُصَرَّحٍ بِهِ ـ لأنَّ المُخاطَبَ إذا أحَسَّ بِأنَّكَ تُرِيدُ إِثْباتَ شيءٍ أخَذَتْهُ النُّفْرَةُ، ولَكِنَّهُ إذا جاءَ مَطْوِيّاً أثَّرَ في قَلْبِهِ.

مِثالُهُ قولُهُ تعالى:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ * ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠-٢١].

فنَبَّهَ على أنَّهم يَدْعُونَكُمْ، من غيرِ غَرَضٍ لَهُمْ. وعَدَمُ الغَرَضِ لا يَكْفي للاتِّباعِ، لِمَنْ ضَلَّ نَفْسُهُ ـ ولكنَّهم مُهْتَدُونَ ـ.

فهذا بَيانُ الدَّلِيْلِ، ليس بِطَرِيقِ الاحتِجاجِ، بل على سَبيلِ الاستِمالَةِ.

ألا ترى كيف خاطَبَهُم بِكَلامِ المَودَّةِ؟ فقال: «يا قَوْمِ».

وأيضاً:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ * لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ: ٣-٥].

= انظر: هامش ديوان الخرنق ص٤٧.

أي: سيقوا للحتف، كما يساق العتير للعتر.

فانظرْ كيف وضَعَ القَوْلَ مَوْضِعَ القَسَمِ.

وعندَ العَرَبِ أمْرُ القَسَمِ عَظِيمٌ، ثُمَّ ذَكَرَ من صِفَةِ الله. ما لا يُنْكِرُهُ أحَدٌ. ولاسيَّما العَرَبُ.

ثُمَّ أتَى بِأوجَزِ لَفْظٍ، وكانوا مُؤْمِنِيْنَ لهُ، ولكنْ فَسَّرَهُ بِطَرِيْقٍ قَـرَّبَ أمْرَ الجَزاءِ، فإنَّ وضَعَ كُلِّ صَغِيرٍ وكَبِيرٍ في كِتابٍ، من غيرِ جَزاءٍ يَكُونُ عَبَثاً، ثُمَّ فَصَّلَ أمْرَ الجَزاءِ، ولم يَذْكُرْ النَّتِيجَةَ، فإنَّ الجَزاءَ لا يَكُونُ إلَّا بِإتْيانِ السّاعَةِ، فتَرَكَهُمْ وعَقْلَهُم.

وصَـوَّرَ في بَيانِ الجَزاءِ، حالَـةَ المُؤْمِنِينَ والمُنْكِرِينَ، فَخَتَمَ الكَلامَ على الاستِمالَةِ والتَّخْوِيفِ، وبَدأ بالقَسَمِ ـ وهُما مِن الأُمُورِ النَّفْسانِيَّةِ المُؤَثِّرَةِ ـ وأدْرَجَ بينهُما الدَّلِيلَ، ووصَلَهُ، ثُمَّ عَبَّـرَ عنهُ بِألطَفِ أُسْلُوبٍ، حَتَّى لا تَرى الكَلامَ إلَّا أمْراً واحِداً.

تَذْكِرَةُ التَّرتِيبِ في النَّسَقِ:

إذا ذُكِرَتْ أُمُورٌ، فالتَّرتِيبُ له وُجُوهٌ:

١ ـ فمنها صاعِدٌ.

٢ ـ ومنها هابِطٌ.

٣ ـ ومنها جَمْعُهُما لِتَكُونَ كالحَلَقَةِ.

٤ ـ ومنها التَّقابُلُ.

٥ ـ ومنها جَمْعُ المُتَقابِلَيْنِ ونَشْرُهُما.

٦ ـ ومنها رِعايَةُ التَّناسُبِ.

والتَّناسُبُ أنواعٌ، ونُـبَيِّنُ لك هذه الأنْواعَ بِالأمْثِلَةِ:

فتأمَّلْ في قولِهِ تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

فالرَّفْعُ والنَّصْبُ والسَّطْحُ هابِطٌ، ولكِنَّهُ من النَّوْعِ الثَّالِثِ، فَبَدأ بِشيءٍ على الأرْضِ من أقْرَبِ الأشْياءِ مِنْهُم، فَحَسُنَ بِهِ الابْتِداءُ، فإذا رَفعُوا النَّظَرَ إليه ساقَهُ إلى العُلُوِّ، فإذا بَلَغَ النِّهايَةَ رَدَّهُ إلى الهُبُوطِ تَدْرِيْجاً، فصار السَّيْرُ كالحَلَقَةِ، ففي هذه الآيَةِ أمْثِلَةٌ لِأنْواعِ التَّرتِيبِ.

(٥) المُقابَلَةُ:

قد سَبَقَ إجْمالُ القولِ في المُقابَلَةِ.

والآنَ نُفَصِّلُ بَعضَ ما فيها مِن العَونِ على البَيانِ، ولا نلتفت إليها مِن جِهَةِ البَدِيعِ المَحضِ، بل نَعُدُّ أسبابَ الدَّلالَةِ فيها. ولا نَلتَفِتُ.

فمنها:

١ ـ الوُضُوحُ: فإنَّ الشَّيءَ كما عَلِمْتَ، بِضِدِّهِ يَتَبَيَّنُ.

٢ ـ والسَّعَةُ: فإنَّ في جَمْعِ الضِّدَّيْنِ حِيازَةً وإحاطَةً، كقولِهِم: العَرَبُ والعَجَمُ، والدَّارِعُ والحاسِرُ، والسِّرُّ والعَلانِيَةُ، والرِّضا والغَضَبُ، والغِنَى والفَقْرُ.

٣ ـ والاعْتِدالُ التَّامُّ ـ بِنَفيِ الطَّرَفَيْنِ ـ كما تَقُولُ: لا حارٌّ ولا بارِدٌ، ولا شَرقِيَّةٌ ولا غَربِيَّةٌ.

٤ ـ الدَّلالَةُ على ماخَفِي في المُتَقابِلَيْنِ ـ على سَبِيْلِ التَّعاكُسِ ـ كما مَرَّ في بابِ الحَذْفِ.

الاسْتِثْناءُ:

من المُقابَلَةِ الاسْتِثْناءُ، فإنَّ بِالاسْتِثْناءِ تُوضِّحُ، وتُحِيطُ، وتَدُلُّ على الاعْتِدالِ، وعلى ما خَفِي مِن جانِبَي الإِيجابِ والسَّلبِ، ونُرِيكَ هذه الأُمُورَ بِالأمْثِلَةِ:

قال النّابِغَةُ:

ولا عَيْبَ فيهِم غَيْرَ أنَّ سُيوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِراعِ الكَتائِبِ[١]

والاسْتِثْناءُ أوضَحُ دَلالَةً على الإِحاطَةِ والمُبالَغَةِ.

ومن جِنْسِ هذا الشِّعْرِ المَشْهُورِ ماقال حاتِمُ الطّائِي:

وما تَشْتَكِينِي جارَتِي غيرَ أنني إذا غابَ عَنْها زَوْجُها لا أزُورُها[٢]

---

(١) وقوله: «لاعيب فيهم غير أن سيوفهم»، هو كقولك: لا عيب في فلان إلا كرمه وكثرةُ جوده، أي: لاعيب فيه أصلاً. وقوله: «بهن فلول»، أي: تكسُّرٌ وتَثَلُّمٌ من جهة التجاليد بها، وواحد الفلول فَلٌّ. والقراع: مصدر قارعته إذا جالدته. والكتائب: الجيوش. وفي البيت تأكيد للمدح بما يشبه الذم. انظر: ديوان النابغة، ص٤٤، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار المعارف.

(٢) يريد الشاعر أن يقول: إن جارته لا تشتكي من عدم اهتمامه بها، إلا أنه في غياب زوجها ـ لعفته ـ لايزورها أبداً. ويقال بأنه خرج رجل من طيئ، وكان مصافياً لحاتم، فأوصى حاتماً بأهله، فكان يتعهدهم، وإذا جزر جزرة بعث إليهم من أطايبها، فراودته امرأة الرجل، فاستعصم ولم يفعل، فلما قدم زوجها أخبرته أن حاتماً أرادها، فغضب من ذلك، وجاءت العشيرة للتسليم وحاتم معهم، فلم يلق حاتماً بما كان يلقاه به من طلاقة الوجه وحسنِ البِشْرِ، فعلم حاتم أن ذلك من قبل امرأته، فأنشأ يقول: من الطويل:

إني امرؤٌ من عُصبة ثُعَلِيَّةٍ كرامٍ أغانيها عفيفٍ فقيرها

إلخ الأبيات، فلما بلغ الرجل الشعر عرف أن حاتماً بريء، فطلق امرأته.

انظر: ديوان حاتم الطائي، تحقيق الدكتور عادل سليمان ص٢٣٢، والتذكرة الحمدونية: ٢/ ١٩٠، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، طبع دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦.

(٦) بابٌ في انْتِهازِ الفُرْصَةِ:

اعلمْ أنَّ لِلَّفظِ ـ مِثْلَ سائِرِ التَّدابِيرِ ـ مَحَلًّا ومَوْقِعاً، إنْ فاتَهُ ذَهَبَ مُضَيَّعاً، ولو أُتْقِنَ كُلَّ الإِتْقانِ، وهذا بابٌ وسِيْعٌ، ولكِنِّي هاهُنا أُرِيْدُ مَوْقِعَ اللَّفْظِ في الكلامِ، فإِنَّكَ تَجِدُ بين أجْزاءِ حَدِيثٍ جارٍ ـ أُلْقِيَ كَلامٌ، بل لَفْظَةٌ لا يكادُ يُلْقِيْهِ كُلُّ مُتَكَلِّمٍ ـ.

وهذا الجُزْءُ المُدْرَجُ، هو الَّذي يُسَمُّونَهُ: «جُمْلَةً مُعْتَرِضَةً».

ولكِنَّكَ سَتَعْلَمُ أنَّهُ رُبَّما لا يَزِيْدُ على كَلِمَةٍ واحِدَةٍ. فشأْنُ هذه المُعْتَرِضَةِ ليس بِهَيِّنٍ، فإِنَّ لها مَواقِعَ خَفِيةً، لا يَفْطَنُ لها إلَّا الذَّكِيُّ المُتَوَقِّدُ، فمَتَى ما وجَدَ لها فُرْصَةً انْتَهَزَ لها، حَتَّى إنَّهُ إنْ فاتَتْهُ الفُرْصَةُ، ثُمَّ تَذَكَّرَها نَدِمَ على فَواتِها.

ولكي يَتَبَيَّنَ ما قُلْتُ لك، أُوْرِدُ هاهُنا أمْثِلَةً:

قال نابِغَةُ بَنِي ذُبْيانَ:

١ ـ نُبِّئْتُ نُعْماً على الهِجْرانِ عاتِبَةً سَقْياً ورَعْياً لِذاكَ العاتِبِ الزَّارِي[١]

فلو تَرَكَ المِصْراعَ الثَّانِي، ومَرَّ في الكلامِ يَصِفُها أو يَشْكِيْها، لم يَرْتَفِعْ مِن الدَّرَجَةِ الوُسْطَى.

ثُمَّ أضافَ كَلِمَةَ «الزَّارِي» فأكَّدَ بها المُقابَلَةَ بين الدُّعاءِ والعِتابِ، فهي مِثالٌ لِما قُلْتُ لك:

إنَّ المُعْتَرِضَةَ رُبَّما تَكُونُ كَلِمَةً واحِدَةً. وخُذْ مِثالاً آخَرَ من كَلامِهِ:

٢ ـ إنَّ الحُمُولَ التي رَاحَتْ مُهَجِّرَةً يَتْبَعْنَ كُلَّ سَفِيهِ الرَّأْيِ مِغْيارِ[٢]

---

(١) الزاري: الغاضب، انظر: ديوان النابغة، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٢٠٢.

(٢) الحمول: الهوادج، وأراد بها النساء. راحت مهجرة: أي: سارت وقت الهجير، شدة الحر. المغيار: الغيور. انظر: ديوان النابغة ص٥٠، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

لم تَـكُنْ له حاجَةٌ بادِيَةٌ إلى أنْ يَزِيْدَ على المِغْيارِ كَلِمَةَ: «سَفيهِ الرّأيِ»، وإنِّي أتَعجَّبُ من «نابِغَة» ـ هذه الكَلِمَةَ الواحِدَةَ ـ مِثْلَما أتَعجَّبُ منه ـ إيْرادَ هذا حَدِيْثَ المِغْيارِ ـ.

فإنِّي رأيْتُ الشُّعراءَ، لَهِجُوا بِذِكْرِ البأسِ والمَنَعَةِ، دُوْنَ مَعْشُوقِهِم، أو عَداوةِ الحُماةِ وحَنَقِهِم.

ولكِنَّ النّابغَةَ تَـرَكَ تلك الأُمُورَ المُبْتَذَلَةَ، وأخَذَ ما هو مِلاكُ الأمْرِ، ثُمَّ زادَ عليهِ سَفاهَةَ الرّأيِ؛ لِتأْكِيدِ سُوءِ الظَّنِّ، ثُمَّ لم يَقُلْ: إنَّ ذا رَحِمٌ لها مِغْيارٌ وسَفيهُ الرّأيِ، فتَظُنُّ أنَّ ذلك أمْرٌ وقَعَ مِن الاتِّفاقِ، بل جَعَلَ هذا المِغْيارَ أمِيْرَ الرِّفْقَةِ، فوصْفُـهُ بِسَفاهَةِ الرّأيِ ليس إلا مَجازاً لِما هو لا يَرْضَى من غَيْرَتِه، وشِدَّةُ الغَيْـرَةِ تُفْصِحُ عن الحُسْنِ، فالبَيْتُ حَقِيقَةٌ في شِكايَةِ الحَرَسِ، وكِنايَةٌ عن الحُسْنِ.

وكانت العَرَبُ مُنتَبِهِينَ لِهذا الإدْراجِ، فلَهِجَتْ بِهِ فُصَحاؤُهُم، وطَرِبَتْ له أذْهانُهُم، وكان النّابِغَةُ هذا أسْبَقَهُم في هذهِ الصَّنْعَةِ، حَتَّى إنَّكَ تَرى مَنْ قَدَّمَهُ على سائِرِ الشُّعَراءِ، قَدَّمَهُ بِأبياتٍ ليس في أكْثَرِها إلّا تلك الصَّنْعَةُ، فمنها قولُهُ:

٣ ـ حَلَفْتُ فلم أتْرُكْ لِنَفْسِـكَ رِيْبَةً ‏ ‏ ‏ ‏ وليس وراءَ الله لِلْمَـرْءِ مَـذْهَبُ[١]

فالمِصْراعُ الثّانِي ليس مِمّا يُذْكَرُ بعد الحلف، فإنّا رأيْناهُم حَلَفُوا كَثِيراً، ولم يَذْكُرْ أحَدٌ مِنْهُم هذا الأمْرَ.

قال امْرُؤُ القَيْسِ:

---

(١) الريبة: الشكُّ، يقال: رِيبَةٌ، أيْ: شكٌّ، ومنه قولهم: «دع مايريبك إلى ما لايريبك». وقوله: «وراءالله»، أي ليس بعد اليمين بالله عزَّ وجل للمرء مذهب. والمذهب: المهرب، فينبغي لك أن تُصدِّقه وتقبل اعتذاري. انظر: ديوان النابغة، ص٧٢، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

فَقُلْتُ يَمِينَ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِداً   وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وأوصالِي[(١)]

ألا تَرى أنّهُ أكّدَ نَفْسَ القولِ، ولم يُؤَكِّدْ اليَمِيْنَ، فَسَبَقَ نابِغَةُ بِزِيادَةِ جُمْلَةٍ، وجَدَ لها مَوْضِعاً، لم يَهْتَدِ إليه غيرُهُ، وفي هذه القَصِيدَةِ ـ بعد بَيتٍ واحِدٍ ـ قولُهُ المُستَجادُ المَشْهُورُ ـ كان حَمّادُ الرّاوِيَةُ[(٢)] يُقَدِّمُهُ لِهذا البَيْتِ:

٤ ـ ولَسْتَ بِمُسْتَبِقٍ أخاً لا تَلُمّهُ   على شَعَثٍ أيُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ[(٣)]

---

(١) قوله: «يمين الله أبرح»، أي لا أبرح. والأوصال: جمع وُصل؛ وهو كل عضو ينفصل عن الآخر. انظر: ديوان امرئ القيس ص٣٢.

(٢) حمَّاد الرَّاوية بن سابور بن المبارك، أبو القاسم: (٩٥-١٥٥هـ = ٧١٤-٧٧٢م) أول من لقب بالرَّاوية. وكان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها. أصله من الديلم، ومولده في الكوفة. جال في البادية ورحل إلى الشام. وتقدم عند بني أمية، فكانوا يستزيرونه ويسألونه عن أيام العرب وعلومها، ويجزلون صلته. وهو الذي جمع السبع الطوال (المعلقات) قال له الوليد بن يزيد الأموي: بم استحققت لقب الرَّاوية؟ قال: بأني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به، ثم لا ينشدني أحد شعراً قديماً أو محدثاً إلَّا ميزت القديم من المحدث. قال: فكم مقدار ماتحفظ من الشعر؟ قال: كثير، ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات، من شعر الجاهلية دون الإسلام. قال: سأمتحنك في هذا. ثم أمره بالإنشاد، فأنشد وضجر الوليد، فوكل به من يثق بصدقه، فأنشده ألفين وتسع مئة قصيدة للجاهلية. وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمئة ألف درهم. ولما زال أمر بني أمية أهمله العباسيون، فكان مطرحاً مجفواً في أيامهم. أخباره كثيرة. وقيل: كان في أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص، ثم طلب الأدب وترك ماكان عليه. وفيه يقول الطهوي:

نعم الفتى لو كان يعرف ربه   أو حين وقت صلاته، حماد

وتوفي في بغداد. انظر: الأعلام: ٢ / ٢٧١.

(٣) قوله: «لا تلمُّه»، أي: لا تصلح من أمره وتجمعه. و«الشعث»: الفساد والتفرق. و«المهذب» المنقَّى من العيوب المخلص، يقول للنعمان: إن لم تصبر للأخ والصديق على فسادٍ يكون =

ولَعَلَّكَ تَعْلَمُ أنَّ «المُهَذَّب» هو الكامِلُ التَّهْذِيْبِ، ولو قال: «مُهَذَّبٌ» لكان خَطأً.

ولكِنَّ بَراعَةَ هذا الشِّعْرِ، في هذا الخَيالِ. لا في نَفْسِ حَرْفِ المَعْرِفَةِ ـ كما ظَنَّ الجُرجانِيُّ ـ.

وهو يَقُولُ يَصِفُ امْرأةً:

٥ ـ لَوْ أنَّها عَرَضَتْ لِأشْمَطَ راهِبٍ يدعو الإلَهَ صَرُورَةٍ مُتَعَبِّدِ[١]

لَصَبا لِبَهْجَتِها وطِيْبِ حَدِيْثِها ولَخالَهُ رَشَداً وإنْ لم يَرْشُدِ[٢]

«لَخالَهُ رَشَداً» ضَمُّ أمْرٍ زائِدٍ. ولكِنَّهُ أبْلَغَ الشِّعْرَ ذُرْوةَ الكمالِ. ثُمَّ قولُهُ: «وإنْ لم يَرْشُد» أدَقُّ مَسْلَكاً. فإنَّهُ جَلَّى شُبْهَةَ كونِ الرّاهِبِ لَطِيفاً بها، رَحِيماً عليها. مع سَلامَةِ قَلْبِهِ.

٦ ـ مَنْ مُبْلِغٌ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ آيَةً (ومن النَّصِيْحَةِ كَثْرَةُ الإنْذارِ)[٣]

= منه، لم تُبْقِ لنفسك أخاً؛ إذ لا يخلو الإنسان من أن تكون فيه خصلة غير مرضية، وضرب قوله: «أي الرجال المهذب» ؟! مثلاً لذلك، وإنما ألزمه أن يعفو عنه، ويغفر له ما وُشِيَ به عنده، ويقال: لمَّ الله شعثك، أي: جمع اللهُ ما تفرق من أمرك وتشتت. انظر: ديوان النابغة، ص٧٤، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(١) الأشمط: الأشيب. والصَّرورة: اللازم لصومعته لايريد حجاً ولا غيره؛ وإنما عنى نصارى الشام الذين لايعرفون الحج، وقيل: الذي لايأتي النساء، وقيل: الذي لم يذنب قط.

(٢) أي: لو عرضت لهذا الراهب الأشيب الذي لايعرف النساء لأدام النظر إليها، ولأعرض عما هو فيه من عبادته؛ إعجاباً بها، واستعذاباً لحديثها، ولظن ذلك رشداً، ولم ير فيه حرجاً وإن لم يكن فيه رشد.

(٣) يعني: عمرو بن هند، وهو عمرو بنُ المنذر بنِ ماءِ السماءِ، أحد ملوك الحيرة.
انظر: ديوان النابغة، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص١٦٨.

ألا تَرى كيف أخْرَجَ الوعِيْدَ مَخْرَجَ الشَّفقَةِ، وفيه اسْتِخْفافٌ وعُلُوٌّ ـ كأنَّهُ يُوعِدُهُ إيعادَ كَبيرٍ يَنصَحُ إشْفاقاً، ويَستَنكِفُ عن ظُلْمِ الضُّعَفاءِ ـ.

٧ـ فما الْفُراتُ إذا هَبَّ الرِّياحُ لَهُ ... تَرمِي أواذِيُّهُ العِبرَينِ بالزَّبَدِ[١]

يَمُدُّهُ كُلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ ... فيه حُطامٌ مِن اليَنْبُوتِ والخَضَدِ[٢]

يَظَلُّ مِن خَوفِهِ المَلَّاحُ مُعْتَصِماً ... بالخَيْزُرانَةِ بعد الأيْنِ والنَّجَدِ[٣]

يَوْماً بأجْودَ مِنْهُ سَيْبَ نافِلَةٍ ... (ولا يَحولُ عَطاءُ اليَومِ دُوْنَ غَدِ)[٤]

هذا الانْتِهازُ من بابِ الاستِثْناءِ المُسْتَمْلَحِ، والتَّتْمِيمِ، فإنَّ بابَ الانْتِهازِ جامِعٌ لِأبْوابٍ مِن المَحاسِنِ، وليس ذلك مُسْتَقْصَىً في الاعْتِراضِ.

---

(١) وقوله: «فما الفرات»، يقول: ليس هذا النهر في أكمل أحواله بأجود منك. وعِبْرا الوادي: جانباه؛ سميا بذلك؛ لأنه يسير إليهما. والزَّبد: مايطرحه الوادي، إذا جاش ماؤه، واضطربت أمواجه.

(٢) قوله: «يمدُّه كلُّ وادٍ»، أي: يزيد فيه ويقويه. والمُتْرَع: المملوء. واللَّجب: المصوِّت؛ لشدة جَريه وقوة سَيله. واليَنْبُوت والخَضَد: نبتان، وقيل: الينبوت: شجر الخَرُّوب، وقيل: الخَضَد: كل ماتكسَّر من الشجر وغيره.

(٣) وقوله: «يظلُّ من خوفه»، أي: من خوف الفرات؛ لاضطراب أمواجه، وشدة هوله. والمعتصم: المستمسك. والخيزرانة هاهنا: سكان السفينة، وقيل: هي المِرْدى، وهو أيضاً من أعواد المركب. وكل خشبة ناعمة لينة هي خيزرانة. والأيْن: الفترة والإعياء. والنَّجَد: العَرَق والكرب، وقد نجِدَ يَنْجَدُ نجَداً.

(٤) قوله: «يوماً بأجود منه» متصلٌ بقوله: «فما الفرات». والسَّيْب: العطاء. والنافلة: الفضل، وكل شيء ليس بواجب وتطوع فهو نافلة؛ وإنما خصَّ النافلة ليبالغ في المدح؛ لأنه إذا أكثر من غير الواجب فهو أجدر أن يكثر من الواجب. وقوله: «دون غدٍ»، أي: إذا أعطاك اليوم لم يمنعه ذلك من إعطائك غداً عطية أخرى. والتقدير: لايحول عطاؤه في اليوم دون عطائه في غد. انظر: ديوان النابغة، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٢٦-٢٧.

ومِن الانتِهازِ، تَقدِيمُ قَوْلٍ تَحَفُّظاً وكَراهِيةً لِما يَتلُوهُ، وإلقاءً له إلى السّامِعِ، وهو يَنتَظِرُ كَلاماً غيرَهُ، كما قال نابِغَةُ بَنِي جَعْدَةَ:

ألا زَعَمَتْ بَنو كعب بِأنّي (ألا كَذَبُوا) كَبِيرُ السِّنِّ فانِ(١)

ومن هذا البابِ قولُهُ تعالى:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

ومن هذا البابِ قولُ طَرَفَةَ:

فسَقَى دِيارَكِ (غَيْرَ مُفْسِدِها) صَوْبُ الرَّبِيعِ ودَيْمَةٌ تَهْمِي(٢)

ما يُشْبِهُ انْتِهازَ الفُرْصَةِ في القرآنِ:

لَعَلَّكَ تَذْكُرُ ما بَيَّنْتُ في بابِ انتِهازِ الفُرْصَةِ، من حُسْنِ الأداءِ، وحُسْنِ مَوْقِعِ الكلامِ.

والآنَ نُشِيرُ إلى أمْثِلَةٍ مِن القرآنِ، فإنَّهُ بَلَغَ غايةً يَحْسُرُ البَلِيْغُ دُوْنَ خَيالِهِ.

فمنها ما جاءَ في الأحْقافِ:

﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحقاف: ٢١].

---

(١) انظر: ديوان النابغة، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٢٣٣.

(٢) غير مفسدها: أي: بالقدر المحتاج إليه، لا هو ناقص عن الحاجة، ولا زائد عن المطلوب، وهذا تتميم للمعنى، واحتراس للديار من الفساد بكثرة المطر، أو القحط بقلته. صوب الربيع: انصباب المطر. ديمة: مطر دائم في لين، وهنا يختم الشاعر مدحه لقتادة بالدعاء له أن تظل دياره خصبة كثيرة الخير والنعم. وتذكر الروايات أن طرفة قال هذه الأبيات معتذراً إلى عمرو بن هند، حين بلغه أنه هجاه وأوعده. انظر: ديوان طرفة: ص١٤٦-١٤٧.

فهذه الجُمْلَةُ المُعْتَرِضَةُ، بَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُم أقَلُّ عُذْراً من قَوْمِ عادٍ، فإنَّ قَوْلَهُ: «قد خَلَتِ النُّذُرُ من بَيْنِ يَدَيْهِ ومن خَلْفِهِ» ليس من كَلامِ هُوْدٍ عليه السَّلام، ولكِنَّ الله نَبَّهَهُم على أنَّ النُّذُرَ تَوالَتْ، فكانتْ قَبْلَ عادٍ، وبعد عادٍ، وعلى عادٍ.

ومنها قولُ داوُدَ عليه السَّلام:

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

ومنها قولُهُ تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

فقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أدْخَلَ كَلِمَةً خَفيفَةً، وفيها الحُجَّةُ الدَّامِغَة، فلم يُصَرِّحْ بالاحْتِجاجِ ـ وانظرْ بابَ إِدْراجِ الدَّلِيْلِ ـ.

(٧) المَجازُ والكِنايَةُ والتَّشبيهُ:

الكِنايَةُ ليستْ بِأصْلٍ، إِنَّما هي فَرْعٌ من ذِكْرِ الشيءِ بِالشيءِ، لِما بينهُما مِن الرِّباطِ.

ذَكَرَ أيّامَ البَـرْدِ فقال:

.... إذا ورَقُ الطَّلْحِ الطِّـوالِ تَحَسَّـرا[١]

فلو قال: «إذا كان البَـرْدُ» لم يُبَـيِّنْ صُوْرَتَهُ، فإنَّ لِلشَّيءِ الواحِدِ وُجُوهاً ولا يَذْكُرُ اسْمُ الشيءِ كُلَّ هَيْئَتِهِ، ولا أحْسَنَها، ولا أكْبَرَها، ولا أوْضَحَها، ولا أبْلَغَها.

فقولُكَ:

«هو عَظِيْمُ الرَّمادِ».

---

(١) سبق تخريجه، وأوله:

وإنـي لـيَـغشـى أبعـدُ الحيِّ جفْنَتِي

يَذْكُرُ أوضَحَ هَيْئَتِهِ وأشْرَفَها.

وقولُكَ:

«هو طَوِيلُ النِّجادِ»

يَذْكُرُ أحْسَنَ صُورَتِهِ.

وقولُهُ تعالى:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

يَذْكُرُ أكْمَلَ هَيْئَتِهِم وأوضَحَها، وأحْسَنَها، ولا يَذْكُرُ كُلَّها.

والبَلِيْغُ يَذْكُرُ الشَّيْءَ بِأحْسَنِ ذِكْرٍ ـ مَدْحاً، وذَمّاً ـ فإِنَّ الذَّمَّ رُبَّما يَكُونُ بِما لا يَقْبُحُ ذِكْرُهُ، وإِنْ قَبُحَ سِرُّهُ.

والذِّكْرُ القَبِيْحُ، لا يَلِيقُ بِالأحْرارِ والمُتَّقِينَ، وأمّا ذِكْرُ القُبْحِ فلا بُدَّ منه في أكْثَرِ الكلامِ.

ولِلحُسْنِ والقُبْحِ: وُجُوهٌ ودَرَجاتٌ، فإذا ذُكِرَ الشَّيْءُ بِأحْسَنِ ذِكْرٍ وأصْلَحِهِ، لم يَشْمَئِزَّ السَّمْعُ عنهُ، ونَشِطَ له، وتَلَقّاهُ القَلْبُ.

فالتّشبيهُ ليس إِلّا ذِكْرَ صِفَةِ الشيءِ بِما يُبَيِّنُ أكْمَلَها، أو أحْسَنَها، أو أبْيَنَها.

فلا بُدَّ في التَّشبِيهِ من رِعايَةِ حُسْنِ الذِّكْرِ والبَيانِ، والشّاعِرُ مُوْلَعٌ بِالذِّكْرِ الحَسَنِ، دَعْ عَنْكَ بَذاءَةَ اللِّسانِ والخَنا مِن الشُّعَراءِ ـ كما تَراهُ في مُناقَضاتِ الجَرِيْرِ، والفَرَزْدَقِ[1]،

---

(١) الفرزدق همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي (.. ـ ١١٠هـ = .. ـ ٧٢٨م)، أبو فراس، الشهير بالفرزدق: شاعر، من النبلاء، من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة، كان يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب، ولولا شعره لذهب نصف أخبار =

والأخْطَلِ[١]، فإنَّهُم فيها أجْدَرُ بِاسْمِ الشَّيْطانِ مِنْهُم بِالشّاعِرِ.

ولقد صَدَقُوا فيما أخْبَـرُوا أنَّ لَهُم شَياطِيْنَ. ولَعَلَّهُم تابُوا عنها، وإنِّي أذْكُرُ من الفَرَزْدَقِ تَوْبَتَهُ حَيْثُ قال...[٢].

فلا أسْتَثْنِي من قَوْلِي بِأنَّ الشّاعِرَ مُولَعٌ بِالجَمِيلِ، فكُلُّ ما يَذْكُرُهُ يُلْبِسُهُ لِباساً أنِيقاً بَهِيجاً، وهذا لا يُمْكِنُهُ إلا لِسَبَبَيْنِ:

ـ إمّا أنْ يأْخُذَ من أحْوالِ الشيءِ، ما يَكُونُ حَسَناً، وبَياناً لِلشَّيءِ، فَـيُرِيكَ مِن الشيءِ طَرَفاً خاصّاً، وهذا لا يَنْحَصِرُ بِالكِنايَةِ، بل هي طَرِيْقٌ منه، فإنَّ مَطْمَحَ البَلِيغِ

= الناس، يشبه بزهير بن أبي سلمى، وكلاهما من شعراء الطبقة الأولى، زهير في الجاهليين، والفرزدق في الإسلاميين، وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل، ومهاجاته لهما أشهر من أن تذكر. كان شريفاً في قومه، عزيز الجانب، يحمي من يستجير بقبر أبيه ـ وكان أبوه من الأجواد الأشراف ـ وكذلك جده. وكان لا ينشد بين يدي الخلفاء والأمراء إلا قاعداً، ولقب بالفرزدق، لجهامة وجهه وغلظه. وتوفي في بادية البصرة، وقد قارب المئة. وأخباره كثيرة. وكان زير غوان، وليس له بيت واحد في النسيب مذكور. انظر: الأعلام: ٨ / ٩٣.

(١) الأخْطَل غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو (١٩-٩٠هـ = ٦٤٠-٧٠٨م)، من بني تغلب، أبو مالك: شاعر، مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، في شعره إبداع. اشتهر في عهد بني أمية بالشام، وأكثر من مدح ملوكهم. وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم: جرير، والفرزدق، والأخطل. نشأ على المسيحية، في أطراف الحيرة (بالعراق)، واتصل بالأمويين فكان شاعرهم، وتهاجى مع جرير والفرزدق، فتناقل الرواة شعره. وكان معجباً بأدبه، تيّاهاً، كثير العناية بشعره، ينظم القصيدة، ويسقط ثلثيها، ثم يظهر مختارها. وكانت إقامته طوراً في دمشق مقر الخلفاء من بني أمية. وحيناً في الجزيرةِ حيث يقيم بنو تغلب قومه. وأخباره مع الشعراء والخلفاء كثيرة. له «ديوان شعر» ـ ط ولعبد الرحيم بن محمود مصطفى «رأس الأدب المكلل في حياة الأخطل» ـ ط، ولفؤاد البستاني «الأخطل» ـ ط، ومثله لحنا نمر. انظر: الأعلام: ٥/ ١٢٣.

(٢) بياض في الأصل.

ليس لازِمَ الشيءِ أو مَلْزومَهُ، إنّما هو يُرِيدُ أنْ يَذْكُرَ طَرَفاً حَسناً ومُوَضِّحاً لِلشَيءِ، قُصارى أمْرِهِ الاختِيارُ، فإنَّهُ رُبَّما يَذْكُرُ قِصَّةً، فيأخُذُ منها شَيئاً، ويَترُكُ أشْياءَ، بل يَضُمُّ بها من المعالِي العالَـيَةَ، ما ليس بِجُزْءٍ من القِصَّةِ، ولكنْ يَراهُ العاقِلُ على طَرَفٍ منها لِذَكائِهِ، فيَضُمُّهُ بها ويُدْرِجُهُ فيها ـ كما تَرى في قَصَصِ القرآنِ وغيرِهِ على تَفاوُتِ المَراتِبِ ـ، فهذا هو السَّبَبُ الأوَّلُ.

ـ وأمّا السَّبَبُ الثّانِي إلى الذِّكْرِ الحَسَنِ البَيِّنِ، هو أنْ يَذْكُرَ صِفاتِ الشيءِ بِذِكْرِ شيءٍ آخَرَ، فيَجْعَلَ هذا لِباساً، وصُوْرَةً لِذاكَ؛ لِأجْلِ الإيضاحِ وحُسْنِ الذِّكْرِ.

والتّأكِيدُ والمُبالَغَةُ من فُرُوعِ الإيْضاحِ، كما أنَّ بَعْضَ الإشارَةِ والكِنايَةِ من فُرُوعِ حُسْنِ الذِّكْرِ؛ لأنَّ بَعْضَ الأمْرِ يَقْبُحُ ذِكْرُهُ جَهْراً؛ لِمُرُوءَةٍ أو حِكْمَةٍ، فيُكْتَفى بَلمحَةٍ منه.

دَلالَةُ ٱلْمَجازِ في الأزْمِنَةِ:

إذا أرَدْتَ أنْ تُصَوِّرَ شيئاً غائِباً ماضِياً، تَسْتَعْمِلُ له الحالَ، فالحالُ أشَدُّ تَصوِيراً من الماضِي، ولكِنَّكَ إذا أرَدْتَ أنْ تُصَوِّرَ أمْراً غائِباً في المُسْتَقْبَلِ، تَسْتَعْمِلُ الماضِي، كأنّك تُرِيدُ أنْ تَجْعَلَ ما هو كائِنٌ، كأنَّهُ قد كان، كما تَرى في قولِهِ تعالى:

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۞ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۞ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۞ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۞ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس: ٤٩-٥٤].

فانظر كيف بَدأ بِالحالِ، ثُمَّ ذَهَبَ إلى الاستِقبالِ إخباراً، ثُمَّ لِتَمْثِيلِ الحالاتِ الَّتِي أخْبَـرَ عنها جاءَ بِالماضِي، فإذا فَرَغَ عن التَّمْثِيلِ، رَجَعَ إلى المُسْتَقْبَلِ.

ثُمَّ انظرْ كيف إِذْ جَعَلَ المُسْتَقْبَلَ ماضِياً، أَدْرَجَ فيه الحالَ؛ لِيُصَوِّرَ لك ما تَظُنُّ غائِباً. فقوله تعالى:

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى:

﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ إدراج الحال في الماضي.

والمِثالُ لِلحالِ كثيرٌ في كَلامِ النّاسِ، ونُشِيرُ إلى بَعْضِ أَمْثِلَةٍ مِن القرآنِ، لكي تُوازِنَ حُسْنَ مَواقِعِها.

فمنها قولُهُ تعالى:

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

وقولُهُ تعالى في هذه القِصَّةِ:

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢].

فهذانِ الحالانِ وقَعا في حَقِّ مَحَلِّهِما، ومعهُما الأَفْعالُ الماضِيَةُ.

والوجْهُ للاختِيارِ: أنَّ الحالَ يَدُلُّ على الاستِمرارِ أَكْثَرَ من الماضِي. فاخْتارَ الحالَ لِلأَمْرِ المُسْتَمِرِّ، والماضِيَ لِأَمرٍ لم يَكُنْ مُستَمِرّاً.

(٨) لِسانُ الغَيْبِ:

ترى في القرآنِ أقوالاً لا يُذْكَرُ قائِلُها، وليس لَها قائِلٌ إِلَّا لِسانُ الغَيْبِ. كأنَّ الحَقِيقَةَ نَفْسَها تَمَثَّلَت وقالت. ومِثالُهُ كَثِيرٌ:

في سورةِ الأحْقافِ:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ ـ فقال زاجِرٌ من الغَيْبِ:

كَلَّا ـ ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

ومنها في سورةِ ص:

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ * فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٤-٢٥].

ـ فناداهُ صَوْتٌ من الغَيْبِ يَلُومُهُ من جانِبِ رَبِّهِ قائِلاً ـ:

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

(٩) الإِشارَةُ والكِنايَةُ والتَّعْريْضُ:

(١) إذا ذُكِرَ شَيْءٌ على أُسْلُوبِ الإِشارَةِ كان:

١ ـ كاخْتِلاسِ ضَرْبَةٍ، فلا يُمْكِنُ للسّامِعِ دَفْعُها، فإِنَّهُ مَشْغُولٌ بِما يَجْرِي إليهِ الكَلامُ مُسْتَقِيماً.

٢ ـ ثُمَّ رُبَّما يَكُونُ التَّعرِيضُ ألطَفَ من أنْ يَعلَمَ السّامِعُ مِن أين أتاهُ، فيَتأَثَّرُ لهُ، ولا يَعْلَمُ كيف يَدْفَعُهُ.

٣ ـ ثُمَّ في التَّعرِيضِ حِدَّةٌ ونُفُوذٌ كما قال:

القَوْلُ يَنْفُذُ ما لا تَنْفُذُ الإِبَرُ[1].

وفي ذلك قيل: الكِنايَةُ أَبْلَغُ مِن التَّصرِيحِ.

٤ ـ ثُمَّ أَنْتَ تَسْتَطِيعُ أنْ تَجْمَعَ إِشاراتٍ كَثِيرَةً، في كَلِماتٍ قَلِيلَةٍ. فلا يَستَطِيعُ

---

(١) هذا شطر بيت للأخطل، وأوله:

حتَّى استكانوا وهم مني على مَضَضٍ   والقولُ ينفُذُ ما لا تنفُذُ الإبَرُ

السّامِعُ دَفْعَها، فإنّها تُصِيبُهُ كَسِهامٍ، صُبّتْ عليهِ من كُلِّ جانِبٍ.

(٢) الإِشارَةُ بابٌ عَظِيمٌ حَتّى إِنَّ بَعْضَهُمْ قال:

إِنَّ البَلاغَةَ لمحَةٌ دالَّةٌ.

فكأنّهُ جَمَعَ أبوابَ البَلاغَةِ في الإشارَةِ، ولا شَكَّ أنَّ حاجَةَ البَلاغَةِ شَدِيدَةٌ إلى إِلقاءِ الكلامِ من حيث يَقْبَلُهُ السّامِعُ، فإذا كان غيرَ مأْمُونِ الرَّدِّ، يُعْرَضُ عليه، ويُكْسَى الكَلامُ لِباساً غيرَ لِباسِهِ المَعلُومِ.

مثلاً: إذا قال البُهْلُولُ لِرَجُلٍ سألَهُ عن سُكُونَتِهِ في المَقابِرِ:

إِنّهُم قَومٌ لا يُؤْذُونَ جارَهُم، وإذا غِبْتُ عنهُم لا يَغْتابونني.

فكأنّهُ قال: إنَّ النّاسَ في هذا الزَّمانِ أسْوأُ مِن الأمْواتِ، ومَنْ يَتَّقِي اللهَ ويُحافِظُ على نَفْسِهِ مُضْطَرٌّ إلى الفِرارِ عنهُم.

* * *

مباحثُ متفرقة

صَرْفُ الكلامِ عن سُنَّتِهِ:

إذا اجْتَمَعَ أبوابٌ مِن الأساليبِ، وفي أَخْذِ بَعَضِها تَرْكٌ لِغيرِهِ، فيُؤْخَذُ بِالأَولَى.

ومن هَاهُنا لَزِمَ تَرتِيبُها حَسْبَ تقدُّمها، فالتَّقابُلُ يُتْرَكُ إذا كان وُضُوحُ الكلامِ بِدُونِهِ.

مثلاً: قولُهُ تعالى:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

فتَرَكَ التَّقابُلَ. ولم يَقُلْ: ومَنْ عَصَى ـ وهذا كَثِيرٌ ـ.

وكذلك السَّجْعُ يُتْرَكُ لِوُجُوهٍ.

والقاعِدَةُ: أنَّ كُلَّ ما كان أولَى بِاسْتِقامَةِ الكلامِ وبَلاغَتِهِ بِالذَّاتِ، يُراعَى دُوْنَ ما كان مَجْلُوباً بِالواسِطَةِ.

مثلاً: إنَّ التَّقابُلَ يُوضِّحُ المعنى بِواسِطَةِ التَّقابُلِ، ورَجْعِ الفِكْرِ بين الضِّدَّينِ.

الجُمْلَةُ المُعْتَرِضَةُ:

الجُمْلَةُ المُعْتَرِضَةُ لا بُدَّ من وضْعِها في مَحَلِّها الَّذي تُوضَعُ فيه لِوُجُوهٍ خاصَّةٍ:

فلا بُدَّ من قَطْعِ الكلامِ، ولَكِنَّ هذا القَطْعَ، لا بُدَّ أنْ يَكُونَ غيرَ مُذْهِلٍ عن مَجْرَى الكلامِ.

ولذلك يُلْتَمَسُ أحياناً ما يَرْجِعُ إلى المَجْرَى:

إمّا بتَكْرارِ كَلِمَةٍ، أو إعرابٍ ـ حَسْبَ إعرابِ ما قُطِعَ عندهُ الكَلامُ ـ، أمّا الوُجُوهُ الخاصَّةُ للاعتِراضِ: فَفُرْصَةُ الكلامِ المُفيدِ، لِيَكُونَ أوقَعَ عند القُرْبَة منهُ، ودَفْعَ دَخلٍ لا بُدَّ من دفعه.

وُجُوهُ الخطأ في التَّمييزِ بين حَسَنِ الكلامِ وقَبِيْحِهِ:

التَّمْيِيزُ بين حَسَنِ الكلامِ وقَبِيْحِهِ، سَهْلٌ من طَرِيقِ الذَّوْقِ ـ قَبْلَ استِعْمالِ القَواعِدِ المُسْتَنْبَطَةِ ـ، فأمّا بعد ذلك، فلا يَسْأَلُونَ الذَّوْقَ، ويَكْثُرُ الخَطأُ لِخَطَئِهِم في تَعْيينِ وُجُوهِ الحُسْنِ.

والخَلَلُ فيما جَعَلُوهُ أساساً لِهذا العِلْمِ من وُجُوهٍ:

الأوَّلُ: أنَّهُمْ نَظَرُوا إليه من مَنْظَرِ المَنْطِقِ والنَّحْوِ، فطَلَبُوا حُسْنَ الكلامِ من جِهَةِ الدَّلالَةِ الالتِزامِيَّةِ، وأجْزاءِ الكلامِ، فجَعَلُوا له أبْواباً مِن المُسْنَدِ إليه والمُسْنَدِ، والمَوْصُوفِ والصِّفَةِ، والتَّعْرِيفِ والتَّنْكِيْرِ، والوَصْلِ والفَصْلِ، وغيرِ ذلك. واضْطُرُّوا إلى تَكْرارِ القولِ.

ولَكِنَّ لِلبَلاغَةِ مَنْظَراً خاصّاً، تَنْظُرُ منه إليها من غيرِ حِجابٍ.

الثّاني: أنَّهم نَسَبُوا الحُسْنَ إلى ما ليس بِأصلٍ، فَعَكَفَ النّاسُ عليهِ، وفاتَهُم مَناطُ الحُسْنِ، بل رُبَّما سَلَكُوا طَرِيقاً مُبْعِداً.

الثّالِثُ: أنَّهُمُ اقْتَصَرُوا على صُوْرَةِ الكلامِ ولِباسِهِ، وذَهلُوا أنَّ أصْلَ الحُسْنِ في حَقِيقَةِ المعنى ومَنْشَئِهِ، فاكْتَفَوا بِالدُّونِ، ولم يُمْكِنْهُم النَّظَرُ في مَحاسِنِ أعالِي الكلامِ.

رُوْحُ البَلاغَةِ وسِرُّها:

١) قد بَيّنا في غيرِ هذا المَوضِعِ، أنَّ أصْلَ البَلاغَةِ يُوجَدُ في تَصوِيرِ المعانِي وتَرتِيبِها.

وأمّا الآنَ فنَذْكُرُ من البَلاغَةِ رُوْحَها وسِرَّها ـ الفارِقَ بين الكلامِ البَلِيْغِ وغيرِ البَلِيْغِ ـ وبين أقْسامِ الكلامِ، من الخَطابَةِ وغيرِها.

فاعلمْ أنَّ الخَطابَةَ لَمّا كان مَقْصِدُها العَمَلَ، والبَعْثَ عليه، فلا بُدَّ أنْ تَكُونَ مُشْتَمِلَةً على الأُمُورِ المُؤَثِّرَةِ في النُّفُوسِ، وباعِثَةً لها على عَمَلٍ يَشُقُّ عليها.

فأوَّلُ الأمْرِ أنْ لا يَكُونَ الخَطِيْبُ مُتَّهَماً بالكَذِبِ، ولا بِضَعْفِ الرّأيِ، ولا بِضَعْفِ الاعْتِقادِ فيما يَدْعُو إليه، ولا بِضَعْفِ القُوَّةِ، وقِلَّةِ الجَراءَةِ.

وبِعِبارَةٍ أُخْرَى: أنْ يَكُونَ مِمَّنْ تَمِيْلُ إلى قولِهِ القُلُوبُ، وتُؤَثِّرُ فيهم شِدَّةُ اهتِمامِهِ، وسَبْقُهُ إلى ما يَدْعُو النّاسَ إليه. ويَعْتَقِدُونَ أنَّ اتِّباعَهُ يَجْلُبُ الخَيْرَ والسَّعادَةَ، لكونه صائِبَ الرّأيِ بَصِيْراً بتَدبِيرِ الأُمُورِ، جَرِيئاً على اقتِحامِ المَكارِهِ، قَوِيّاً على نَيْلِ المآرِبِ.

فإذا كان هو كذلك، لا بُدَّ أنْ يَجْرِيَ الكَلامُ على سُنَّتِهِ الفِطْرِيَّةِ، فيَكُونَ مَمْلُوءاً من كُلِّ عاطِفَةٍ صادِقَةٍ قَوِيَّةٍ مُهيِّجَةٍ ـ مِن الجِدِّ، والتّأسُّفِ، والغَضَبِ، والرَّحْمَةِ. والقولِ بِالحَقِّ والصَّوابِ، وفَصْلِ الخِطابِ ـ في تَصْوِيرِ النّافِعِ والضّارِّ المُطِلِّ عليهم كأنهُم يَرَوْنَها عياناً، ألا تَرى النَّبِيَ ﷺ إذا قامَ خَطِيْباً، كانتْ تَحْمَرُّ عَيْناهُ، كأنَّهُ مُنْذِرٌ بين يَدَي عَذابٍ شَدِيدٍ[1].

---

(١) عن جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله إذا خطب احمرَّت عَيْناه، وعلا صوته، واشتدَّ غضبه، حتى كأنه مُنْذِرُ جيش، يقول: «صبَّحكم ومسَّاكم». أخرجه مسلم في صحيحه برقم ١٤٤١.

٢) وعلى هذا فلا يَحْتَمِلُ الكَلامُ الخَطابِيُّ تَـفْصِيلَ الأَحْكامِ، على حَـدٍّ يَخْرُجُ عن العَواطِفِ بَعِيداً، فإنَّ الخَطابَةَ لا تُبْعَدُ عن سُنَّتِها، حَتَى تَصِيْرَ خِلْواً عن المُهَيِّجاتِ[١].

كمالُ البَلاغَةِ والإعجازِ:

١ ـ من جِهَةِ العِلْمِ هو أنْ يَكُونَ المُتَكَلِّمُ عارِفاً بِاللِّسانِ وأَسالِيبِهِ.

٢ ـ ومن جِهَةِ القُدْرَةِ أنْ يَسْلُسَ لهُ القولُ، بِما أرادَ بَيانَهُ، فلا يُغْنِي شَيئاً، بِإِظْهارِ ما في صَدْرِهِ، حَتَّى يَكُونَ القولُ مُطابَقاً بِالمعانِي.

٣ ـ من جِهَةِ العِلْمِ والتَّأَثُرِ أنْ لا يَهُمَّ بِما لا يُوافِقُ المَحَلَّ والحاجَةَ والحِكْمَةَ والتَّدْبِيْرَ ـ الَّذي هو أعلى غايَةِ النُّطْقِ ـ.

وكَلامُ الفُحُولِ من الشُّعَراءِ رُبَّما يَكُونُ في أَدْونِ مَنْزِلَةٍ من هذه الجِهَةِ، ولَكِنَّهُم يَتَفاوتُونَ في ذلك:

فزُهَيرٌ أَحسَنُهُم قَوْلاً، وامْرُؤُ القَيْسِ أَسْوَؤُهُم.

وهذه الأُمُورُ الثَّلاثَةُ ليس لها مَحَلٌ مِن الإعجازِ.

٤ ـ الأمْرُ الرّابِعُ في الكلامِ: لَهْجَةُ المُتَكَلِّمِ، وصُوْرَةُ المعانِي الَّتِي يُفْصِحُ عنها.

فإنَّ الكَلامَ كما يَحْمِلُ العُلُومَ والعَواطِفَ، فكذلك يَحْمِلُ لَهْجَةَ المُتَـكَلِّمِ، كأنَّ المُتَـكَلِّمَ يُرَى في كَلامِهِ إذا نَشأ الكَلامُ من غيرِ التَّقْلِيدِ، فإنَّهُ ليس كَلامَهُ ـ وهذا خارجٌ عن بَحْثِنا ـ.

وهذا مِثْلُ صَوْتٍ وغِناءٍ من آلاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، فكما أنَّ الغِناءَ الواحِدَ يَخْتَلِفُ من

---

(١) تَذْكِرَةٌ: إذا احْتِيجَ إلى سَدِّ بابِ فَسادٍ، وَذِكْرِ أُمُورٍ دَنِيَّةٍ، لا بُدَّ أنْ يُرْجَعَ إلى مَعالِي الأُمُورِ، لكيلا يَسْقُطَ الكَلامُ عن الرِّفعَةِ، ألا تَرَى كَيْفَ أتَى القُرْآنُ بِآيَةِ النُّورِ في عَقِبِ ذِكْرِ المَعاصِي.

جِهَةِ الآلاتِ، فكذلك المعنى الواحِدُ يَخْتَلِفُ في لَهْجَتِهِ، وكما تُمَيِّزُ بين النَّاطِقِينَ ـ وإنْ نَطَقُوا بِكَلامٍ واحِدٍ من لَهْجَتِهِمْ الصَّوْتِيَةِ ـ فكذلك تُمَيِّزُ بين المُتَكَلِّمِيْنَ ـ وإنْ أدَّوا مَعنىً واحِداً ـ. وهذا الفَرْقُ...[1].

مَناطُ مَحاسِنِ كَلامِ العَرَبِ:

جُلُّ مَحاسِنِ كَلامِ العَرَبِ يُوْجَدُ:

- في صِحَّةِ التَّأثُّرِ.
- ووضاحَةِ التَّصويرِ.
- وإصابَةِ التَّعْبيرِ.

وهذه الأُمُورُ تَنْطَوِي أبواباً من الأساليبِ.

وأمّا حُسْنُ التَّشبيهِ، والاسْتِعارَةُ، فلا يُغْنِي شَيئاً، إنْ لم يُوجَدْ فيه واحِدٌ من هذه الثَّلاثُ.

ومن صِحَّةِ التَّأثُّرِ: السُّكُوتُ، فإنَّ مَنْ أخطأ تأثُّرُهُ، لم يَنْفَعْ كَلامُهُ، وإنْ زَخْرَفَهُ بِكُلِّ بَدِيْعٍ.

فمَحاسِنُ الكلامِ، فَرْعٌ على حُسْنِ الكلامِ في نَفْسِ وُجُودِهِ. والكَلامُ لا يُجَرَّدُ عن مَوْقِعِهِ، وأمّا الكَلامُ الَّذي لا يُعْلَمُ مَوْقِعُهُ، فإنْ كان كَلاماً صَحِيحاً، دَلَّنا على مَوْقِعِهِ، ـ كما أنَّكَ تَقِيْسُ مِن اللِّباسِ طُوْلَ اللّابِسِ وضَخامَتَهُ ـ.

أخْلاقُ العَرَبِ:

قُوى العَرَبِ العَقْلِيَّـةِ والكلامِيَّـةِ:

(١) العَرَبُ لِكونِها أذْكَى الأُمَمِ، وأسْرَعَهم إحساساً، وأشَدَّهُم عاطِفَةً، كانوا

---

(١) بياض في الأصل.

أولَى بِالشِّعْرِ مِن النَّـثْرِ، نَثْرُهُم أبْعَدُ من نَثْرِ الأُمَمِ ـ أهْمَلُوا فيه كُلَّ ما يُناسِبُ الشِّعْرَ حَتَّى القافِيَةَ ـ.

ورُبَّ خُطْبَةٍ جاءَتْ مِنْهُم نَظْماً. فليس لِلعَجَمِيِّ أنْ يَفْهَم نَثْرَهُم، من غيرِ أنْ يَنْظُرَ فيه كأنَّهُ نَظْمٌ ـ مع كُلِّ ما يَخْتَصُّ بِنَظْمِ العَرَبِ خلا الوزْنِ ـ، وليس له أنْ يَمْدَحَهُ أو يَذُمَّهُ إلَّا بعد هذه المُراعاةِ.

ثُمَّ ليس نَظْمُهُم كَنَظْمِ سائِرِ الأُمَمِ، رُبَّ أُمَّةٍ نَظْمُهُم كَنَثْرٍ حَقِيقِيٍّ، كما أنَّ نَثْرَ العَرَبِ كَنَظْمٍ حَقِيقِيٍّ، فلا بُدَّ لإفْهامِ كَلامِ العَرَبِ، أنْ أُبَيِّنَ ما هي خَصائِصُ نَظْمِهِم ـ الَّتِي قد طُبِعَتْ عليها فِطْرَةُ العَرَبِ ـ وأُبَيِّنَ أنَّ هذهِ الخَصائِصَ هِي الَّتِي تُوْجَدُ في نَثْرِهِم.

في ارتِجالِ العَرَبِ:

(من أبْوابِ سَجايا العَرَبِ فيما يَتَعَلَّقُ بِالبَلاغَةِ):

(١) مَنْ لا يَجِدُ في نَفْسِهِ قُدْرَةً على الارْتِجالِ، يَظُنُّهُ أمْراً بَعِيداً، ولا يُؤْمِنُ بِهِ، لاسِيَّما إذا رأى كَلاماً مُلِئَ حِكْمَةً، ودِقَّةً، وتَنَوُّعاً، وإصابَةً.

فإذا رأى سُرْعَةَ تَصْنِيفٍ في أحَدٍ. ظَنَّ أنَّهُ إنَّما أَلَّفَ ما جَمَعَ مِن المَطالِبِ في مُدَّةٍ طَوِيْلَةٍ.

وأمّا أنا فلا أشُكُّ أنَّ الارْتِجالَ ـ سَواءٌ كان في خُطْبَةٍ، أو شِعْرٍ، أو كان في تأليفٍ، أو تَصنيفٍ حُكْمِيٍّ ـ ليس مِن المُسْتَبعَدِ الَّذي يُعَدُّ مُحالاً، فإنَّهُ أمْرٌ وقَعَ ويَقَعُ، نَعَمْ إنَّهُ قَليلٌ ـ وأكثرُ هذا القَليلِ ما هو غيرُ مُسْتَجادٍ ـ.

مثلاً: كَلامُ الرّازِيِّ:[1] في سُرْعَةِ تَصنِيفِهِ ـ فإنَّهُ ما جاءَ إلَّا في وهْنٍ، كَنَسْجِ العَناكِبِ.

---

(١) الفخر الرازي (٥٤٤-٦٠٦هـ = ١١٥٠-١٢١٠م) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين =

(٢) ولكي أُقَـرِّبَ لك هذا الأمْرَ، أضْرِبُ لك مثلاً:

مَثَلُ الرِّيحِ المُعْصِرَةِ، فحين لا ترى السَّماءَ إلَّا كَحَلَبَةٍ، فإذا بِرِيْحٍ بارِدَةٍ، ثُمَّ بِقِطْعَةِ غَمامَةٍ، وبينما نَنْظُرُ إذْ هي غَطَّت السَّماءَ، ثُمَّ ما هِيَ إلَّا سَحٌّ وتَسْكابٌ، حَتَّى فاضَ السَّهْلُ وأفْعَمَ البِطاحَ.

فكما أنَّ الجَوَّ مُمْتَلِئٌ بِالبُخارِ، ومَسُّ الرِّيحِ جَعَلَهُ غَمامَةً، ثُمَّ وبْلاً، ثُمَّ سَيْلاً ـ كأنَّ مُحْتَلِباً يَمَسُّ ضَرْعَ لِقْحَةٍ ـ فكذلك عَقْلُكَ مَلآنُ خَيالاً وعِلْماً، لا تُحِسُّ بِهِ، ولا تُرِيدُ أنْ تَقُولَ، أو تَـكْتُبَ شَيئاً، حَتَّى إنْ وافَتْهُ باعِثَةٌ، ودَعَتْهُ داعِيَةٌ، أنْشأتْ العَجائِبَ، لا تَدْرِي أين كانتْ، ومن أين جاءَتْ، فَتُسَمِّيها إلهاماً، وإلقاءً، ولَسْتَ مُخْطِئاً في هذه التَّسْمِيَةِ.

(٣) وليس الارتِجالُ في الأقوالِ، بِأعْجَبَ من الارتِجالِ في الفِعالِ.

ألا ترى العَرَبَ كيف بَلَغُوا الغايَةَ في التَّمَدُّنِ، في قَلِيلٍ من الزَّمانِ، فَقَومٌ تَراهُ يَمْشِي وكأنَّهُ واقِفٌ، وقَوْمٌ يَمُرُّ كأنَّهُ بَرْقٌ خاطِفٌ.

فإذا سَمِعْتَ أنَّ العَرَبَ كانوا يُلْقُونَ ـ من غيرِ رَوِيَّةٍ ـ خُطَباً بَلِيْغَةً طِوالاً، أو يُنْشِدُونَ القَصائِدَ الغُرَّ ارْتِجالاً، أفلا تَظُنُّهُمْ أجْدَرَ بهذا، من أقْوامٍ يَدُبُّونَ دَبِيْبَ النَّمْلِ، وقد عَلِمْتَ من نُطْقِهِم في مَواسِمِهِم، وحُرُوبِهِم مِن الخُطَبِ، والقَصائِدِ، والرَّجَزِ،

= التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي: الإمام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له: «ابن خطيب الري». رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة. أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها. وكان يحسن الفارسية. من تصانيفه: «مفاتيح الغيب» في تفسير القرآن الكريم، و«لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات». انظر: الأعلام للزركلي: ٦/ ٣١٣.

حَتَّى كأَنَّهُم لم يَمْلِكُوا أنْ يَرْووا شَقْشَقَةَ لِسانِهِم، وجَيْش صُدُورِهِم، فتَراهُم أولَى بِاسْمِ الحَيِّ النّاطِقِ من سِواهُم.

(٤) ولا غَرْوَ فإنَّهُم طالَما قد شَحَذُوا مَقاوِلَهُم، وتَقارَعُوا بها حَتَّى اتَّخَذُوها...[١].

صَوْتُ الخُطَبِ:

الخُطَبُ في اليُونانِ، وفي الهِنْدِ، كانتْ نَوْعاً مِن الغِناءِ، وكان السّامِعُونَ يَتاثَّرُونَ منها، كما تَتأَثَّرُ مِن الشِّعْرِ إذا أُنْشِدَ.

لا نَعْلَمُ هل كانتِ العَرَبُ تُنْشِدُ بِالخُطَبِ، ولكِنَّ أسْجاعَهُم، ولِحاظ وزْنِ الفَقَراتِ، تُنْبِئُ أَنَّهُم كانوا مِثْلَ اليُونانِ، وفي الهِنْدِ سَمِعنا العُلَماءَ يُنشِدُونَ، ولكِنْ الآنَ تَرَكُوا الإِنْشادَ، ويَتَكَلَّمُونَ حَسْبَ العادَةِ، ولا يُخاطِبُونَ إِلَّا العَقْلَ والتَّخْيِيلَ.

ومع ذلك أكثرُ الواعِظِينَ يَخلِطُونَ بِكَلامِهِم، طَرَفاً كبيراً مِن المَثْنَوِي المَعْنَوِي[٢]، ويُنْشِدُونَهُ على لُحُونٍ خاصَّةٍ، والنّاسُ يَبْكُونَ، ويَتأَثَّرُونَ، من جِهَةِ الغِناءِ. وإنْ لم يَفْهَمُوا أكْثَرَ ما يَسْمَعُونَ منه.

مَذْهَبُ العَرَبِ في نَقْدِ الكَلام:

قَبْلَ أنْ نَذْكُرَ أُصُولاً، يَجْرِي عليها اخْتِيارُهُم، نُرِيْدُ أنْ نَسْتَقْصِيَ من اخْتِيارِهِم ونَقْدِهِم ما وصَلَ إِلَينا.

فَمِنْ ذلك ما اتَّفَقَت فيه كَلِمَتُهُم ـ في اختِيارِهِ مِن الأشْعارِ ـ:

---

(١) بياض في الأصل.

(٢) (المثنوي المعنوي) منظومة صوفية فلسفية في ٢٥٧٠٠ بيت بالفارسية، وترجم إلى العربية والتركية، وشرح، كتب مقدمتها بالعربية وتخللتها أبيات عربية من نظم جلال الدين الرومي (٦٠٤-٦٧٢هـ = ١٢٠٧-١٢٧٣م) صاحب الطريقة (المولوية). ولد في بلخ وانتقل مع أبيه إلى بغداد، في الرابعة من عمره، فترعرع بها في المدرسة المستنصرية، ثم استقر ومات في قونية. انظر: الأعلام: ٧ / ٣٠.

قال الأعْشَى[1] (يَهْجُو عَلْقَمَةَ بنَ عُلاثَةَ):

تَبِيْتُونَ في المَشْتَى مِلاءً بُطُونُكُم وجاراتُكُم غَرْثَى يَبِتْنَ خَمائِصا[2]

وقَعَ الاتِّفاقُ على أنَّهُ أهْجَى بَيتٍ في الجاهِلِيَّةِ.

ولَمّا سَمِعَ عَلْقَمَةُ بْنُ عُلاثَةَ[3] هذا البَيْتَ بَكَى وقال:

اللهُمَّ أخْزِه، واجْزِه عَنِّي، إنْ كان كاذِباً.

قال لَبِيْدُ:

وجَلا السُّيولُ عَنِ الطُّلولِ كأنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أقْلامُها[4]

---

(١) الأعشى (.. ـ ٧هـ = .. ـ ٦٢٩م) ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس: من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات. كان كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس، غزير الشعر، يسلك فيه كل مسلك، وليس أحد ممن عرف قبله أكثر شعراً منه. وكان يغني بشعره، فسمي (صناجة العرب)، عاش عمراً طويلا، وأدرك الإسلام ولم يسلم. ولقب بالأعشى لضعف بصره. وعمي في أواخر عمره. مولده ووفاته في قرية (منفوحة) باليمامة قرب مدينة (الرياض)، وفيها داره، وبها قبره. انظر: الأعلام: ٧ / ٣٤.

(٢) المشتى: من الشتاء. الغرثى والخميص: الجائعة الضامرة البطن، وزعم الرواة أن علقمة بكى حين سمع هذا البيت، وقال: قاتله الله! نحن كذلك؟. انظر: الحماسة المغربية: ٢/ ١٣٦٢، لأبي العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، طبع دار الفكر، بيروت، دمشق، ط١، ١٩٩١.

(٣) علقمة بن علاثة بن عوف الكلابي العامري (...ـنحو ٢٠هـ = ...ـنحو ٦٤٠م): والٍ، من الصحابة، من بني عامر بن صعصعة. كان في الجاهلية من أشراف قومه، وفد على قيصر، ونافر عامر بن الطفيل. ثم أسلم. وارتد في أيام أبي بكر، فانصرف إلى الشام، فبعث إليه أبو بكر القعقاع بن عمرو، ففر علقمة منه، ثم عاد إلى الاسلام، وولاه عمر ين الخطاب، وكان كريماً، للحطيئة قصيدة في مدحه. انظر: الأعلام: ٤/ ٢٤٧.

(٤) جلا: كشف، لازم ومتعد، فإذا كان متعدياً فمفعوله محذوف، تقديره: «وجلت السيول التراب». =

سَمِعَ الفَرَزْدَقُ هذا البَيْتَ فَسَجَدَ، فَقِيلَ: ما هذا يا أبا فِراس؟

فقال: أَنْتُمْ تَعْرِفُونَ سَجْدَةَ القرآنِ، وأنا أعْرِفُ سَجْدَةَ الشِّعْرِ.

قال الفَرَاهِي: كانتْ العَرَبُ تَسْجُدُ لله تعالى، إذا رأتْ آيةً، تَدُلُّ على حِكْمَتِهِ وقُدْرَتِهِ. كما قال........[1]

قال لَبِيْد:

يَعْلُو طَرِيْقَةَ مَتْنِها مُتَواتِرٌ ... في لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمامُها[2]

لَمّا بَلَغَ لَبِيْدٌ في إِنْشادِ قَصِيْدَتِهِ هذا البَيْتَ منها سَجَدَ له الشُّعَراءُ.

بابٌ مِن التَّمْرِينِ في النَّقْدِ:

نورِدُ في هذا البابِ، من معانٍ، أَخَذَها المُوَلَّدُونَ مِن السَّلَفِ. فترى كيف طَمَسُوا حُسْنَها ورَوْنَقَها:

(١) قال المُتَنَبي[3] في إِقْدامِ المَمْدُوحِ:

= الطلول: ما شخص من آثار الدار. زبر: جمع زبور، وهو الكتاب. متونها: أوساطها وظهورها، ولكنه أراد كلها، ولم يخص المتون. تجد متونها أقلامها: تعيد عليها الكتابة بعد أن درست. انظر: ديوان لبيد ص١٦٥.

(١) بياض في الأصل.

(٢) انظر: ديوان لبيد ص١٦٥.

(٣) أبو الطيب المتنبي (٣٠٣-٣٥٤هـ = ٩١٥-٩٦٥م) أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي: الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة. وفي علماء الأدب من يعده أشعر الإسلاميين. ولد بالكوفة في محلة تسمى (كندة)، وإليها نسبته، ونشأ بالشام، ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس. وقال الشعر صبيًّا. ووفد على سيف =

فـكـأنَّـهُ والـطَّـعْــنُ مِـن قُـدّامِـهِ   مُتَخَـوِّفٌ مِـن خَلْفِـهِ أنْ يُطْعَنـا[1]

أخَذَ المعنى - من قَوْلِ بَكْرِ بْن النّطّاحِ[2] - وهو يَقُولُ:

كأنَّـكَ عنـد الطَّعْـنِ فـي حَوْمَـةِ الوغَى   تَفِـرُّ مِـن الصَّـفِّ الَّـذي مـن ورائِـكَا

(٢) قال المُتَنَبِّي:

نَـفَـتِ التَّوهُّـمَ عَنْـهُ حِـدَّةُ ذِهْنِـهِ   فَقَضَى على غَيْبِ الأُمُورِ تَـيَقُّنا[3]

= الدولة ابن حمدان (صاحب حلب) سنة ٣٣٧هـ فمدحه، وحظي عنده. ومضى إلى مصر، فمدح كافور الأخشيدي، وطلب منه أن يوليه، فلم يوله كافور، فغضب أبو الطيب، وانصرف يهجوه. وقصد العراق، فقرئ عليه ديوانه. وزار بلاد فارس، فمر بأرجان، ومدح فيها ابن العميد، وكانت له معه مساجلات. ورحل إلى شيراز فمدح عضد الدولة ابن بويه الديلمي. وعاد يريد بغداد فالكوفة، فعرض له فاتك بن أبي جهل الأسدي في الطريق بجماعة من أصحابه، ومع المتنبي جماعة أيضاً، فاقتتل الفريقان، فقتل أبو الطيب وابنه محمد وغلامه مفلح، بالنعمانية، بالقرب من دير العاقول (في الجانب الغربي من سواد بغداد). وفاتك هذا خال ضبة بن يزيد. انظر: الأعلام: ١ / ١١٥.

(١) يقول: لشدة إقدامه في الحرب لايرجع ولايلتفت إلى خلفه، فهو أبداً مقدم؛ فكأنه يخاف طعناً من خلفه، فهو يتقدم خوفاً مما وراءه، كما قال بكر بن النطاح:

كأنـك عنـد الطعـن فـي حومـة الوغى   تـفـر مـن الصـف الـذي مـن ورائـكا

انظر: شرح ديوان المتنبي: ٤/ ٣٣١، لعبد الرحمن البرقوقي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) بكر بن النطاح الحنفي، أبو وائل (... - ١٩٢هـ = ... - ٨٠٨م): شاعر غزل، من فرسان بني حنيفة، من أهل اليمامة. انتقل إلى بغداد في زمن الرشيد، واتصل بأبي دلف العجلي، فجعل له رزقاً سلطانياً عاش به إلى أن توفي. ورثاه أبو العتاهية بقوله:

مـــات ابـن نـطـــاح أبـو وائـل   بكـر، فأضحى الشـعر قـد ماتا!

انظر: الأعلام للزركلي: ٢ / ٧١.

(٣) التوهم: خلاف التيقن. وهذا كأنه اعتذار مما ذكر من إفراطه وإقدامه، فقال: إن فطنته تقفه على عواقب الأمور حتى يعرفها يقيناً لا وهماً. انظر: شرح ديوان المتنبي: ٤/ ٣٣١.

وقال أوسُ بن حُجْر:

الألمَعِيَّ الَّذي يَظُنُّ بِكَ الظَّـ ـنَّ كأنْ قد رأى وقد سَمِعا[١]

(٣)...[٢].

من بابِ نَقْدِ الكَلام:

مِمّا أوقَعَهُم في الخَبْطِ، أَنّهُم حَكَمُوا في نَقْدِ الكلامِ، بِمُجَرَّدِ الرّأي والقِياسِ على لُغَتِهِم.

والألْسِنَةُ مُخْتَلِفَةٌ في أسالِيبِها، والعُقُولُ مُتَفاوِتَةٌ في الأقوامِ. فلا بُدَّ أنْ تَحْكُمَ في نَقْدِ كَلامِ قَوْمٍ، حَسْبَ قَواعِدِهِم.

وإِنِّي أرَى المَشاهِيرَ والأئِمَّةَ في البَلاغَةِ، أخْطَؤُوا في نَقْدِ الكلامِ خَطأً فاحِشاً.

مثلاً: قال قُدامَةَ[٣] (نقد الشعر ص٨٥) في نَقْدِ بَيْتٍ لِحارِثِ بْنِ حِلِّزَة:

والعَيْشُ خَيْرٌ في ظِلا لِ النَّوْكِ مِمَّنْ عاشَ كَدّا[٤]

---

(١) الألمعي: الحديد اللسان والقلب، وقد أبانه بقوله: الذي يظن لك الظن كأن قد رأى وقد سمعا.

انظر: ديوان أوس بن حُجْر، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم، ص٥٣، طبع دار صادر، ط٣، ١٩٧٩م.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) في الأصل: (أبو قدامة)، وكتاب (نقد الشعر) هو لقدامة بن جعفر بن قدامة، مشهور في تاريخ النقد العربي.

(٤) «النوك»: بضم النون وفتحها، الحمق، ومعنى «كداً»: مكدوداً متعوباً. انظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: ١/ ٣٠٨، للشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع مطبعة السعادة، ١٩٤٧م، مصر. وكتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر، ص٢١٧، بتحقيق كمال مصطفى.

يَقُولُ: إنَّ العَيْشَ النّاعِمَ في ظِلالِ النَّوْكِ، خَيرٌ مِن العَيشِ الشّاقِّ في ظِلالِ العَقْلِ، فأخَلَّ بِشيءٍ كَثِيرٍ.

وهذا عَيْنُ أُسـلُوبِ العَرَبِ، فإِنَّهُم يَحْذِفُونَ ما يَدُلُّ عليه المُقابِلُ، وذلك مَبْسُوطٌ في بابَ الحَذْفِ.

وفي البَيْتِ ـ عند غيرِ الماهِرِ ـ عَيْبٌ آخَرُ، وهو المُقابَلَةُ بين العَيْشِ، والَّذي يَعِيْشُ ولكِنَّهُ عامٌّ في كَلامِ العَرَبِ.

الفَواصِلُ والقَوافي:

هذا بابٌ آخَرُ، من مَحاسِنِ الكلامِ في نَغْمَتِهِ، وجَرَّدْتُهُ لاهْتِمامٍ خاصٍّ بِشأنِهِ.

فاعلمْ ـ هَداكَ الله وإيّايَ ـ أنَّ القافيةَ شَيءٌ طَرِبَتْ له العَرَبُ، ثُمَّ كانتْ تَلْتَذُّ بِمَحاسِنِها، وتَعُدُّها كالوشْيِ، والتَّنْمِيقِ ـ في الكلامِ حَتَّى إِنَّهُم أعْطَوا للشِّعْرِ اسْمَ القافيةِ، ووصَفُوا الشِّعرَ بِلَذَّةِ مَقاطِعِهِ، كما أَنَّهُم وصَفُوهُ بِجَوْدَةِ نَسْجِهِ.

أنْشَدَ الجاحِظُ (ص٩٠)[1]:

---

(١) الأبيات منسوبة لأبي شريح العمير في دلائل الإعجاز، ص٥١٣، بتحقيق الأستاذ محمود شاكر، نشر مكتبة الخانجي، وعلق الأستاذ محمود شاكر في الهامش على الأبيات فقال: لم أعرف «أبا شريح العمير»، وهو مجموعة المعاني: ١٧٨ لشاعر جاهلي، وفي البيان والتبيين: ١/ ٢٢٢، وديوان المعاني: ١/ ٨ غير منسوب، وانفرد صاحب حماسة الشجري بنسبته إلى ابن ميادة، وهذا خطأ أو سهو؛ لأنه فيما أرجح أخذه من البيان والتبيين، لأن الجاحظ عقد باباً فقال: «ووصفوا كلامهم في أشعارهم، فجعلوها كبُرود العصب، وكالحلل والمعاطف، والديباج والوشي، وأشباه ذلك. وأنشدني أبو الجماهر جندب بن مدرك الهلالي وذكر أبياتاً ثم قال: وأنشدني لابن ميادة:

نـعـم إنّـني مُهـدٍ ثنـاءً ومدحـةً كبُـرْد اليماني يُرْبِـحُ البيع تاجِرُه =

فـإنْ أَهْلِـكْ فَقَـد أبْـقَـيْـتُ بَعْدِي   قَـوافـي تُـعْـجِـبُ الْمُـتَـمَـثِّـلِـيْـنـا

لَـذِيْـذاتِ الـمَـقـاطِـعِ مُحْكماتٍ   لَـو انَّ الشِّـعْـرَ يُـلْبَـسُ لارْتُدِينا

ثُمَّ اعلَمْ أنَّ مَحاسِنَها عند العَرَبِ الأقحاحِ، ليس كما عند المُولَّدِينَ ـ مِن التَّجْنِيسِ وإلزامِ ما لا يَلْزَمُ، وجَعْلِها مَثْنَى، كالمَثْنَوِي عندهُم ـ. ولكِنَّ لها عندهُم أُصُولاً أُخَرُ.

فاعلمْ أنَّهُم:

ـ إمّا يَبنونَ الكَلامَ على نَوعٍ واحِدٍ مِن القافيةِ، كما تَجِدُ في قَصائِدِهِم.

ـ وإمّا يُؤَلِّفُونَ قَوافي شَتَّى ـ كما ترى في أَسْجاعِهِم ـ.

فالأمْرُ الَّذي يَعُمُّ كِلَيهِما، هو أنَّهُم يَسْتَحْسِنونَ لِلقافيةِ، ما كان سَهْلاً، غيرَ ضَئِيلٍ، أو جَزْلاً غيرَ ثَقِيلٍ. فإنَّ القافيةَ في كَلامِهِم، كالبُلْقِ، والخِلْسَةِ، تَنْتَبِهُ لها الأسْماعُ مِن الغَفْلَةِ، فلم يَصْغُرْ عندهُم قَدْرُها، ولذلك لا تَجِدُ في كَلامِ امْرِئِ القَيْسِ، وطَرَفَةَ قافيةً مِثْلَ: «زَيَّلَتْ»، و«شِتِّيت»، وفي كَلام غيرِهِما، لا تَجِدُ أمْثالَها إلّا قَليلاً.

فلا تَجِدُ القافيةَ المُسْتَهْجَنَةَ، في طِوالِ قَصائِدِهِم.

ومَدارُ الأمْرِ في ذلك، على سُهُولَةِ التَّنَفُّسِ، مع فَخامَةِ ما في صَوْتِ الحَرْفِ.

فتَراهُمْ اختارُوا المَدَّةَ والهاءَ لِرَوِيِّهِم:

أمّا المَدَّةُ، فكَثِيرٌ.

= وأنشد، ثم ذكر البيتين، فاختلط الأمر على الشجري في نقله إلى حماسته، فنسبه لابن ميادة. وهذا شعر فاخر.

وأمّا الهاءُ، فليستْ بِنادِرَةٍ مِثْلُ:

«طارِقَه»، «يَشِمُه»، «في شَرَرِه».

ثُمَّ بعد ذلك: السّاكِنُ بعد المُتَحَرِّكِ، كما قال المُرَقِّش:

.... رَقَّشَ في ظَهْرِ الأدِيمِ قَلَم

فهذه ثَلاثَةُ أقْسامٍ:

الأوَّلُ، والثّانِي: سَوِيَّانِ في الشِّعْرِ، وغيرِ الشِّعْرِ.

والثّالِثُ: أكثرُ في غيرِ الشِّعْرِ، منه في الشِّعْرِ.

ثُمَّ القِسْمُ الرّابِعُ: هو السّاكِنُ بعد المَدَّةِ، فهو نادِرٌ في الشِّعْرِ، وكثيرٌ في غيرِ الشِّعْرِ ومُسْتَحْسَنٌ، مِثْلُ: «وان»، «عين»، «روح».

ثُمَّ واحِدٌ يُخصُّ بِالشِّعْرِ، وواحِدٌ خاصٌّ بِالمَنْثُورِ.

فالخاصُّ بِالشِّعْرِ ما فيه إشْباعُ الرَّوِي.

وأمّا الخاصُّ بِغيرِ الشِّعْرِ، فالسّاكِنُ بعد السّاكِنِ غيرِ المَدَّةِ، مِثْلُ:

﴿وَٱلْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر: ١-٣].

فهذه سِتَّةُ أقْسامٍ عامَّةٍ. تَعُمُّ الحُسْنَ والرَّوِيَ إذا أخَذْتَها مُنْفَرِدَةً.

ثُمَّ إذا رُكِّبَتْ القَوافي، فلا تَنَوُّعَ فيها في الأشْعارِ، غيرَ اخْتِلافِ الياءِ والواوِ لِمَدَّتَيْنِ، ولا نَعْبأُ بِما نَدَرَ مِن اخْتِلافِ المِيمِ والنونِ.

فأمّا في النَّثْرِ فلَها تَنَوُّعٌ، وله أُصُولٌ نَذْكُرُها:

(١) لِحاظٌ في اخْتِيارِ الياءِ والواوِ؛ لِيَكُونَ على تَرْتِيبٍ حَسَنٍ، غيرِ جامِدٍ

على التَّكْرارِ المُقَرَّرِ، فيأتِيكَ نَوْعٌ بعد نَوْعٍ جَدِيداً، ولم تَنتَظِرْ لهُ.

(٢) تَركِيبُ المِيْمِ مع النُّونِ حَسْبَ ما مَرَّ.

(٣) تَركِيبٌ بين حُرُوفٍ مُخْتَلِفَةٍ، وتَخلِيطُها، واشتِباكُها، حَسْبَ ما مَرَّ.

(٤) تبديلُ آخِرِ الرَّوِيِّ مع اتحادِ الحَرْفِ أو الحَرَكَةِ قَبْلَهُ.

مثلاً: جَمْعُ «صَيْفٍ» مع «بَيْتٍ» و«خَوْفٍ» حَسْبَ ما مَرَّ.

(٥) تَبْدِيلُ القافيةِ في انتِهاءِ الجُمْلَةِ، وهذا أعْونُ على الإِخْبارِ بِخَتْمِ الكَلامِ، وكُلُّ مُتَكَلِّمٍ يُغَيِّرُ صَوْتَهُ عندما يَنتَهِي، كأنَّ ذلك أمْرٌ فِطْرِيٌّ.

* * *

الفهارس الفنية

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث النبوية.
- فهرس الأبيات الشعرية.
- فهرس الأعلام.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس مباحث الكتاب.



فهرس الآيات القرآنية

الآيـة	رقمها	الصفحة
سورة البقرة		
﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٢٦-٢٧	٩١، ٩٢
سورة آل عمران		
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾	٧	١١١
سورة النساء		
﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾	٢٣	١٧٢، ١٧٣

الآيـة	رقمها	الصفحة
﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾	٦٣	٧٩، ٩٧
﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾	٨٠	٢٠٥
سورة الأنعام		
﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾	١٠٠	١٩٧، ١٩٨
﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾	١٤٩	٧٩
سورة الأنفال		
﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾	٦٣	٣٠
سورة هود		
﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾	١	١٦٨
﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾	٩	١١١
﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾	٣٨	٢٠٢
﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾	٤٢	١٨٠
﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾	٤٢	١٨٠
﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾	٤٢	١٨٠
﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾	٤٢	١٨٠، ٢٠٢
﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾	٤٣	١٨٠

الآيـة	رقمها	الصفحة
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ * قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾	٤٧-٤٨	١٧٩
﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾	٤٨	١٨٧
﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾	٥٦	١٨٣
سورة الرعد		
﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾	١٣	١٨٧
سورة إبراهيم		
﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾	٤	٩٤
﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾	٢٦	١٥١
سورة الحجر		
﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾	٩	٥
سورة النحل		
﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾	١٢٥	٩٧
سورة الإسراء		
﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾	٨٨	٥

الآيـة	رقمها	الصفحة
سورة طه		
﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾	٤٤	٩٦
سورة الأنبياء		
﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	١٠	٣٨
سورة النور		
﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾	٣٥	١٨٢
سورة الفرقان		
﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾	٦٣	١٩٩
سورة الشعراء		
﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾	٢٢٤	٧٢
سورة سبأ		
﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ * لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾	٣-٥	١٨٨
﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾	٥١-٥٢	١٦٢

الآيـة	رقمها	الصفحة
سورة يس		
﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ * ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾	٢٠، ٢١، ٢٢	١٧٥، ١٨٢، ١٨٨
﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾	٢٣-٢٤	١٧٥
﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾	٢٥	١٧٥
﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾	٢٦، ٢٧	١٧٦
﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾	٢٥	١٧٦
﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ * وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	٤٩-٥٤	٢٠١
﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾	٥١	٢٠٢
﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾	٥٣	٢٠٢
سورة الصافات		
﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾	١٠٣-١٠٤	١٨١

الآيـة	رقمها	الصفحة
سورة ص		
﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾	٢٤-٢٥	١٧٩، ٢٠٣
﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾	٢٤	١٩٨
﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾	٢٦	٢٠٣
سورة فصلت		
﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾	٥٣	٥
سورة الزخرف		
﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾	٤٤	٣٨
سورة الأحقاف		
﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾	٢١	١٩٧
﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	٢٤	١٨٦
﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾	٢٤	٢٠٢، ٢٠٣
سورة القمر		
﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾	٤٨	١١١

الآيـة	رقمها	الصفحة
سورة الجن		
﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾	١-٢	٥
سورة النازعات		
﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ * فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾	١٦-٢٦	١٧٠
سورة الغاشية		
﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾	١٧-٢٠	١٩٠
سورة الفجر		
﴿وَٱلْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾	١-٣	٢١٩
سورة العاديات		
﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾	١-٥	١٧٨
سورة القدر		
﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾	٥	١٨٦

* * *



فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث	رقم الصفحة
إنه يخاف عليهم كثرة المال..	٣٢
يقلون عند الطمع، ويكثرون عند الفزع	١٦١
إذا قامَ خَطِيباً، كانتْ تَحْمَرُّ عَيْنَاهُ..	٢٠٧

* * *



فهرس الأبيات الشعرية

بيت الشعر	الشّاعر	رقم الصفحة
فـآضَ كـأَنَّـهُ رَجْـلٌ سَـلِـيـبٌ عـلـى عَـلْـيـاءَ لـيـس لَـهُ رِداءُ	زهير	١٢٨
طَـعَـنْـتُ ابْـنَ عَبْـدِ القَيْـسِ طَعْنَـةَ ثائِـرٍ لَـهـا نَـفَـذٌ لَـوْلاَ الشُّـعـاعُ أَضـاءَهـا	قيس بن الخطيم	١٢٣
مَـلَـكْـتُ بِـهـا كَـفِّـي فـأَنْهَـرْتُ فَتْقَـهـا يَـرَى قـائِـمٌ مِـنْ دُونِـهـا مـا وراءَهـا		
ثـأَرْتُ عَـدِيّـا والخَـطِـيْـمَ فـلـم أُضِـعْ وِلاَيَـةَ أَشْـيـاخٍ جُـعِـلْـتُ إِزاءَهـا		
إذا مـا جَـرَى شـأْوَيْنِ وابْتَـلَّ عِطْفُـهُ تَـقُـولُ هَـزِيْـزُ الـرِّيـحِ مَـرَّتْ بـأَ ثْـأَبِ	امرؤ القيس	١٣٩
إِذا غَـضِـبَـتْ عَـلَـيْـكَ بَـنـو تَـمِـيْـمٍ وجَـدْتَ الـنّـاسَ كُـلَّـهُـمُ غِـضـابـا	جرير	١٦٧
فـإِذا مـا مَـرَرْتَ فـي مُـسْـبَـطِـرٍ فاجْمَـحِ الخَيْـلَ مِثْـلَ جَمْـحِ الكِعـابِ	حاتم الطائي	١٤٩
فـبـيـنـا نِـعـاجٌ يَـرْتَـعِـيـنَ خَـمِـيـلَـةً كَمَشْـيِ العَـذارَى فـي المُـلاَءِ المُهَـذَّبِ	امرؤ القيس	١٥٠
ولَـسْـتَ بِـمُـسْـتَـبْـقٍ أَخـاً لاَ تَـلُـمُّـهُ عـلـى شَـعَـثٍ أَيُّ الـرِّجـالِ الـمُـهَـذَّبُ	النابغة الذبياني	١٩٤

بيت الشعر	الشَّاعر	رقم الصفحة
غـادَرْنَ نَـضْـلَـةَ فـي مَـعْـرِكٍ يَـجُـرُّ الأَسِـنَّـةَ كـالـمُـحْـتَـطِـبْ	عنترة	١٤١
يظـلُّ بـهـا رُبْـدُ الـنَّـعـامِ كـأنَّها إِمـاءٌ تُـزَجّـى بِـالـعَـشِـيِّ حَـواطِـبُ	الأصمعي	١٤١
كـأنَّ مُـثـارَ الـنَّـقْـعِ فـوق رؤوسنا وأَسْـيـافَـنـا لَـيْـلٌ تـهـاوى كَـواكِـبُـهْ	بشار بن برد	١٠٩
كَـتـائِـبُ تُـزْجَـى فـوق كُـلِّ كَـتِـيْـبَـةٍ لِـواءٌ كَـظِـلِّ الـطّـائِـرِ الـمُـتَـقَـلِّـبِ	عنترة	١٤٢
فـقـلـت لِـفِـتْـيـانٍ كِـرامٍ أَلا انْـزِلُـوا فَـعـالـوا عَـلـيـنـا فَـضْـلَ ثَـوبٍ مُـطَـنَّـبِ	امرؤ القيس	١١٧
وأوتـادُهُ مـاذِيَّـةٌ وعِـمـادُهُ رُدَيْـنِـيَّـةٌ فـيـهـا أَسِـنَّـةُ قَـعْـضَـبِ		
وأَطْـنـابُـهُ أَشْـطـانُ خُـوصٍ نَـجائِـبِ وصَـهْـوَتُـهُ مِـنْ أَتْـحَـمِـيٍّ مُـشَـرْعَـبِ		١١٨
فَـلَـمّـا دَخَـلْـنـاهُ أَضَـفْـنـا ظُـهُـورَنـا إلـى كُـلِّ حـارِيٍّ جَـدِيْـدٍ مُـشَـطَّـبِ		
نَـمُـشُّ بِـأَعْـرافِ الـجِـيـادِ أَكُـفَّـنـا إذا نَـحْـنُ قُـمْـنـا عَـنْ شِـواءٍ مُـضَـهَّـبِ		
حَـلَـفْـتُ فَـلـم أَتْـرُكْ لِـنَـفْـسِـكَ رِيْـبَـةً ولـيـس وراءَ الله لِـلـمَـرْءِ مَـذْهَـبُ	النابغة الذبياني	١٩٤
كـأنَّ قُـتُـودِي فَـوْقَـهـا عُـشُّ طـائِـرٍ عـلـى لِـيـنَـةٍ سَـوْقاءَ تَـهْـفُـو جُـنوبُـها	ذو الرمة	١٣٥

بيت الشعر	الشَّاعر	رقم الصفحة
يـا لَـهْـفَ زَيّابَـةَ لِلحـارِثِ الـ صّـابِـحِ فـالـغـانِـمِ فـالآئِـبِ	زيابة الحماسي	١٧٨
ولاَ عَـيْـبَ فـيهـم غَـيْـرَ أَنَّ سُيوفَهُمْ بِـهِـنَّ فُـلُـولٌ مِـنْ قِـراعِ الـكَـتائِـبِ	النابغة الذبياني	١٩١
غَـشِـيْـتُ دِيـارَ الـحَـيِّ بِالْبَكَراتِ فَـعـارِمَـةٍ فَـبُـرْقَـةِ الـعِـيَـراتِ	امرؤ القيس	١٢٤
فَـغَـوْلٍ فَـحِـلِّـيتٍ فأكناف فَمَنْعِجٍ إلـى عـاقِـلٍ والحـب ذو الأَمَـراتِ		
ظَـلِـلْـتُ رِدائِـي فـوق رأسِـي قاعِـداً أَعُـدُّ الـحَـصَـى ما تَنْقَضِي عَبَراتِي		
أُقْـسِـمُ بِـاللهِ وآيـاتِـهِ ومَـشْـعَـرِ الـحَـجِّ ومِـيْـقـاتِـهِ	الزمخشري	١٧٢
أَنَّ الـحَـرِيْـرِيَّ حَـرِيٌّ بِـأَنْ نَـكْـتُـبَ بِـالـتِّـبْـرِ مَـقاماتِـهِ		
وكُـنْـتُ لَـهُ عَـمّـا لَطِـيْـفاً ووالِـداً رَؤُوفـاً وأُمّـا مَـهَّـدَتْ وأنـامَـتِ	قُراد بنُ غوية	١٦٥
كـأنَّ الـظُّـعْـنَ حِـيـنَ طَفَـوْنَ ظُهْـراً سَـفِـيـنُ الـبـحـر يـمـنـا الـقَـراحا	النابغة الذبياني	١٣٢
وكـأنَّ الـبَـرقَ مُـصـحَـف قـارٍ فَـانـطـبـاقـاً مَـرَّةً وانـفـتـاحـا	ابن المعتز	٤٩
كـأنَّ الـقَـلْـبَ لَـيْـلَـةَ قِـيلَ يُغْدى بِـلَـيْـلَـى الـعـامِـرِيّـةِ أو يُـراحُ	نصيب	١٤٤

رقم الصفحة	الشَّاعر	بيت الشعر
١٤٤		قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فَباتَتْ تُجاذِبُهُ وقَدْ عَلِقَ الجَناحُ
		لَها فَرْخانِ قَدْ تُرِكا بِوَكْرٍ فعُشُهُما تُصَفِّقُهُ الرِّياحُ
		إذا سَمِعا هُبَوبَ الرِّيحِ نَصّا وقَدْ أودَى بِهِ القَدَرُ المُتاحُ
		فلا في اللَّيْلِ نالَتْ ما تُرَجِّي ولاَ في الصُّبْحِ كان لَها بَراحُ
١٣٣	عنترة العبسي	إذا ما مَشَوْا في السّابِغاتِ حَسِبْتَهُمْ سُيولاً وقَدْ جاشَتْ بِهِنَّ الأَباطِحُ
		فأُشْرِعَ راياتٌ وتَحْتَ ظِلالِها مِنَ القَوْمِ أَبْناءُ الحُرُوبِ المَراجِحُ
		ودُرْنا كما دارَتْ على قَطْبِها الرَّحَى ودارَتْ على هامِ الرِّجالِ الصَّفائِحُ
		بِهاجِرَةٍ حَتَّى تَغَيَّبَ نورُها وأَقْبَلَ لَيْلٌ يَقْبِضُ الطَّرْفَ سائِحُ
		تَداعَى بَنو عَبْسٍ بِكُلِّ مُهَنَّدٍ حُسامٍ يُزِيْلُ الهامَ والصَّفُّ جانِحُ
١٣٤		وكُلِّ رُدَيْنِيٍّ كأَنَّ سِنانَهُ شِهابٌ بَدا في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ واضِحُ
		تَرَكْنا ضِراراً بينَ عانٍ مُكَبَّلٍ وبينَ قَتِيْلٍ غابَ عَنْهُ النَّوائِحُ

بيت الشعر	الشّاعر	رقم الصفحة
وعَمْـرواً وحَيّـاناً تَـرَكْـنـا بِقَفْرَةٍ تَـعُـودُهُـما فيـهـا الظباء الكَوالِـحُ		١٣٤
يُـجَـرِّرْنَ هـامـاً فَـلَّقْـتـهـا رماحنـا تَـزَيَّـلَ مِـنُـهـنَّ اللَّـحَـى والـمَـسائِـحُ		
فَـمـالَـتْ بِـي الأَهْـواءُ حَـتَّـى كـأَنَّـما بزَنْدَيْـنِ فـي جوفـي مِـنَ الوجْـدِ قـادِحُ	عنترة	١٤٢
يَـقُولُـونَ حِصْـنٌ ثُـمَّ تأْبَـى نُفُوسُـهُمْ وكَـيْـفَ بِـحِصْـنٍ والـجِبالُ جُـنوحُ	النابغة الذبياني	١٨٦
ويَـبْـقَـى بـعـد حِـلْـمِ الـقَـوم حِلْمِي ويَـفْـنَـى قَـبْـلَ زادِ الـقَـومِ زادِي	دريد بن الصمة	١٦٠
وفـي الخُـدُورِ غَـمامـاتٌ بَـرَقْـنَ لَنـا حَـتَّـى تَـصَـيَّـدْنَنـا مِـنْ كُـلِّ مُصْطـادِ	القطامي	١٠٨
فَـهُـنَّ يَـنْـبِـذْنَ مِـنْ قَـوْلٍ يُصِبْـنَ بِـهِ مَـواقِـعَ المـاءِ مِـنْ ذِي الغُلَّـةِ الصّـادِي		
فَـمـا الْـفُـراتُ إذا هَـبَّ الـرِّيـاحُ لَـهُ تَـرمِـي أَواذِيُّـهُ الـعِـبـرَيْـنِ بِـالـزَّبَـدِ	النابغة الذبياني	١٩٦
وإِنِّـي لَـعَـبْـدُ الـضَّـيْـفِ مـا دامَ ثـاوِيـاً ومـا فـي إلاَّ تِـلْـكَ مِـنْ شِـيْـمَـةِ العَـبْـدِ	حاتم الطائي	١٦٠
لَـوْ أنَّهـا عَـرَضَـتْ لأَشْـمَـطَ راهِـبٍ يـدعـو الإِلَـهَ صَـرُورَةٍ مُـتَـعَـبِّـدِ	النابغة الذبياني	١٩٥
أَقـولُ لـلـنَّـفْـسِ تـأْسـاءً وتَـعْـزِيَـةً إِحْـدَى يَـدَيَّ أَصـابَـتْـنِـي ولـم تُـرِدِ	أعرابي	١٣٦

بيت الشعر	الشَّاعر	رقم الصفحة
كِلاهُـمـا خَـلَـفٌ مِنْ فَقْدِ صاحِبِهِ هـذا أَخِـي حِيْنَ أَدْعُوهُ وذا ولَـدِي		١٣٦
لَصَبا لِبَهْجَتِها وطِيْبِ حَدِيْثِها ولَخالَهُ رَشَداً وإنْ لم يَرْشُدِ	النابغة الذبياني	١٩٥
يَمُدُّهُ كُلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ فيهِ حُطامٌ مِن اليَنْبُوتِ والخَضَدِ		١٩٦
يَظَلُّ مِن خَوفِهِ المَلاحُ مُعْتَصِماً بِالخَيْزُرانَةِ بعد الأَيْنِ والنَّجَدِ		
يَوْماً بِأَجْودَ منه سَيْبَ نافِلَةٍ ولاَ يَحولُ عَطاءُ اليَومِ دُوْنَ غَدِ		
والعَيْشُ خَيْرٌ في ظِـ لِ النَّوْكِ مِمَّنْ عاشَ كَدّا	الحارث بن حلزة	٢١٦
وكأنَّ مُحمرَّ الشقيـ ـقِ إذا تصوَّبَ أو تصعَّدْ	الصنوبري	٤٩
أعلامُ ياقوتٍ نُشِرْ نَ على رِماحٍ من زَبَرْجَدْ		
مَنْ مُبْلِغٌ عَمْرو بْنَ هِنْدٍ آيَةً ومِنَ النَّصِيْحَةِ كَثْرَةُ الإِنْذارِ	النابغة الذبياني	١٩٥
كأَنَّ عَيني لِذِكْراهُ إذا خَطَرَت فَيْضٌ يَسِيْلُ على الخَدَّيْنِ مِدرارُ	الخنساء	١٣٨
أُنْبِئْتُ نُعْماً على الهِجْرانِ عاتِبَةً سَقْياً ورَعْياً لِذاكَ العاتِبِ الزّارِي	النابغة الذبياني	١٩٢

بيت الشعر	الشَّاعر	رقم الصفحة
انْقَضَّ كالكَوْكَبِ الدّرّيّ مُنْصَلِتاً يَـهْـوِى ويَخْلِطُ تَـقْرِيْبا بِإحْضارِ		١٣٢
وسَـيْـفـي كـالعَقِيقَـةِ وهـو كِمْعي سِـــلاَحِي لاَ أَفَـــلَّ ولاَ فُـــطَـــارا	عنترة العبسي	١٣٤
وكالـورَقِ الخِـفـافِ وذاتُ غَـرْبٍ تَـــرَى فـيـهـا عَـنِ الشِّـرْعِ ازْوِرارا		١٣٥
أَهْـوى لَـهُ قانِـصٌ يَـسْـعَى بِأَكْلُبِـهِ عـــارِي الأَشـاجعِ مِـنْ قُنّاصِ أَنْمـارِ	النابغة الذبياني	١٢٩
مُـحالِفُ الصَّـيْـدِ تَـبّـاعٌ لَـهُ لَحِـمٌ مـــا إِنْ عـلـيـه ثِيابٌ غَيْـرُ أَطْمـارِ		
ولَـسْــتُ بِخالِـعٍ دِرْعِـي وسَـيْفِي إلـى أَنْ يَـخْـلَـعَ اللَّـيْـلَ النَّـهـارُ	المهلهل	١٤٥
إنَّ الحُمُـولَ التـي رَاحَـتْ مُهَجِّـرَةً يَـتْـبَـعْـنَ كُلَّ سَـفيهِ الـرّأيِ مِغْيـارِ	النابغة الذبياني	١٩٣
قَـذاهـا أَنَّ صـاحِـبَـهـا بَـخِـيْـلٌ يُـحـاسِــبُ نَـفْـسَـهُ بِكَـمِ اشْـتَراهـا		١٢٨
رُبَّ رامٍ مِـــنْ بَـــنِـــي ثُـــعَـــلٍ مُـتْـلِـجٍ كَـفَّـيْـــهِ مـــن قُـتَـــرِهْ	امرؤ القيس	١١٨
عـــارِضٍ زَوْراءَ مِـــنْ نَـــشَـــمٍ غَـيْــــرِ بـانـاةٍ عـلـى وَتَـــرِهْ		١١٩
قَـــدْ أَتَـتْــهُ الـوحْـشُ وارِدَةً فَـتَـنَـحَّـى الـنَّـزْعُ فـــي يَـسَـرِهْ		

بيت الشعر	الشَّاعر	رقم الصفحة
فَـرَمـاَهـا فـي فَـرائِـصِـهـا بِـإِزاءِ الـحَـوْضِ أو عُـقُـرِهْ		١٢٠
بِـرَهِـيْـشٍ مِـنْ كِـنـانَـتِـهِ كَـتَـلَـظِّـي الـجَـمْـرِ فـي شَـرَرِهْ		
راشَـهُ مِـنْ رِيـشِ نـاهِـضَـةٍ ثُـمَّ أَمْـهـاهُ عـلـى حَـجَـرِهْ		
فَـهْـو لاَ تَـنْـمِـي رَمِيَّتُـهُ مـالَـهُ لاَ عُـدَّ مِـنْ نَـفَـرِهْ		
مُـطْـعَـمٌ لِلصَّـيْـدِ لـيـس لَـهُ غَـيْـرَهـا كَـسْـبٌ عـلـى كِـبَـرِهْ		
لاَ يَـبْـعَـدَنْ قَـوْمِـي الَّـذيـنَ هُـمُ سُـمُّ الـعُـداةِ وآفَـةُ الـجُـزْرِ	الخرنق	٧٦
الـنَّـازِلُـونَ بِـكُـلِّ مُـعْـتَـرَكٍ والـطَّـيِّـبُـونَ مَـعـاقِـدَ الأُزْرِ		
إِنْ يَـشْـرَبُـوا يَـهَـبُـوا وإِنْ يَـذرُوا يَـتَـواعَـظُـوا عَـنْ مَـنْـطِـقِ الهُجْرِ		
قَـوْمٌ إذا رَكِـبُـوا سَـمِـعْـتَ لَهُـمْ لَـغَـطـاً مِـنَ الـتَّـأْيِـيـهِ والـزَّجْـرِ		
مِـنْ غَـيْـرِ مـا فُـحْـشٍ يَـكُـونُ بِـهِـمْ فـي مُـنْـتَـجِ الـمُـهُـراتِ والـمُـهُـرِ		
كُـنّـا كَـغُـصْـنَـيْـنِ فـي جُـرْثُـومَـةٍ بَسَقا حِيْنـاً على خيرِ ماتنمى لها الشَّـجَرُ	صفية بنت عمرو	١٣٩

بيت الشعر	الشَّاعر	رقم الصفحة
حَتَّى إذا قِيْلَ قَـدْ طالَـتْ فُرُوعُهُمـا وطـابَ غرسـهما واسـتوثق الثَّمَـرُ		١٣٩
أَخْنَى علـى واحِـدٍ رَيْـبُ الزَّمـانِ وما يُبْقِـى الزَّمـانُ علـى شَـيْءٍ ولا يَـذَرُ		
كُـنّا كـأنْجُـم لَـيْـلٍ بـينهـا قَـمَـرٌ يَجْلُـو الدُّجَـى فَهْـوى مِـنْ بَيْنِنـا القَمَرُ		
فـكَـرَّ إلـيـه بِـمِـبْـراتِـهِ كـمـا خَـلَّ ظَهْـرَ اللِّسـانِ المُجِرّْ	امرؤ القيس	١٧٧
لـهـا وثـبـات كـوثـب الـظـبـاء فـواد خـطـاء وواد مـطـر		٣٣
أمـاوِيّ! مـا يُغْنِـي الثَّـراءُ عَـن الفَتَـى إذا حَشْـرَجَتْ نَفْسٌ وضاقَ بِها الصَّدْرُ	حاتم الطائي	١٢٢
إذا أَنـا دَلاَّنِـي الَّـذيـنَ أُحِبُّـهُـم لِـمَلْحُـودَةٍ زَلْـجٍ جَـوانِبُـها غُبْـرُ		
وراحُـوا عِجـالاً يَنْفُضُـونَ أَكُفَّهُـمْ يَقُولُـونَ قَـدْ دَمَّـى أَنامِلَنـا الحَفْـرُ		
تَـرَيْ أَنَّ مـا أَهْلَكْـتُ لـم يَـكُ ضَرَّنـي وأَنَّ يَـدي مِمّـا بَخِلْـتُ بـهِ صِفْـرُ		
وإِنّـي لَيَغْشَـى أَبْعَـدُ الحَـيّ جَفْنَتِـي إذا ورَقُ الطَّلْـحِ الطّـوالِ تَحَسَّـرا		١٢٥
فَقِدْمـاً عَصَيْـتُ العـاذِلاَتِ وسُـلِّطَتْ علـى مُصْطَفَـى مالـي أنامِلـي العَشْـرُ		١٢٢

بيت الشعر	الشَّاعر	رقم الصفحة
وتَخالُ ما جَمَعَتْ عليه ثِيابَها ذَهَباً وعِطْراً	بشار بن برد	١١٠
وكأنَّ تَحْتَ لِسانِها هارُوتَ يَنْفُثُ فيهِ سِحْرا		
ونَشْرَبُ حَتَّى نَحْسِبَ الخَيْلَ حَوْلَنا نِقاداً وحَتَّى نَحْسِبَ الجَوْنَ أَشْقَرا	امرؤ القيس	١٢١
لها مَتْنَتانِ خَظاتا كما أَكَبَّ على ساعِدَيْهِ النَّمِرْ		١٢٨
يَسْعَى بِغُضْفٍ بَراها فَهِي طاوِيَةٌ طُولُ ارْتِحالٍ بِها منه وتَسْيارِ	النابغة الذبياني	١٢٩
حَتَّى إذا الثَّوْرُ بعد النَّفْرِ أَمْكَنَهُ أَشْلَى وأَرْسَلَ غضفا كُلُّها ضارِي		
وكأنَّ رَفْضَ حَدِيْثِها قِطَعُ الرِّياضِ كُسِينَ زَهْرا	بشار بن برد	١٠٩
وما تَشْتَكِيني جارَتي غَيْرَ أنني إذا غابَ عَنْها زَوْجُها لاَ أَزُورُها	حاتم الطائي	١٩١
وغَمْرَةِ مَوْتٍ ليس فيها هَوادَةٌ يَكُونُ صُدورَ المَشرِفي جسُورُها		١٤٠
كأنَّ عَيْنِيَّ لَمّا أَنْ ذَكَرْتُهُمُ غُصنٌ بَراحٌ منَ الطَّرْفاءِ مَمْطُورُ	فاطمة بنت الأحجم	١٣٦
ذاكَ وقِدْماً يُعْجِلُ البازِلَ الـ ـكَوماءِ بِالمَوتِ كَشِبْهِ الحَصِيرْ	الخرنق	١٣٨

بيت الشعر	الشَّاعر	رقم الصفحة
فـإمّـا تـرَيْـنِـي لاَ أُغَـمِّـضُ سـاعَةً مِـنَ اللَّيْـلِ إلاَّ أَنْ أُكِـبَّ فأَنْـعَسـا	امرؤ القيس	١٢٤
فَيـا رُبَّ مَـكْـرُوبٍ كَـرَرْتُ وراءَهُ وطاعَنْـتُ عَنْـهُ الخَيْـلَ حَتَّـى تَنَفَّسـا		١٢٥
ويـا رُبَّ يَـوْمٍ قَـدْ أَرُوحُ مُـرَجَّـلاً حَبِيْبـاً إلـى بيْـض الكَواعِـبِ أَمْلَسـا		
ومـا خِفْـتُ تَبْرِيـحَ الحَيـاةِ كمـا أَرَى تَضِيـقُ ذِراعِـي أَنْ أَقُـومَ فأَلْبَسـا		
تَبِيْتُـونَ فـي المَشْـتَى مِـلاءً بُطُونِكُـم وجاراتُكُـم غَرْثَـى يَبِتْـنَ خمائِصـا	الأعشى	٢١٣
كأنَّ الفَتَـى لـم يَغْـنَ فـي النّاسِ سـاعَةً إذا اخْتَلَـفَ اللَّحْيـانِ عنـد الجَرِيـضِ	امرؤ القيس	١٢١
الألْمَعِـيَّ الَّـذي يَظُـنُّ بِـكَ الظَّـ ـنَّ كـأَنْ قَـدْ رأى وقَـدْ سَـمِعا	أوس بن حجر	٢١٦
ونَضْنَـضَ فـي حِضْنَـي سَمَائِكَ بـارِقٌ لـه جِـذْوَةٌ مـن زِبْـرِجِ الـلاَّذِ لامِعَـهْ	ابن بابك	٤٩
تَعـوَّجُ فـي أعلـى الســحابِ كأنَّهـا بَنَـانُ يـدٍ مـن كِـلَّـةِ الـلاَّذِ ضـارِعَـهْ		
وإنَّ أَحْسَــنَ بَـيْـتٍ أَنْـتَ قائِلُـهُ بَـيْـتٌ يُـقـالُ إذا أَنْـشَـدْتَهُ صَدَقـا	طرفة بن العبد	٧٩
.... زهــراء نـيــرة كالنجـم فـي الأفـق	الفيض	١١٦

بيت الشعر	الشَّاعر	رقم الصفحة
أرِقْـتَ أمْ نِمْـتَ لـضـوءِ بـارقِ مُؤْتَـلِقـاً مِـثْـلَ الـفُـؤادِ الـخَافـقِ كـأنَّـه إصبـعُ كـفّ السَّـارقِ	كشاجم	٤٨
كأنَّـكَ عنـد الطَّعْنِ فـي حَوْمَـةِ الوغَى تَفِـرُّ مِـن الصَّـفِّ الَّـذي مِـنْ ورائِـكَا	بكر بن النطاح	٢١٥
بشَـكـلٍ يـأخُـذُ الـحَـرْفَ المحَلَّى كـأن سُـطورَهُ أغـصـانُ شَـوكِ	ابن المعتز	٤٩
فَـقُـلْـتُ يَـمِـيـنَ الله أَبْـرَحُ قـاعِـداً ولَـوْ قَطَّعُـوا رأْسِـي لَدَيْـكِ وأوصالـي	امرؤ القيس	١٩٤
يُـهَزْهِـزُونَ مِـنَ الخَطِّـيِّ مُـدْمَجَـةً كُـمْـتـاً أَنـابِـيْـبُـهـا زُرْقـاً عَوالِيْـهـا	المهلهل	١٥٨
وليـس أَخُـوْكَ الدّائِـمُ العَهْـدِ بالَّـذي يَـذُمُّـكَ إنْ وَلَّـى وَيُرضِيـكَ مُقْبِلاَ	أوس بن حجر	١٦٢
عَبَـأتَ لَـهُ حِلْمـاً وأكْرَمْـتَ غَيْـرَهُ وأَعْرَضْـتَ عَنْـهُ وَهـو بـادٍ مَقاتِلُـهُ	زهير بن أبي سلمى	٧٤
يَظَـلُّ الـعـذارَى يرْتَمِيـن بلَحْمِهـا وَشَـحْـمٍ كَهُـدّابِ الدِّمَقْـسِ المُفَتَّـلِ	امرؤ القيس	١٤٩
الـقـائِـلُ الـقَـوْلَ الَّـذي مِـثْـلُـهُ يَـمْـرَعُ منـه الـبَـلَـدُ الـمـاحِـلُ	عبيد بن الأبرص	٧٨
يـابِـسُ الجَنْـبَـيْـنْ مِـنْ غَيْـرِ بُـؤسٍ ونَـدِي الـكَـفَّـيْـنِ شَـهْـمٌ مُـدِلُّ	تأبط شراً	١٦١

بيت الشعر	الشَّاعر	رقم الصفحة
ولكنه النّائي إذا كنت آمِناً وصاحِبُكَ الأَدْنى إذا الأَمْرُ أَعْضَلاَ	أوس بن حُجْر	١٦٢
وَذِيْ نِعْمَةٍ تَمَّمْتَها وَشَكَرْتَها وَخَصْمٍ يَكادُ يَغْلِبُ الحَقَّ باطِلُه	زهير بن أبي سلمى	٧٤
دَفَعْتَ بِمَعْرُوفٍ مِن القَوْلِ صائِبٍ إذا ما أَضَلَّ النّاطِقِينَ مَفاصِلُهْ		
وَذِي خَطَلٍ في القَوْلِ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُصِيْبٌ فَما يُلْمِمْ بِهِ فَهو قائِلُهُ		
والشَّمْسُ كالمِرْآة في كَفِّ الأَشَلّ	جبار بن جَزْء ابن ضرار	٤٨
غُلْبٌ تَشَذَّرُ بِالذُّحُولِ كأنَّها جِنُّ البَدِيِّ رَواسِياً أَقْدامُها	لبيد	١٥١
وَجَلا السُّيولُ عَنِ الطُّلولِ كأنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أَقْلامُها		٢١٤
يَعْلُو طَرِيْقَةَ مَتْنِها مُتَواتِرٌ في لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمامُها		
فَجاؤُوا عارِضاً بَرِداً وَجِئْنا كَهَيْجِ الرِّيْحِ تَقْذِفُ بِالغَمام	معقل بن خويلد	١٤٦
وَبِكْرٍ كَنُوّارِ الرِّياضِ حَدِيْثُها تَرُوقُ بِوَجْهٍ واضِحٍ وقَوام	بشار بن برد	١١٠
على راحَتَيْنِ مَرَّةً وَعلى العَصا أَنُوءُ ثَلاثاً بعدهُنَّ قِيامي	عمرو بن قميئة الذبياني	١٣٠

بيت الشعر	الشَّاعر	رقم الصفحة
مُـوَلَّـىَ الـرِّيْـحِ رَوْقَـيْـهِ وجَـبْـهَـتَـهُ كالهِبْرِقـيِّ تَـنَـحَّـى يَنْفُـخُ الفَحَـمـا	النابغة الذبياني	١٤٠
تَـحِـيـدُ مـن أَسْـتَـنٍ سُـودٍ أُسـافِلُهُ مَشْـيَ الإِماءِ الغَـوادِي تَحْمِـلُ الحُزَما		
ولمّـا اكْفَهَـرَّتْ مِـنْ عليهـم سَـحابَةٌ إذا بَرَقَـتْ بِالمَـوْتِ أَمْطَـرَتِ الدَّمـا	أم صريح	١٣٨
كَـسُـطُـورِ الـرِّقِّ رَقَّـشَـهُ بِـالـضُّـحَـى مُـرَقِّـشٌ يَـشِـمُـهْ	طرفة بن العبد	١٦٥
وتَـجْـهَـلُ أَيْـدِيْـنـا وَيَـحْـلُـمُ رأْيُـنـا ونَـشْـتُـمُ بِـالأَفْـعـالِ لاَ بِالتَّـكَـلُّـمِ	معبد بن علقمة	١٦١
الـدّارُ قَـفْـرٌ والـرُّسُـومُ كما رَقَّـشَ فـي ظَـهـرِ الأَدِيـمِ قَـلَـم	المرقش	١٦٤
بَـرِمَـتْ بَـنـو أَسَـدٍ كـمـا بَـرِمَـتْ بِـبَـيْـضَـتِـهـا الـحَـمامَـهْ	عبيد بن الأبرص	١٤٣
جَـعَـلَـتَ لَـهـا عُـودَيْـنِ مِـنْ نَـشَـمٍ وآخَـرَ مِـنْ ثُـمـامَـهْ		
الـنَّـشْـرُ مِـسْـكٌ والـوُجُـوهُ دَنـا نِـيـرٌ وأَطْـرافُ الأَكُـفِّ عَـنَـمْ	المرقش	٤٤
فَـسَـقَـى دِيـارَكِ غَـيْـرَ مُفْسِـدِهاَ صَـوْبُ الـرَّبِـيْـعِ وَدِيْمَـةٌ تَهْمِـي	طرفة بن العبد	١٩٧
مَـخُـوفٌ بـأْسُـهُ يَـكْـلاكَ مِـنْـه عـتـيـقٌ لاَ أَلَـفٌ وَلاَ سَـؤُومُ	زهير بن أبي سلمى	١٢٦

بيت الشعر	الشَّاعر	رقم الصفحة
وَلـم تَلْفِـظِ الأَرْضَ القُبـورَ وَلـم تَـزَلْ نُجُـومُ السَّماءِ والأَدِيمُ صَحِيْـحُ	النابغة الذبياني	١٨٦
تُـطـالِـعُـنـا خَـيـالاتٌ لِسَـلْمَـى كـمـا يَـتَـطَـلَّـعُ الـدَّيْـنَ الـغَـرِيْـمُ	زهير بن أبي سلمى	١٣٢
وإن سُـدَّتْ بِـهِ لَـهَـواتِ ثَـغْرِ يُـشـارُ إليـه جانِبُـهُ سَـقِيمُ		١٢٦
أَلاَ زَعَـمَـتْ بَـنـو كـعـب بِأَنِّي أَلاَ كَـذَبُـوا كَـبِـيـرُ الـسِّـنِّ فانِ	النابغة الذبياني	١٩٧
فَـدَمْعُهُـما سَـكْـبٌ وَسَـحٌّ وَدَيْمَـةٌ وَرَشٌّ وتَـوكـافٌ وَتَـنْـهَـمِـلانِ	امرؤ القيس	١٣٨
لاَ يَـفْـطِـنـونَ لَـعَـيْـبِ جـارِهِـمُ وَهُـم لِـحُـسْـنِ جِوارِهِـم فُطُنُ	قيس بن عاصم	١٥٩
فَـكـأَنَّـهُ والـطَّـعْـنُ مِـن قُـدّامِـهِ مُـتَـخَـوِّفٌ مِـن خَـلْـفِـهِ أَنْ يُطْعَنا	المتنبي	٢١٥
نـفـت الـتـوهـم عنه حدة ذهنه فقضى على غيب الأمـور تيقنا		
أَلاَ أبـلـغْ لـديـكَ بَـنـي تَـمِـيـم وَقَـدْ يـأْتِـيـكَ بـالـخَـبَـرِ الـظَّنونُ	زهير بن أبي سلمى	١٢٦
بِـأَنَّ بُـيُـوتَـنـا بِـمَـحَـلِّ حَـجْـرِ بِـكُـلِّ قَـرارَةٍ مِـنـهـا تـكـونُ		١٢٧
إِلَـى قَـلَـهَـى تَـكُـونُ الـدّارُ مِـنّـا إلـى أَكْـنـافِ دُوْمَـةَ فالحَجُونُ		

بيت الشعر	الشَّاعر	رقم الصفحة
بِـأَودِيَــةٍ أَسـافِـلُـهُـنَّ رَوْضٌ وأَعْـلاَهَــا إذا خِـفْـنــا حُـصُـونُ		١٢٧
نَـحُـلُّ بِـسَـهْـلِـهـا فـإذا فَـزِعْـنـا جَـرَى مِـنْـهُـنَّ بِـالآصـالِ عُـونُ		
وكـلِّ طُـوالَـةٍ وأقـبَّ نَـهْـدٍ مَـراكِـلُـهـا مِـنَ الـتَّـعْـداءِ جُـونُ		
تُـضَـمَّـرُ بـالأصـائِـلِ كُـلَّ يَـوْمٍ تُـسَـنُّ عـلـى سَـنابِـكِـها الـقُـرُونُ		
مَـشَـيْـنـا مِـشْـيَـةَ الـلَّـيْـثِ غَـدا والـلَّـيْـثُ غَـضْـبـانُ	الفِند الزِّمَّاني	١٥٢
ومـأكـمـةٍ يـضـيـق الـبـاب عنهـا وكَـشْـحـاً قَـدْ جُـنِـنْـتُ بِـهِ جُنونا	عمرو بن كلثوم	١٦٦
إذا بَـلَـغَ الـفِـطـامَ لَـنـا صَـبِـيٌّ تَـخِـرُّ لَـهُ الـجَـبـابِـرُ ساجِدِينا		
فَـجـاؤُا عـارِضـاً بَـرِداً وَجِـئْـنـا كَـمِـثْـلِ الـسَّـيْـلِ نَرْكَـبُ وازِعَيْنا	عبد الشارق الجهني	١٤٥
فَـنـادَوْا: يـا لَـبُـهْـثَـةَ إذْ رأونـا فَـقُـلْـنـا: أَحْـسِـنِي مَـلأً جُهَيْنا		
فـلـمّـا أنْ تَـواقَـفْـنـا قَـلـيـلاً أَنَـخْـنـا لِلْـكَـلاكِـلِ فـارْتَمَيْنا		
فَـلَـمّـا لـم نَـدَعْ قَـوْسـاً وَرُمْـحـاً مَـشَـيْـنـا نَـحْـوَهُـمْ وَمَشَـوا إلَيْنا		

بيت الشعر	الشَّاعر	رقم الصفحة
تَـلأْلُـؤَ مُـزْنَــةٍ بَـرَقَــتْ لِأُخْرَى إذا حَـجَـلُــوا بِـأَسْــيـافٍ رَدَيْـنــا		١٤٦
سَــمِـعْـنــا نَـبْـأَةً عَـنْ ظَهْـرِ غَيْـبٍ فَـجُـلْـنــا جَـوْلَــةً ثُــمَّ ارْعَـوَيْـنــا		١٤٥
فـإِنْ أَهْلِـكْ فَـقَــد أَبْـقَيْـتُ بَعْـدِي قَــوافــي تُـعْـجِــبُ الـمُـتَـمَـثِّـلِـيْـنـا	أبو شريح العمير	٢١٨
لَـذِيْــذاتِ الـمَـقــاطِـعِ مُحْكماتٍ لَــو انَّ الـشِّــعْـرَ يُـلْـبَـسُ لارْتُدِيـنـا		
حَلَفْنا لَهُـم والخَيْـلُ تَـرْدِي بِنا مَعـاً نُـزايُـلُـكـم حَـتَّـى تَـهِـرُّوا العَوالِيـا	عنترة	١٤٢
عَـوالِـيَ زُرْقــاً مِــن رِمـاحِ رُدَيْنَـةٍ هَـرِيْــرَ الــكِـلابِ يَـتَّـقِـيـنَ الأَفَـاعِـيـا		
وإِنَّ الـتَّــي حُـدِّثْـتَـهـا فـي أُنـوفِـنـا وأَعْـنـاقِـنـا مِـنَ الإِبـاءِ كـمـا هِـيـا	جزء بن كليب الفقعسي	٩٥
وطيِّـبَ نفسـي أننـي لـم أقـل لـه كذبـت، ولـم أبـخـل عليـه بماليـا	صخر أخو الخنساء	٣٠

* * *



فهرس الأعلام

إبراهيم عليه السَّلام: ٣٢، ١٨١.

ابن بابك: ٤٩.

ابن تيمية: ٢١، ٢٧.

ابن زيّابَةَ الحماسي: ١٧٧.

ابن سعد: ١٣.

ابن المعتز: ٤٩.

أبو الحسن الندوي: ٧.

أبو طالب الرقي: ٤٩.

أبو قُدامَة: ٢١٦.

أبو الكلام آزاد الله: ٢٧.

أحمد حسن فرحات: ٥١.

أحمد علي: ١٠

أحمد مطلوب: ٣٩، ٤٨.

الأَخْطَل: ٢٠٠.

أرسطاطاليس: ٢١، ٣٩.

أرسطوطاليس (أرسطو): ٤٠، ٤١، ٤٢، ٦٢، ٦٥، ٨١، ٩٣، ١٥٣.

الأَصْمَعِيُّ: ١٤١.

أَفْلاطِنْ (أفلاطون): ٦٢، ٨٨، ١٦٩.

امرؤ القيس: ٣٣، ٥٨، ٧٥، ١١٧، ١٢١، ١٢٤، ١٢٨، ١٣٩، ١٩٣، ٢٠٨.

أوس بن حُجْر: ١٦٢، ٢١٦.

الباقِلانِيّ: ١٦٣، ١٧٢.

بَشّار (بن برد) الأَعْمَى: ١٠٩.

بشر بن عمرو بن مرثد: ٧٦.

بَكْر بن النَطّاحِ: ٢١٥.

البُهْلُولُ: ٢٠٤.

تأَبَّطَ شَرّا: ١٠١، ١٦١.

تقي الدين الهلالي: ١٥، ٢٣، ٢٧.

توماس أرنولد: ١٢.

الجاحِظِ: ٤٤، ٤٥، ٦٠، ٧٧، ٩١، ١٥٥، ٢١٧.

جانْ مِلْ: ٨٧، ٨٨.

جبار بن جزء بن ضرار: ٤٨.

جَرِير: ١٦٦، ١٩٩.

جوزف هوروفيتس: ١٣.

حاتم الطّائِي: ١٢١، ١٢٢، ١٢٥، ١٤٠، ١٤٩، ١٦٠، ١٩١.

حارِث بن حِلِزَّة: ١١٥، ٢١٦.

حبيب الرحمن الشيرواني: ١٨.

الحجاج بن يوسف: ٧٧.

حسان العجم (خاقاني الشرواني): ١١، ١٨.

حسن فرحات: ٥٠.
حمّاد الرّاوية: ١٩٤.
خالدة بنت هاشم بن عبدِ مناف: ١٣٦.
الخرنق: ٧٥، ١٣٨.
الخنساء: ٣٠، ١٣٧.
داودَ عليه السَّلام: ١٩٨، ٨٥.
دريد بن الصِّمَّة: ١٦٠.
ذو الرّمّة: ١٣٥.
الرّازِيّ: ١٩٢، ٢١٠.
الزّمَخْشَرِيّ: ١٧٢.
زهير بن أبي سلمى: ٧٣، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٢، ٢٠٨.
زُوكْسِيسْ: ٩٣.
سليمان الندوي: ٩، ١٦، ٢٦.
سليمان عليه السلام: ١٧٩.
سوفوكليس: ٦٤.
سيد أحمد: ١٣.
الشماخ: ٤٨.
شبلي النعماني: ١١، ١٤، ١٥، ١٦، ١٨، ١٩، ٢٢، ٢٨، ٣٩.
الصنوبري: ٤٩.
صحار العبدي: ٨٣.
صخر بن عمرو بن الحرث بن الشريد (أخو الخنساء): ٣٠.
صفية بنت عمْرو: ١٣٨.
طَرَفَةَ بن العبد: ٧٨، ١٣٨، ١٦٥، ١٦٩، ١٩٧.
عبد الحي الأنصاري اللكنوي: ١١.
عبد القاهر الجرجاني: ٢٢، ٣٩، ٤٠، ٤٤، ٤٨، ١٤٧، ١٥٤، ١٩٥.
عبد الله بن عمرو بن عثمان: ٨٢.
عبد الماجد الدريابادي: ١٦، ١٨، ٢١.
عبيد بن الأبرص: ٧٨، ١٣٢، ١٤٦، ١٤٣.
عَلْقَمَةَ بْن عُلاثَةَ: ٢١٣.
علي بن أبي طالب: ١٧.
علي بن عبدالله بن عباس: ٤٦، ١٥٦.
عماد الملك البلجرامي: ١٩، ٢٠.
عمر بن الخطاب: ٣٠.
عمْرو بن قميئة: ١٢٩.
عمْرو بن كُلْثُوم: ١١٥، ١١٤، ١٦٦.
عمْرو بن هِنْد: ١٩٥.
عَنْتَرَة: ١٣٢، ١٤١.
عيسى عليه السَّلام: ٨٥، ١٣٠، ١٣١.
فاروق العباسي: ١١.
فاطمة بنت الأَحْجَم: ١٣٦.
الفراهي (عبد الحميد): ٩، ١٠، ١٢، ١٤، ١٦، ١٩، ٢٧، ٣٠، ٣٤، ٣٨، ٤١، ٤٧، ٥٠، ٢١٤.
الفردوسي: ٥٨، ١٩، ١٦٧، ١٨١.
الفَرَزْدَق: ١٩٩، ٢٠٠، ٢١٤.
فضل الله بن نعمة الله الأنصاري: ١١.

فيض الحسن السهارنفوري: ١٢.
قُراد بن غوية: ١٦٥.
القَطامِيُّ: ١٠٨.
قَيْسُ بن الخُطَيم: ١٢٢.
قَيْسُ بن عاصِم المَنْقَرِي: ١٢٩.
كشاجم: ٤٨.
لَبِيْد (بن ربيعة): ١٥٠، ٢١٣، ٢١٤.
المُتَنَبِي: ٢١٤، ٢١٥.
محمَّد ﷺ: ٥، ٩٧.
محمد أجمل أيوب الإصلاحي: ٩، ٣٨، ٥١.
محمد إقبال: ٥٠.
محمد المبارك: ٧، ٨.
محمد أمانة الله: ٨.
محمد صالح: ١٩، ٢٠.
محمد عناية الله: ٨.
محمد مهدي: ١١.
المُرَقِّش: ٤٤، ١٥٣، ١٦٤، ٢١٩.
مَعْبَد بن عَلْقَمَة: ١٦٠.
مِلْطُنْ (جون ملتون): ١١٠.
المُهلهَل: ١١٥، ١٤٥، ١٥٨.
مُوْسَى عليه السَّلام: ٩٦.
النابغة (الذبياني): ١٢٩، ١٣٢، ١٨٦، ١٩١.
نابِغَةُ بَنِي جَعْدَة: ١٩٧.
نُصيب: ١٤٣.
نوحٍ عليه السَّلام: ١٧٨، ١٧٩، ١٨٧.
هَرَم سنان: ١٢٦.
هُوْد عليه السَّلام: ١٨٧، ١٩٨.
هُومِرُوسْ: ٥٨.
يُوراب دِيس (يوربيدس): ٦٦.

* * *

فهرس المصادر والمراجع

- أساليب القرآن، للفراهي، طبع الدائرة الحميدية، أعظم كره، الهند، ط٢، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- الاستيعاب، لابن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، طبع دار الجيل بيروت ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
- أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، نشر دار المدني جدة، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.
- إسعاف المبطأ برجال الموطأ، لعبدالرحمن ابن أبي بكر أبو الفضل السيوطي، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.
- الاشتقاق لابن دريد، تحقيق عبد السلام هارون، طبع دار الجيل بيروت، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- أعلام النساء، لعمر رضا كحالة، طبع مؤسسة الرسالة.
- الأعلام للزركلي، طبع دار العلم للملايين، ط١٥ - أيار/ مايو ٢٠٠٢م.
- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، طبع دار الفكر - بيروت.
- أمالي المرتضى، نشر عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٣-١٩٥٤هـ.
- الأمالي لأبي علي القالي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.
- البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، بتحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط٢، نشر مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٦٠م.
- تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزَّبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، نشر دار الهداية.

- تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١هـ-١٩٩٥م
- تاريخ ابن الوردي، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، سنة النشر ١٤١٧هـ-١٩٩٦م
- التذكرة الحمدونية، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، طبع دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦.
- تهذيب الآثار الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر، نشر مطبعة المدني - القاهرة.
- توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، لابن ناصر الدين شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد القيسي، تحقيق نعيم عرقسوسي.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، تحقيق د. محمود الطحان، طبع مكتبة المعارف - الرياض.
- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، تحقيق الدكتور محمد علي الهاشمي، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، ط١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش نشر دار الجيل، سنة النشر: ١٤٠٨-١٩٨٨م.
- الحماسة البصرية: بتحقيق الدكتور عادل سليمان، نشر وزارة الأوقاف - مصر - ١٩٨٧م.
- الحماسة المغربية:، لأبي العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، طبع دار الفكر، بيروت، دمشق، ط١، ١٩٩١.
- الحيوان، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، نشر مصطفى البابي، ١٣٨٤-١٩٦٥م.
- خزانة الأدب، للبغدادي، بتحقيق عبد السلام هارون، ط٤، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- خزانة الأدب، للقادري، بتحقيق محمد نبيل طريفي، وإميل بديع يعقوب، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، لزينب بنت علي، نشر المطبعة الكبرى الأميرية، مصر.

- دلائل الإعجاز، بتحقيق الأستاذ محمود شاكر، نشر مكتبة الخانجي ـ مطبعة المدني.
- دلائل النظام، للفراهي، المطبعة المحمدية، ط١، الهند.
- ديوان الخرنق، تحقيق يسري عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠-١٩٩٠م.
- ديوان الخنساء، شرح ثعلب أحمد بن يحيى بن سيار الشيباني النحوي، بتحقيق الدكتور أنور أبو سويلم، دار عمار، عمان، ١٩٩١م.
- ديوان الشماخ، تحقيق صلاح الدين محمد الهادي، طبع دار المعارف، القاهرة، مكتبة الدراسات الأدبية، ١٩٦٨ ١٣٨٨.
- ديوان القطامي، تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب، طبع دار الثقافة بيروت، ط١، ١٩٦٠م.
- ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، تحقيق أحمد سليمان معروف، وزارة الثقافة دمشق، ١٩٨٤م.
- ديوان النابغة، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار المعارف.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار المعارف،
- ديوان أوس بن حُجْر، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم، طبع دار صادر، ط٣، ١٩٧٩م.
- ديوان بشار بن برد، جمع وشرح وتكميل وتعليق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، طبع الشركة التونسية للتوزيع، سنة ١٩٧٦م.
- ديوان تأبط شراً، بتحقيق علي ذو الفقار شاكر، طبع دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٤م.
- ديوان جرير، تحقيق الدكتور نعمان محمد أمين طه، طبع دار المعارف مصر.
- ديوان حاتم بن عبد الله الطائي، صنعة يحيى بن مُدرك الطائي، ورواية هشام بن محمد الكلبي، دراسة وتحقيق الدكتور عادل سليمان جمال. مكتبة الخانجي، ط٢، القاهرة، ١٩٩٠.

- ديوان دريد بن الصمة، بتحقيق الدكتور عمر عبد الرسول، طبع دار المعارف، مصر.
- ديوان ذي الرمة، بتحقيق الدكتور عبد القدوس أبو صالح، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق، مطبعة طربين، ١٩٧٢م.
- ديوان طرفة، تحقيق الدكتور علي الجندي، طبع مكتبة الأنجلو المصرية، وديوان طرفة، بتحقيق درية الخطيب، ولطفي الصقال، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٥م.
- ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق وشرح دكتور حسين نصار، ط١، ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م، نشر مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
- ديوان عمرو بن قميئة، بتحقيق حسن كامل الصيرفي، طبع المنظمة العربية للثقافة والعلوم، ط٢، ١٩٩٧م.
- ديوان عمرو بن كلثوم، صنعة الدكتور علي أبو زيد، ط١، ١٩٩١م، طبع دار سعد الدين، دمشق.
- ديوان عنترة، بتحقيق محمد سعيد مولوي، طبع المكتب الإسلامي.
- ديوان قيس بن الخطيم، بتحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي، وأحمد مطلوب، طبع مطبعة العاني ببغداد، ط١، ١٩٦٢م.
- ديوان مهلهل بن ربيعة، تقديم طلال حرب، طبع دار صادر، بيروت.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، طبع دار الحديث ـ القاهرة.
- شرح ديوان الحماسة، لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط٢، طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٧م.
- شرح ديوان المتنبي، لعبد الرحمن البرقوقي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة الإمام ثعلب أبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني، طبع دار الكتب المصرية، ١٩٤٤م.
- شرح معاني الآثار، للطحاوي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م ـ ١٤٢١هـ.

- شعر الفند الزماني، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضامن، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد السابع والثلاثون، الجزء الرابع، ص٢٨٨-٣١٣.
- شعر نصيب بن رباح، جمع وتقديم الدكتور داود سلوم، طبع مطبعة الإرشاد ـ بغداد ـ ١٩٦٧م.
- الشعر والشعراء لابن قتيبة، بتحقيق أحمد شاكر، ط٢، طبع دار المعارف، القاهرة.
- الصحاح للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، نشر: دار العلم للملايين، ط٤، بيروت، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧ م
- صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبع دار إحياء التراث العربي، [١٩٧١] ١٣٩٢هـ.
- الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، طبع المكتبة العنصرية ـ بيروت.
- الفهرست، لابن النديم، تحقيق إبراهيم رمضان، ط٢، دار المعرفة بيروت ـ لبنان، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.
- فن الشعر، لأرسطوطاليس، ترجمة عبد الرحمن بدوي، طبع مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٣م.
- القاموس المحيط، للفيروز آبادي، تحقيق نعيم العرقسوسي، طبع مؤسسة الرسالة، ط٨، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥ م
- قاموس ناثان الفلسفي، تأليف جيرار دوروزوي وأندريه روسيل. مراجعة: ديمتري أفييرينوس. تعريب أكرم أنطاكي.
- القائد إلى عيون العقائد، للفراهي، ط١، طبع أعظم كره، الهند: الدائرة الحميدية ومكتبتها، ١٩٧٥ ١٣٩٥هـ.

- قصة الحضارة، ديورانت، طبع دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨م.
- كتاب الحماسة البصرية، تحقيق الدكتور عادل سليمان، ط١، ١٩٩٩م، طبع مكتبة الخانجي.
- لسان العرب، لابن منظور، طبع دار صادر ـ بيروت، ط٣، ـ ١٤١٤هـ.
- مجمع الأمثال، للميداني، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، طبع دار المعرفة ـ بيروت، لبنان.
- المحكم لابن سيده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م
- المختصر في أخبار البشر، لابن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة، طبع المطبعة الحسينية المصرية.
- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، للشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع مطبعة السعادة، ١٩٤٧م، مصر.
- معجم الأديبات الشواعر لأبي العزم جمال الدين محمد الحسن بك السمان الحموي الحسيني، بتحقيق أحمد يوسف الدقاق، طبع دار الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩٦.
- معجم الفلاسفة المختصر، د. خلف الجراد، طبع المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- معجم الفلاسفة لجورج طرابيشي، ط٣، طبع دار الطليعة بيروت.
- المعجم المفصل في الأدب للتونجي، طبع دار الكتب العلمية، سنة النشر: ١٤١٩-١٩٩٩
- المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية، طبع مكتبة الشروق الدولية، سنة النشر: ٢٠٠٤
- معجم ما استعجم، للبكري، بتحقيق مصطفى السقا، طبع عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.
- مفردات القرآن لعبد الحميد الفراهي، تأليف الدكتور محمد أجمل أيوب، بحث مقدم ـ لندوة: «عناية المملكة بالقرآن الكريم وعلومه»، والتي نظَّمَها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف بالمدينة المنورة.

- المفضليات، للضبي أبي العباس، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف ـ القاهرة، ط٦
- المنجد في اللغة والأعلام، للويس معلوف، طبع المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت.
- المؤتلف والمختلف للآمدي، تحقيق ف. كرنكو، نشرمكتبة القدسي.
- الموسوعة العربية العالمية، لمجموعة من العلماء والباحثين، نشر مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، سنة النشر ١٩٩٩م.
- الموسوعة العربية الميسرة، لمجموعة من العلماء والباحثين، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، سنة النشر: ١٤٣١-٢٠١٠م.
- موسوعة علماء ومشاهير، لخليل البدوي، طبع دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٩٩م.
- نقد الشعر لقدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، طبع مكتبة الخانجي، ١٩٦٣-١٣٨٣
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات الجزري، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي. طبع عيسى البابي الحلبي، سنة النشر: ١٣٨٣-١٩٦٣م.

* * *

فهرس مباحث الكتاب

الموضوع	الصفحة
الافتتاحية	٥
المقدمة	٧
(١) اسمه ونسبه ونشأته العلمية	١٠
(٢) مناصبه وأعماله التعليمية والإدارية	١٣
(٣) صفاته وأخلاقه	١٦
(٤) ثقافته وعلومه	١٧
(٥) مصنفاته	٢٤
(٦) وفاته وثناء العلماء عليه	٢٦
العلامة عبد الحميد الفراهي إمام العربية والتفسير	٢٨
العربية والعرب في نظر الفراهي	٢٨
خصائص لسان العرب وخطهم	٣٥
كتاب «جمهرة البلاغة»	٣٨
عملنا في الكتاب	٥٠
خطبة الكتاب	٥٥
القسمُ العُموميّ: (بَحْثٌ عن مَحَلِّ هذا العِلْمِ ونَسَبِه)	٥٧
صُعُوبةُ مَعْرفةِ مَحاسِنِ الكَلام	٥٧
(بَلاغَةُ العَجَمِ)	٦٠

الموضوع **الصفحة**

(بلاغةُ العَرَب) ٦١
قَصْدُ السَّبِيْلِ إلى البَلاغَة ٦٩
فَصلٌ: في حَدِّ الشِّعْرِ والخَطابةِ والفَرْق بينهُما ٨١
الفَرْقُ بين الشِّعْرِ والنَّثْرِ البَلِيغ ٨٧
طريق البلاغة ٩٢
طُرقُ التَّوْضِيْحِ من جِهةِ اسْتِعمالِ الأَلْفاظ ٩٧
التَّوْضِيْحُ من جِهَةِ الصَّوْت ١٠٣
فَصلٌ: في الوضاحة من جِهَةِ اخْتَيارِ المَعاني ١١٣
فَصلٌ: في تَصْوِّيرِ الشيءِ بالتَّشْبيهِ والاسْتِعارةِ والتَّمْثيلِ والمَجازِ ١٣٠
دَلالَةُ التَّشْبيه ١٤٦
المَذْهَبُ الباطِلُ في التَّشْبِيْه ١٤٧
بابٌ: في بَيانِ أُصُولٍ عامَّةٍ لِلْبَلاغَة ١٤٨
١ ـ الاعْتِدالُ ١٤٨
٢ ـ مُطابَقَةُ الكلامِ بِالمَعْنَى ١٤٩
٣ ـ سَذاجَةُ الكلامِ ١٥١
٤ ـ التَّرْتِيْبُ ١٥٢
٥ ـ المُقابَلَةُ ١٥٨
٦ ـ تَمْيِيْزُ المَعانِي وفَرْقُ دَرَجاتِها ١٦٣
٧ ـ تَنْقِيْحُ الأَلفاظ ١٦٤
٨ ـ الإِيْجاز ١٦٧
أُصُولٌ لِلإِيْجازِ والإِطْناب ١٦٨

الموضوع | الصفحة

فَصْلٌ: في الإِيْجازِ والإِطْنابِ ١٧٠
٩ ـ إِدِّخارُ الأَلفاظِ والأَسالِيْبِ ١٧٠
١٠ ـ مَنْبَعُ الكلامِ ١٧١
واسِطَةُ العِقْدِ ١٧٣
القسم الخصوصي ١٧٥
(١) دَلالَةُ الوصْلِ ١٧٥
دَلالَةُ الوصْلِ بِالحَذْفِ، أو تَقْدِيْمِ المُتاخِرِ على السُّرْعَةِ، وصِحَّةِ التَّصْوِيْرِ، وأُمُورٍ أُخَرَ... ١٧٧
دَلالَةُ الفَصْلِ ١٨٢
فَصلٌ ووصْلٌ بِالخَيالِ ١٨٢
(٢) حَظُّ السّامِعِ ١٨٤
(٣) دَلالَةُ الحَذْفِ ١٨٥
(٤) من حُسْنِ التَّرتِيبِ ١٨٨
إِدْراجُ الدَّليلِ ١٨٨
تَذْكِرَةُ التَّرتِيبِ في النَّسَقِ ١٨٩
(٥) المُقابَلَةُ ١٩٠
الاسْتِثْناءُ ١٩١
(٦) بابٌ في انْتِهازِ الفُرْصَةِ ١٩٢
ما يُشْبِهُ انْتِهازَ الفُرْصَةِ في القرآنِ ١٩٧
(٧) المَجازُ والكِنايَةُ والتَّشْبِيهُ ١٩٨
دَلالَةُ الْمَجازِ في الأَزْمِنَةِ ٢٠١
(٨) لِسانُ الغَيْبِ ٢٠٢
(٩) الإِشارَةُ والكِنايَةُ والتَّعْرِيْضُ ٢٠٣

الموضوع	الصفحة
مَباحِثُ مُتَفَرِّقَةٌ	٢٠٥
صَرْفُ الكلامِ عَنْ سُنَنِهِ	٢٠٥
الجُمْلَةُ المُعْتَرِضَةُ	٢٠٥
وُجُوهُ الخَطا في التَّمْيِيْزِ بين حَسَنِ الكلامِ وقَبِيْحِهِ	٢٠٦
رُوْحُ البَلاغَةِ وسِرُّها	٢٠٧
كمالُ البَلاغَةِ والإعجازِ	٢٠٨
مَناطُ مَحاسِنِ كَلامِ العَرَبِ	٢٠٩
أَخْلاقُ العَرَبِ	٢٠٩
قُوى العَرَبِ العَقْلِيَةِ والكلامِيَةِ	٢٠٩
في ارتِجالِ العَرَبِ	٢١٠
(من أَبْوابِ سَجايا العَرَبِ فيما يَتَعَلَّقُ بِالبَلاغَةِ)	٢١٠
صَوْتُ الخُطَبِ	٢١٢
مَذْهَبُ العَرَبِ في نَقْدِ الكَلامِ	٢١٢
بابٌ مِن التَّمْرِينِ في النَّقْدِ	٢١٤
من بابِ نَقْدِ الكَلامِ	٢١٦
الفَواصِلُ والقَوافي	٢١٧
الفهارس الفنية	٢٢١
فهرس الآيات القرآنية	٢٢٣
فهرس الأحاديث النبوية	٢٣١
فهرس الأبيات الشعرية	٢٣٣
فهرس الأعلام	٢٥١
فهرس المراجع والمصادر	٢٥٥
فهرس مباحث الكتاب	٢٦٣